دومينيك فارال



مطالعة داخلية

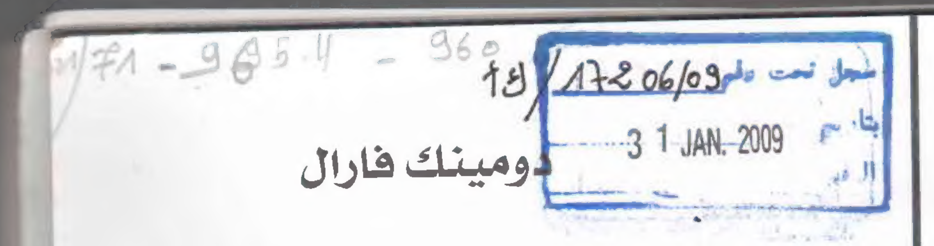
معركة جبال النمامشة (1954 - 1962)

مثالٌ ملموس من حرب العصابات والحرب المضادة

دار القصبة للنشر

معركة جبال النمامشة

(1962 - 1954)





طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

دومينك فارال

معركة جبال النمامشة

(1954 ـ 1962)

مثالٌ ملموس من حرب العصابات والحرب المضادة



ترجمة مسعود حاج مسعود

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى الـ 45 لعيد الإستقلال والشباب

دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – 16012، الجزائر

تدمك : 7 – 741 – 64 – 9961 – 978
الإيداع القانوني 2436– 2008

تنبيه

عندما طلب منّا نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ترددنا بعض الشيء، ثم انطلقنا في الترجمة إيمانا منّا بمبدأ تسليح القارئ الجزائري ، والمعرّب خاصة، بأدوات التحليل والنقد لأدبيات "السوسيولوجيا الكولونيالية" التي كتبها الضباط الفرنسيون عن المجتمع الجزائري حول" الإسلام "و" العرب" و"البربر" وحتى يستوعب الجيل الصاعد، المعنى الحقيقي لسياسة "فرق تسد" التي أصبحت مفهوما حفر وبني وأسس ضمن قالب "علمي" ليصبح" أسطورة بربرية" ولتتحول فيما بعد إلى أسطورة قبائلية.[1]

يقول مؤلف هذا الكتاب:" وباعتبار أن البربر كانت لهم، في القديم، وشائج متينة مع أمم الغرب وسبق لهم أن صمدوا في وجه التعريب فكان في إمكانهم الرجوع إلى أصولهم وعودة قسم منهم إلى أحضان المسيحية. لو حدث ذلك لكان بمثابة جسر بين الجزائر ودول الغرب؛ ولكن حدث العكس فتواصلت عملية التعريب في ظل السيطرة الفرنسية على حساب الخصوصية البربرية."

---

1 . " هناك دراسات أجريت في المناطق الجبلية الأكثر كثافة سكانية من طرف النقيب "كارات Carette" في سنة 1848 وهي دراسة جد مفصلة سبقه في ذلك العقيد " دوما Dumas" بمساعدة نقيب آخر يدعى " فابار Fabar" حيث اشتغل هؤلاء في وصف المجتمع القبائلي وعاداته والمتميزة وذلك انطلاقا من فكرة مفادها أن "القبائلي عدوّ اليوم يمثل حليف المستقبل" وقد وصلت دراسات دوما وفابار بالترويج لفكرة " التكامل الفرنسي- البربري" بين "الشعب المعلم" و" الشعب التلميذ" وذلك كله من أجل تأسيس بذور التفرقة في الجزائر بين العرب والقبائل.." راجع كلود فتان وجون لوكا: جزائر الأنثروبولوجيين أو نقد السوسيولوجية الكولونيالية" ترجمة دار القصبة لصالح وزارة المجاهدين، الجزائر ، 2004.

وعلى حد قول شارل روبير آجرون، فإن "الأسطورة القبائلية كانت تتطابق مع المثل الإدماجي والاستيعابي القديم الذي عثر على "متوحش طيب" يتماشى ومقاسه. فقد كانت هذه الأخيرة (الأسطورة القبائلية) لسنوات 1840- 1870 قائمة على استدلال علماء مزيفين، ومدعومة بحقد العرقيين المتبادل، وازدهرت طويلا كمصدر للأفكار السمجة. بيد أنه بعد 1890 تغيرت الأوضاع، فالمعمرون الذين استعادوا الأمل بين 1871 و1873 في توسع أراضي الاستعمار لم تعد لهم مصلحة جمّة في تمجيد القبائلي. وان سلاح فرنسا المتمثل في هذه الأسطورة لتفريق الجزائريين أنقلب ضدها(...)" ألم تنطلق الثورة المسلحة من جبال الأوراس وجرجرة وتحطمت أحلام الجينرال ليوتي الذي كتب يقول:" علينا بتجنب تعليم اللغة العربية للبربر لأنها تجّر إلى الإسلام"؟.

يقول **دومينك فارال**، صاحب هذا الكتاب:". لم تُرتكب في الجزائر مجازر ضد السكان الأصليين على عكس ما جرى في الولايات المتحدة في تلك الفترة التاريخية نفسها .بل وضعت فرنسا حدا للنزاعات القبلية وحسَّنت الظروف الصحية وقضت على الأوبئة وطورت مستوى الإنتاج ووسائل النقل والاتصال والتبادل التجاري وأدخلت تحسينات على أساليب الريِّ واستصلحت أراض زراعية جديدة وخفَّفت من حدة المجاعات" ويواصل قائلا:". لم يحدث خلال (يقصد به تواجد الاستعمار الفرنسي) أن أُبعدت القبائل العربية والبربرية عن مناطقها ولا حُشرت في مناطق ضيقة مخصصة مثلما وقع في الولايات المتحدة مع الهنود الحمر(...) يا لها من مغالطات...!! من هجّر السكان الأصليين إلى كاليدونيا الجديدة... أكيد أن صاحب هذا الكتاب لم يقرأ الكتاب المرجعي الذي كتبه صديقنا واستأذنا فرانسوا ماسبيرو تحت عنوان "سانت آرنو أو الشرف الضائع"[2] .

نذكر فقط ببعض ما جاء في رسائل السفاح سانت آرنو وقائده بيجو [(...) في منطقة وادي الشلف لمعاقبة بني راشد وبني روميان: "إني مع جيشي الصغير، أحرق الدواوير وأكواخ المتمردين وأسلبهم أغنامهم وأفرغ مطامرهم وأبعث إلى مليانة كل ما أجد فيها من شعير وقمح" .

2. فرانسوا ماسبيرو، سانت آرنو أو الشرف الضائع، دار القصبة للنشر، الجزائر 2007.

وفي سفح الونشريس عند بني سنجاس : "إنني محاط بأفق من النار والدخان يذكرني بمشاهد المنمنمات التي تصور حياة القصور في أوروبا الوسطى، أفكر فيكم واكتب إليك إنها مخازن ثرية فعلا وتدل على وفرة الخيرات".

وفي الأيام التي تلت نهاية المعارك تم جمع 2000 وبضع مئات من الجثث وكان ما يربو على ثلثي العدد في المدينة، فكان الناس يسيرون وسط الدماء وكانت الجثث المتراكمة تحول دون المرور، يقال إن المدينة كانت نتنة برائحة الموت مدة طويلة ولا أظن أن تلك الرائحة قد فرقتها تماما ...

اليوم سأقوم بإحراق ممتلكات وقرى بن سالم وبلقاسم أوقاسي ... يقول :"تكبدت القبائل خسائر معتبرة وكنا نمشي فوق جثث القتلى" ثم اختصر القول :"إنها صفقة رائعة".

كتب بيجو في رسالة بتاريخ 11 جون 1845 بخصوص سكان منطقة الظهرة الذين تعودوا في أوقات الخطر بالالتجاء إلى المغارات قائلا : "إذا انسحب هؤلاء الأوغاد إلى مغاراتهم فافعلوا بهم مثلما فعل "كافينياك" من قبل :أخنقوهم بالدخان الكثيف مثل الثعالب".]. وندعو القارئ التمعن جيدا في الألفاظ المستعملة من قبل المؤلف :

"لقد ارتضى شاوية الأوراس والنمامشة بالاستعمار الفرنسي، في الفترة ما بين 1872 و1914، وتوافقوا معه بسهولة أكبر مقارنة مع مقاومتهم الشرسة ضد الاستعمار العربي. وكان الاستعمار الفرنسي أكثر رفقا ولطفا من الاستعمار التركي".

وحرصا منا على التقيد بالأمانة العلمية، بقدر ما تتيحه ضرورات الترجمة، في نقل أفكار المؤلف و"قناعاته السياسية" و"أحكامه المسبقة" وحججه ومبرراته "الموضوعية أو المغرضة" فحاولنا صياغتها باللغة العربية كما وردت في اللغة الفرنسية.

لن يغيب على القارئ الكريم أننا تعمدنا استعمال العبارات والصيغ كما أوردها المؤلف ولم نحاول "تلطيفها" أو "تصويبها" أو استبدالها بمفردات وتسميات متداولة عندنا.

نشيرُ، على سبيل المثال لا الحصر، إلى أن المؤلف دأب في ثنايا كتابه على استعمال العبارات التالية: "حركة التمرُّد" في الحديث عن "حركة التحرير"؛ و"حرب الجزائر" بدل "ثورة الجزائر" و"عصابات المتمردين" في الحديث عن "مجموعات المجاهدين" و"الإرهابيين والعمليات الإرهابية" بدل "الفدائيين والعمليات الفدائية" وهلم جرا...

كما نود لفت انتباه القارئ إلى أننا التزمنا بكتابة أسماء العسكر "الفرنسيين" بالحرفين العربي واللاتيني توخيا للتنبيه إلى أن بعض تلك الأسماء ما تزال إلى يومنا متداولة بين بعض الجزائريين عند ذكر بعض أسماء الأحياء في المدن والقرى الجزائرية إما سهواً أو بغير علم.

ما نتمناه ونطمح إليه هو خدمة العمل التعريبي وبهذا فقط نكون قد فضلنا الفعل وابتعدنا عن الانفعال.

مصطفى ماضي

الجزائر في يوم 1 جويلية2008

مدخــــل

منطقة النمامشة كتلة جبلية ذات مناظر طبيعية خلابة؛ مساحتها شاسعة تساوي مساحة عمالتين فرنسيتين. تقع جنوبي قسنطينة يحدها كل من القطر التونسي والصحراء وجبال الأوراس. وهي منطقة وعرة بسبب تكوينها التضاريسي ذي الرؤوس الجبلية المسننة والكتل الصخرية القاحلة والشعاب الضيقة التي تتخللها شبكة من الوديان المحصورة بين جُرُفٍ بديعة المنظر. لكن وديانها تكون جافة في غالب الأحيان.

هذه الكتلة الجبلية مأهولة، منذ أقدم العصور، من طرف البربر وهم أقوام جموحون ذوو أنفة وعزة نفس لم يخضعوا ولا استكانوا طيلة تاريخهم الطويل والحافل بالوقائع.

كان هؤلاء البربر مجندين، في صفوف الخيَّالة النوميديين، العاملين في الجيش القرطاجي وجابهوا الجيوش الإغريقية ثم الرومانية، في صقلية، وهي تضم أحسن المحاربين آنذاك. كما انتقل المحاربون البربر إلى أسبانيا بقيادة حنَّبعل (Annibal) واخترقوا جبال البرانس ثم كتلة جبال الألب فاجتاحوا إيطاليا حيث سحقوا عدة جيوش رومانية وجعلوا العاصمة روما ترتعد من شدة الذعر؛ وكان لهم دور حاسم في الانتصارات التي أحرزها حنَّبعل في نواحي مدينة كان (Cannes) حيث جرت واحدة من أكبر المعارك التي سجلَّها التاريخ. وقاتلوا أيضا في معركة زاما الشهيرة

التي تعتبر منعطفا خطيرا في تاريخ الأمم الغربية. كما ساهموا، تحت إمرة ماسنيسا، في تأسيس إمبراطورية بربرية ذات حضارة مزدهرة ما لبثت أن تربعت على قسم كبير من شمال إفريقيا واستمرت في الوجود ما ينيف عن قرنين من الزمن. وفي عهد يوغرطة خلقوا مشاكل عويصة وأثاروا قلاقل لا تنهي في وجه السيطرة الرومانية؛ وحاربوا يوليوس قيصر على الشواطئ التونسية وهزموا، على التوالي، كلا من جيوش الوندال والبيزنطيين والعرب.

صمد البربر بعناد وإصرار، في معاقلهم الجبلية، وعضوا بالنواجذ على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم في زمن السيطرة التركية ثم الفرنسية.

كثيرا ما طُفتُ، شخصيا، في أرجاء جبال النمامشة وتنقلتُ في شتى الاتجاهات سيرًا على الأقدام، تارة، وعلى متن السيارة أو فوق صهوة الحصان تارة أخرى وحلّقتُ في سماء المنطقة بواسطة الطائرة العمودية مرات عديدة.

كانت جبال النمامشة مسرحا لمعارك ضارية يمكن اعتبارها نموذجا ملموسا لحرب العصابات والحرب المضادة.

لئن كانت الحروب التقليدية، التي تخوضها الجيوش النظامية، مظهرا من المظاهر الممكنة للصراع بين شتى الدول؛ فإن حركات التمرد والعصيان، ذات البُعد الوطني أو الاجتماعي أو الديني، مغايرة تماما لتلك الحروب التقليدية سواء من حيث التكتيك المُتبع أو الوسائل التقنية والأساليب النفسية المُنتهجة. قد تؤول تلك الحركات في بعض الحالات إلى تشكيل جيوش نظامية فتصبح شبيهة بالأولى؛ غير أنها غالبا ما تكتفي بانتهاج حرب العصابات سواء في المناطق الحضرية أو الريفية فتنتصر حين تثبط عزيمة خصمها أو تخور إرادته.

وقد يحدُث أن يكون المتمردون أقلية: مثلما كان الأمر إبان ثورتي 1848 و1871 في باريس؛ حيث كانت أغلبية السكان الفرنسيين موالية للحكومة بالرغم من الظروف المأساوية التي كانت تعيشها الطبقة الشغيلة آنئذ.

هذه المعاينة هي التي دفعت بعض الزعماء الثوريين، على غرار لينين، إلى الاعتقاد بإمكانية انتصار الأقلية الناشطة ضد الأغلبية حين تقف موقفا سلبيا أو تكون عديمة الاكتراث بمجريات الأمور.

لذالك لم يكن لينين يعول على حزب من النمط الاشتراكي الشيوعي المعتدل القادر على إحراز أصوات الأغلبية في الانتخابات بفضل صيغة من صيغ التراضي مع الطبقات الوسطى؛ بل عمد إلى تشكيل نواة صلبة لحزب صغير من الاشتراكيين المحترفين، أي من البولشفيك، الذين أصبحوا فيما بعد يُعرفون باسم الشيوعيين.

أطاح لينين، في سنة 1917، بالحكومة الروسية ذات التوجه الاشتراكي والديمقراطي؛ بالرغم من كونها تتمتع بالأغلبية الانتخابية. وإثر ذلك بادر إلى تأسيس نظام ديكتاتوري ثم سحق انتفاضات خصومه واستولى على زمام السلطة بالقوة؛ وذلك ما أسفر عن عهد من الاستبداد الستاليني وتفرُّد الحزب الواحد بالسلطة وكانت العمليات الانتخابية تُرشح أنصار ستالين دون غيرهم في حين حُكم بالنفي على المناوئين وفُرضت الرقابة على الجميع وقامت دولة ذات طابع بوليسي وطفت إلى السطح نخبةٌ تتمتع بامتيازات أكبر بكثير من تلك التي كانت لدى الفئة الحاكمة سابقا وهلم جرا مما تبع ذلك من إعدام واعتقال وحجز ومظالم تجاوزت في جورها ما كان مسلطا على رقاب الناس في ظل النظام البائد.

هكذا وُلدت تقنية الحركات التمردية؛ وصار من الممكن توجيهُها للإطاحة بحكومة ديمقراطية من طرف أقلية سياسية أو عرقية أو دينية أو باسم القانون العام.

وصار في مقدور بعض الأقليات الانفصالية زعزعةُ الحكومات التي فازت بأغلبية الأصوات في الانتخابات. كما أصبح في مقدور بعض الأقليات العرقية المتمركزة في أوروبا، وبفضل حركة الهجرة الكثيفة، أنْ تستعمل بعضًا من تلك التقنيات لتعزيز نفوذها على يد بعض التنظيمات الدينية الأصولية الساعية للوصول إلى السلطة اعتماد على تقنيات حرب العصابات في المدن والأرياف.

وكثيرا ما انجر عن حركات تصفية الاستعمار انتقالُ السلطة إلى أقليات إرهابية غير مؤهلة للحكم ولكنها فرضت نفسها بفضل أساليبها الدموية؛ ولقد اضطرت بعض الأمم المتحضرة إلى الخيار بين ترك الأمور على عواهنها وغض الطرف عن إبادة وقهر وتعذيب وتجويع شرائح واسعة من السكان من طرف جماعات من المتعصبين وبين التدخل باسم النجدة الإنسانية ولو اقتضى الأمر دخولها في مواجهة عسكرية ضد الحركات التمردية.

بيد أن التقنيات المستعملة من طرف الحركات التمردية ليست أمرا حتميا لا يمكن تفاديه بل هناك وسائل عديدة للتصدي لها. في هذا الصدد يعتبر الماريشال غالييني (Gallieni) من أوائل الرواد في هذا المضمار.

تعتبر حركة التمرد مهنة قائمة بذاتها تتولى تنفيذها فئةٌ من الثوريين المحترفين. كما تُعتبر الحرب المضادة للتمرد مهمة خاصة أيضا يوكل أمر تنفيذها إلى المحترفين وهي حرفةٌ من بين الحرف التي ينبغي أن يتدرب عليها الجند في الدول الديمقراطية تحسبا لمواجهة هذا النوع من الصراعات.

يندرج في هذا الإطار، مثلا، فشلُ محاولة الاستيلاء على السلطة من طرف الشيوعيين اليونان سنة 1949؛ كما أن انتصار جبهة التحرير الوطني في الجزائر لم يكن قدرًا محتوما بل عكس هذا تماما.

ولقد أدخلت حرب العصابات تعديلات كبيرة على الأوضاع في العالم وأصبح في مقدورها خلق الاضطراب وإثارة القلاقل في عدة مناطق منه. إنها حركات تعتمد على تجنيد وتطويع السكان وعلى الدعاية النفسية والإشهار أكثر من اعتمادها على المعارك المسلحة وذلك ما يتيح لها إحراز انتصارات سياسية في الأماكن التي يتعذر فيها تحقيق الفوز الانتخابي أو الحسم العسكري.

كل هذا يستدعي توفير عدد من الشروط من بينها:

- توفر الميدان الملائم.

- تواجد سكان ذوي خصوصيات ذاتية ممن تراكمت لديهم أسباب عديدة للتذمر والسخط. وما أكثر الأسباب الداعية إلى التذمر عبر العالم بما في ذلك الدول الديمقراطية فكل ما في الأمر أنه يجب تهويل تلك الأسباب وتضخيمها.

- تواجد نواة ثورية ذات عزيمة لا تلين وفي إمكانها الاعتماد على الدعم والمساندة الخارجية.

- تواجد مجموعات ضاغطة مؤيدة لحركة التمرد تتولى مهمة الترويج لها إعلاميا وتقديمها للعالم على أنها حركات ديمقراطية وتقدمية ذات أبعاد إنسانية ومتمتعة بالدعم الجماهيري؛ وهذا بغرض تثبيط عزيمة الرأي العام وحرمان حكومة الخصم من أي دعم ومساندة حتى ينتهي بها الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع لصالح الأقلية الإرهابية.

تندرج هذه الحركات التمردية، من الناحية النظرية، في سياق إيديولوجي وطني أو سياسي أو ديني أو تستغل هذه العوامل مجتمعة؛ غير أن هدفها النهائي، في الحقيقة، هو الاستيلاء على الحكم مهما تم تبرير ذلك بأنه ليس غاية في حد ذاته بقدر ما هو السبيل الأنجع لخدمة القضية الوطنية. إن الاعتبارات الإيديولوجية التي يتم تقديمها كهدف وغاية إنما هي في الواقع مجرد ذريعة للوصول إلى السلطة وهي تبريرٌ لجميع أساليب التخلص من الخصوم بتهمة "الخيانة" حين يتعذر استدراجهم للالتحاق بالصفوف سواء عن قناعة ذاتية أو بالتهديد.

غالبا ما تعيب الحركة التمردية على الحكومات ابتعادَها عن انتهاج سياسة ليبرالية غير أن تلك الحركات نفسها لا تسمح بأدنى حرية للتفكير في المناطق الواقعة تحت سيطرتها.

كما أنها تستغل جميع الضمانات التي تقدمها الحكومة في مجال القانون والعدالة ولكنها تلجأ، في الوقت نفسه، إلى المحاكمات الصورية لتسليط العقوبة على الخصوم بتهمة ارتكاب جنحة الرأي المخالف. إنها تطالب بحق التعبير عن

رأيها ولكنها تحرم خصومها من الحرية نفسها. لا غرو أن في هذا كثيرا من الاستخفاف والصلف.

تتطور الحركة التمردية عبر المراحل التالية:

- إقامة سلطة سرية، موازية، تتولى تسيير أمور السكان وتشكل مجموعات مسلحة. يساند كلٌّ من التنظيم السري والمجموعات المسلحة بعضهما البعض. تشرف المجموعة المسلحة على تنصيب عدد من المسئولين السياسيين وتحميهم من ردود الأفعال المناوئة وتتولى القضاء على المعارضين؛ في حين يتولى المسئولون السياسيون مهمة جمع الضرائب وتموين المجموعات المسلحة والقيام بالعمل الدعائي وهم الذين يقررون التصفيات الجسدية ويسهرون على تزويد المجموعات المسلحة بالمجندين الجدد إما بواسطة الإقناع أو الإكراه.

- تهيئة المعاقل لاتخاذها قواعد تنطلق منها العمليات ضد المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة الشرعية.

إنه لمن الصعوبة بمكان مجابهة هذا النموذج التنظيمي؛ ولا جدوى من القضاء على المجموعات المسلحة طالما استمرت شبكات الدعم السرية في تشكيل مجموعات جديدة كما أن تدمير الشبكات السرية ليس من ورائه أيُ طائل طالما استمرت المجمّوعات المسلحة في تعيين مسئولين سياسيين جدد.

إذا ما تخلت السلطة القائمة عن إحدى المناطق التي سبق أن فازت فيها بأغلبية أصوات السكان في انتخابات حرة؛ فإن ذلك يُعد بمثابة جُبن وتنكُّر للوعود الديمقراطية؛ خصوصا وأن الديمقراطية الحق قليلة الانتشار عبر العالم وإذا ما بادرت الحكومة إلى تضييق الخناق على السكان بدعوى حمايتهم من خطر المتمردين فما ذلك أيضا من الديمقراطية في شيء.

إذا ما عمدت الدول إلى انتهاج أساليب خصومها، مهما كانت فعاليتها، فقدت الديمقراطية رونقها وجاذبيتها في نفوس السكان. وبما أن الحكومة لا تستطيع منافسة الإرهابيين بالإرهاب فلا مناص لها من انتهاج أساليب مغايرة لأساليبهم.

أما نقطة الضعف التي تعانيها الحركات التمردية فتتجلى في الضغوط الشديدة التي تمارسها على السكان بغرض ترهيبهم. ومن عادة السكان أنهم يميلون إلى موالاة الطرف الذي يخشونه أكثر من غيره ولكن ربما تراكمت لديهم مشاعر الحنق والغيظ فتدفعهم إلى طريق الانتفاضة. أما إذا ما لجأت السلطة الشرعية إلى تسليح مناصريها وإذا ما حصل هؤلاء على تأييد السكان فإنهم يتمكنون من القضاء على المتمردين حتمًا؛ مع العلم بأن القضاء المبرم على هؤلاء لن يتحقق بدون مساعدة من طرف السكان.

تلك هي التقنية التي طبقها غالييني ضد تجار العبيد والقراصنة في خليج طونكين. غير أن هذه التقنية لن يتيسر لها النجاح ما لم تحصل لدى السكان قناعةٌ راسخة بأن الحكومة لن تتخلى عنهم فتتركهم عرضة للعمليات الانتقامية. يفترض هذا أن تكون الحكومة صادقة العزم وأنها تملك ما يكفي من الردود لتفنيد الحجج والتِّعلات التي تستغلها الدعاية المضادة وبالتالي تكون قادرة على إعلام السكان وإقناعهم بحقيقة الأوضاع السائدة لكيلا تثبط عزيمتهم.

لا ينبغي، في هذه الحالة، التعويل على محاربة المتمردين بالوسائل العسكرية وحدها؛ بل ينبغي أن يُحاربوا بأساليب وإجراءات شاملة تطال الميادين الإدارية والسياسّية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية والتعليمية والإنسانية والنفسية.

ولا ينبغي الاقتصار، في تدريب وتكوين التقنيين المتخصصين في الحرب المضادة، على الجانب العسكري المحض؛ بل ينبغي أن يتم تجنيدهم في صفوف العاملين والمعلمين والأطباء والعاملات في الحقل الاجتماعي والأطباء النفسيين. وينبغي أن يكون هؤلاء جميعا على علم تام بأحوال السكان وأن يعيشوا بين ظهرانيهم ويقاسموهم ظروف معيشتهم اليومية وأن يكونوا متضامنين معهم وليس ضدهم. ينبغي توفير أنجع الحلول لإزالة أسباب الاستياء والتذمر وينبغي على السكان أيضا أن يتحملوا مسؤوليتهم فيختاروا بين الوقوف في صف التمرد وبين موالاة السلطة الشرعية.

من وجهة النظر هذه؛ تُعتبر منطقة النمامشة مثالا ثريا بالعبر والدروس لعدد من الأسباب:

– بالرغم من أن جبال النمامشة منطقة جميلة إلا أنها غير ملائمة لحرب العصابات وهي شبيهة جدا ببعض المناطق الجبلية الواقعة في إسبانيا وإيطاليا والبلقان واليونان وفرنسا (إقليمي Causses وCévennes) الخ...

– انطلقت حرب الجزائر من منطقة النمامشة، في أول نوفمبر 1954، وشهدت بعضا من أعنف المعارك خلال تلك الحرب.

– إن سرد وقائع تلك المعارك تُذكِّرنا ببعض أفلام المغامرات وما فيها من ديكور طبيعي أشبه ما يكون بمناطق كولورادو وأريزونا ونيو مكسيكو.

– في هذه الجبال طبَّق القائد الوطني، لغرور عباس، أحدث التقنيات المعروفة في حرب العصابات ولقد برهن على امتلاكه موهبة عسكرية فذَّة بالرغم من أنه هُزم في آخر المطاف؛ وذلك لأن أساليب الرد والمجابهة كانت متوفرة ولئن لم يكن التحكم فيها أمرا هيِّنا.

– توالت مجريات الوقائع في هذه المنطقة على منوال شبيه بما جرى، بعد ذلك، في غيرها من المناطق الجزائرية مما يسمح باستخلاص بعض الملاحظات العامة التي تتكرر في الوضعيات المتشابهة وهذا ما جعل هذه المنطقة مثالا بليغ الدلالة عن مجريات حرب الجزائر.

– إن دراسة تلك الوقائع مساهمة ثرية في التعريف بالعلاقات العسكرية بين الجزائر وفرنسا وخصوصا ما تعلق منها بالقضايا التي طرحتها حرب العصابات والحرب المضادة. من بين ثمرات تلك الدراسة أنها تكشف كثيرا من المعطيات التي ما تزال تحتفظ بأهميتها حتى في ظل الأوضاع الراهنة. إن دراسة التاريخ، بالمفهوم العام، تعني توجيه الأنظار نحو المستقبل بالاعتماد على أحداث الماضي وذلك بغرض استخلاص العبرة واتخاذ الموقف الملائم حين تطرأ أوضاع مشابهة.

في الإمكان إنجاز مثل هذه الدراسة مباشرة بعد الأحداث أو إرجاؤها لفترة من الزمن حتى تهدأ العواطف والانفعالات.

كم وددتُ ألا أُجازف بذكر أسماء بعض المسلمين (الجزائريين) لكي لا يكونوا عرضة للشبهات؛ ولكن مثل هذه المخاطرة لم تعد قائمة، الآن، وبصفة أخص بعد أن فقد خصومُنا بالأمس مصداقيتهم اليوم.

لقد مكنتهم تلك التقنيات من بلوغ غايتهم فأرغموا الحكومة الفرنسية، بدون انتخابات حرة حقيقية، على التنازل عن الجزائر وعن الصحراء البربرية التي لم تكن في يوم من الأيام جزائرية. وها هي تلك التقنيات نفسها تُستعمل ضدهم اليوم من طرف الإسلامويين.

لم تعد فرنسا موجودة بالجزائر؛ غير أن أعدادًا متزايدة من الجزائريين ما فتئت تسعى للاستقرار في فرنسا وهذا ما يدعونا، عبر الصفحات التالية، إلى طرح عدد من التساؤلات حول القضايا المستجدة مع الحرص على توخي الموضوعية بغرض تصحيح كثير من الأفكار والأحكام المسبقة.

تجمّعت لديَّ معرفةٌ تامة بجبال النمامشة؛ فلقد عملتُ هناك في صفوف إحدى كتائب المرتزقة واشتغلتُ فيها كضابط استخبارات ومدرب كومندوس وقائد سرية. كما أنني ترأستُ فرقة من الحركى البربر وساهمتُ في تسيير الشؤون الإدارية والصحية والتعليمية بإحدى القبائل التي أكن لها كثيرا من التقدير وتعلّمتُ منها أشياء كثيرة.

لقد وجدنا أنفسنا، كضباط، في مجابهة وضعية لم نتمرن عليها في المدارس العسكرية والحال أن هذا النوع من التدريب ضروري جدا لتلافي التعلم عن طريق المحاولة والخطأ وما ينجر عنه من قرارات ارتجالية.

لقد أنجزتُ هذه الدراسة بالاعتماد على ذكرياتي الشخصية وعلى بعض الملاحظات التي دونتُها وبعض الشهادات والمعلومات التي كانت بحوزتنا آنذاك وبعض المقالات التي نُشرت والتحقيقات الصحفية التي أُجريت آنئذ وبعض

المنشورات الصادرة عن فرق المرتزقة وعلى الكتاب الذهبي للّفيف الأجنبي وبعض المقالات والكتب الصادرة عن حرب الجزائر. كما أنني رجعت إلى قاموس لاروس فيما يتعلق ببعض التواريخ والرسم الإملائي لبعض الأسماء.

اعتمدتُ، في تقديمي المنطقة، على كتابات كل من بوليب (Polybe) وتيت ليف (Tite Live) وسالوست (Salluste) وغيرهم.

بالرغم من أن جبال النمامشة منطقة متميزة عما جاورها إلا أنها مرتبطة بجبال الأوراس وما يليها من الصحراء والقطر التونسي. وبالتالي فالأحداث والوقائع التي جرت في جبال النمامشة ليست منفصلة عن سواها بل تندرج كلها في الإطار الأوسع الذي أشرتُ إليه بغرض فهم أبعاد هذا الموضوع.

ولئن أغفلتُ ذكر أسماء بعض الأشخاص الذين شاركوا في الأحداث فذلك حرصٌ مني على عدم إفشاء الأسرار؛ ولكنني أوردتُ أسماء الأشخاص الرئيسيين، ومنهم بعض الجنرالات والكولونيلات الذين دخلوا التاريخ من الباب الواسع، ووردت أسماؤهم في العديد من المجلات والكتب.

كما تنبغي الإشارة أيضا إلى أن مختلف الخرائط المتوفرة عن جبال النمامشة تحتوي بعض المعلومات المتباينة وخصوصا منها ما تعلق بعلو بعض الجبال التي اندلعت فيها. وفي حالة وجود اختلافات هامة فضّلتُ الاعتماد على خريطة Taride.

كتب الجنرال بيجار (Bigeard) عن جبال النمامشة، حيث شارك في المعارك، واصفا إياها في مذكراته بأنها معقلٌ من معاقل المتمردين وأنها من أكثر المناطق ترويعا وترهيبا في القطاع القسنطيني بسبب تضاريسها المرعبة والشبيهة بسطح القمر وفلاتها القاحلة التي تقطعها وهادٌ وأغوارٌ عميقة وما يتوفر فيها من مغارات وكهوف عديدة.

أما الجنرال فانوكسيم (Vanuxem)، الذي تولى قيادة هذه المنطقة خلال حرب الجزائر، فيقول حسب ما أورده الجنرال بيجار في كتابه المذكور بأن جبال النمامشة بمثابة أبواب الجحيم.

وذكر المقدم كلوسترمان (Clostermann) في كتاب له بعنوان "Appui feu sur l'oued Hallail" أن بطل الكتاب يعرف جيدا منطقة كولورادو والغابة العذراء البرازيلية وإقليم زامبيز وصحراء كلهاري وجبل كلمنجارو.. ولكنه يظل مشدوها مبهور الأنفاس من فرط روعة وبهاء شعاب واد هلايل: لا توجد في أي مكان آخر مثلُ تلك المناظر الطبيعية التي لوَّحت الشمس أديمها ورسمت الرياح تجاعيد على وجهها ونحتت الأمطار الطوفانية سطحها. ويقول إنه لم يشاهد في الدنيا مكانا أشبه بذلك الجحيم.

كما ورد ذكرُ المنطقة في مذكرات الكولونيل شاتو جوبير (Chateau- Jobert)، الذي حارب فيها على رأس الكتيبة الثانية من المظليين، فوصفها بأنها بلد قاحلٌ فيه هضابٌ مجدبة؛ وقال إن الداخل إليه لا يخرج منه سالما إذا لم يحتط لأمره كما يجب؛ ونعت المؤلف هذه المنطقة بأنها قلعة حصينة للشاوية شديدي البأس والمولعين بالمنازلة والصدام؛ إنهم عدو لدود متشبث بالأرض يستدرج خصمه ليوقعه في الشراك؛ وإذا ما أُحيط بهم فإنهم يستمرون في القتال حتى آخر رمق.

الفصل الأول

المعطيات الجغرافية والتاريخية والمؤسساتية

1. الإطار الجغرافي

جبال النمامشة عبارة عن منطقة مربعة الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها حوالي 100 كلم؛ تقع جنوبي قسنطينة وتنحصر بين القطر التونسي وتخوم الصحراء وجبال الأوراس. تصل أعلى قممها إلى ارتفاع 1.800م

في جزئها الشمالي هضبةٌ عُليا (1.000م) تنتشر فيها قمم جبلية علوها بين 1.400م و1.700م وأغلب مساحتها مغطاة بنباتات الحلفاء تربتها صالحة لزراعة القمح وللرعي.

خنشلة هي الحاضرة الرئيسية في هذا الجزء وهي مدينة رومانية عتيقة كانت تسمى قديما ماسكولا (Mascula) تقع في الركن الشمالي غير بعيد عن جبال الأوراس.

تنطلق من هذه المدينة طريق صوب الشمال باتجاه عين البيضاء الواقعة عند مفترق طرق متفرعة نحو قسنطينة وقالمة وسوق أهراس. تبعُد مدينة خنشلة بحوالي 110 كلم جنوب شرقي قسنطينة.

وانطلاقا من خنشلة تتجه طرق أخرى نحو الغرب محاذية التخوم الشمالية لجبال الأوراس باتجاه تيمقاد ولمبيز وباتنة، وهذه الأخيرة هي المدينة الرئيسية في منطقتي النمامشة والأوراس وتبعُد بأقل من 90 كلم عن خنشلة.

من خنشلة تمتد الطريق في اتجاه الشمال الشرقي نحو مدينة مسكيانة على بُعد 50 كلم.

كما تنطلق طريق غير معبدة نحو شرق خنشلة مرورا بمدينة زوي ووصولا إلى شريعة التي تبعد بحوالي 50 كلم عن خنشلة ومنها إلى تبسة القريبة من الحدود التونسية.

وانطلاقا من خنشلة باتجاه الجنوب توجد طريق غير معبدة نحو الممر الجبلي المسمى ببابار الواقع على بعد حوالي 30 كلم. سرعان ما تتغير المناظر الطبيعية في جنوب بابار والحاجز الجبلي المتكون من حبل تادلسيت (على ارتفاع 1.600م) وجبل تازبنت (1.500م) فيصبح شبيها بمنطقة لارزاك (Larzac) بفرنسا وفي جنوبه تكثر الانكسارات والشعاب ثم تصبح المنطقة شبه صحراوية كثيرة الأودية والمنحدرات الصخرية والأحواض والمغارات.

أما مجاري الوديان التي تتغذى بأمطار الخريف فإنها غالبا ما تجف صيفا؛ حيث تتسرب مياهها نحو الهضاب شبه الصحراوية الواقعة جنوبي جبال النمامشة؛ في حين تصب الوديان الأكثر غزارة مياهها في الشطوط، وهي نوع من البحيرات الشاسعة متفاوتة الجفاف تغطي الرمالُ بعضها. تمتد هذه الشطوط انطلاقا من خليج قابس، في القطر التونسي، إلى غاية الطريق الرابطة بين واحة بسكرة، على المنحدر الجنوبي الغربي لجبال الأوراس، وإلى مدينة تقرت الواقعة في الصحراء.

الأودية التي تسيل فيها هذه الوديان مفصولة عن بعضها، في منطقة النمامشة، بواسطة مرتفعات صخرية شديدة الانحدار.

في الركن الغربي من المنطقة يوجد مجرى واد الأبيض المتجه من الشمال إلى الجنوب ويُعتبر فاصلا بين منطقتي النمامشة والأوراس. عند التقاء هذا الواد مع واد ملاقو، المنحدر من الأوراس، يتحد الواديان فيكونان واديا واحدا يسمى واد العرب الذي يفصل أيضا بين الأوراس والنمامشة.

غالبا ما يطلق على الكتلتين الجبليتين تسمية مركبة هي: أوراس - النمامشة ولكنهما لا تشتركان في نفس الخصائص. ذلك أن منطقة النمامشة خالية من النبات تقريبا في حين أن الأوراس أكثر ارتفاعا وأوفر حظا من حيث الغطاء النباتي والغابات. تبدو المنطقة في شكل متوازي الأضلاع طول قواعده حوالي 100 كلم وارتفاعه أقل من 90 كلم.

تُشرف منحدراتها الشمالية على الطريق الرابط بين خنشلة وباتنة أما منحدراتها الجنوبية فتطل على النجود شبه الصحراوية في نواحي بسكرة وواد العرب.

أعلى قمة في جبال الأوراس هي قمة شيليا التي يبلغ علوها 2.300م؛ مناظر غاباتها المورقة شبيهة جدا بغابات المرتفعات الوسطى في جبال الألب.

تنحدر من جبال الأوراس عدة وديان متجهة صوب واد العرب حيث توجد مواقع متميِّزة نذكر منها: خيران، شبلة، الولجة وواحتها.

في الأوراس أيضا توجد قمم جبلية مُشجرة، غرب واد العرب، يتراوح ارتفاعها بين 1.300م و1.700م؛ تنمو فيها غابات ذات أشجار صغيرة، تسمى بلاد بني ملول، وتمتد على طول المنحدرات الأوراسية المحاذية لواد العرب.

عندما يصل واد العرب إلى مخرج الممر الجبلي المحصور بين الأوراس والنمامشة يواصل طريقه عبر النجود شبه الصحراوية التي يتجاوز ارتفاعها 100 أو150م. وهناك توجد واحة خنقة سيدي ناجي ذات المنظر البهيج.

يمر السائر بمحاذاة واد العرب عبر قرى ليانة والقصر وبادس قبل الوصول إلى زريبة الواد التي تبعد بحوالي 20 كلم عن خنقة سيدي ناجي.

تقع زريبة الواد على ارتفاع 44م وعلى بُعد أكثر من 30 كلم شمال شط ملغيغ الواسع والذي يقع تحت مستوى سطح البحر.

تربط طريقٌ غير معبدة بين مدينتي بسكرة ونقرين الواقعة على التخوم الصحراوية في جنوب الأوراس – النمامشة مرورا بزريبة الواد؛ وتوجد مدينة بسكرة على بعد 90 كلم غربا فيما وراء مدينتي عين الناقة وسيدي عقبة.

أما نحو الشرق فتمر هذه الطريق بمدينة زريبة أحمد متجهة إلى فركان (على بعد أكثر من 80 كلم من زريبة الواد) ونحو نقرين (على بعد حوالي 15 كلم عن فركان) ومن نقرين تنطلق طريقٌ غير معبدة أخرى باتجاه شمالي شرقي نحو بئر العاتر ثم طريق أخرى نحو الحدود التونسية على بعد حوالي 30 كلم شرقي نقرين.

أما الضفة الشرقية لمجرى واد العرب فيشرف عليها المنحدر الشمالي للنمامشة حيث يبلغ ارتفاع عيش مرزو 1834م وهي أعلى قمة هناك. وعلى المنحدرات الجنوبية لجبل ششار تقع قرية جلاّل حيث يعيش قسم من سكانها في الكهوف الواقعة على منحدر كتلة صخرية.

وعلى بعد بضعة كيلومترات جنوبي شرق جلاّل يوجد منخفض بويقظان المنبسط وهو كثير الأودية والكتل الصخرية والوهاد والكهوف والرؤوس الجبلية.

تمر الطريق الرابطة بين جلاّل وبابار عبر منعرج تافاسور الكبير المشرف على شعبة ذات منحدرات قاحلة.

في منتصف الطريق بين جلاّل وبابار يوجد موقع مثير للدهشة يدعى تابِردقة بجوار عدد من الجبال يتراوح ارتفاعها بين 1.500م و1.700م. تنحدر الطريق نحو هذا الموقع انطلاقا من الهضبة وتتبع مسارا كثير المنعرجات إلى أن تصل إلى القاع ثم تخرج من الخانق الجبلي متجهة نحو واد بيدغر.

يسيل هذا الواد باتجاه شمالي جنوبي بموازاة واد العرب على بعد حوالي 30 كلم من هذا الأخير. يمتاز مجرى هذا الواد ببعض أجزائه المخضرَّة بسبب انحصارها بين مرتفعات جبلية يبلغ علوها قرابة 1.200م.

تحدها أجرُفٌ شاهقة وخصوصا قرب العامرة وما يليها من قرى مثل زاوية والوندورة.

ينحدر واد بيدغر صوب النجود شبه الصحراوية ويمر بين جبل جرمون (ارتفاعه 722م) وجبل هلاب (591م) ثم يصب في واحة جميلة تدعى سيار.

يتميز الجزء الجبلي الواقع شرقي واد بيدغر بوفرة مجاري الوديان التي تسيل باتجاه شمالي جنوبي نذكر من بينها واد غرغار ورافده واد غريان.

وعلى بعد حوالي 20 كلم شرقي واد بيدغر (يحمل في بعض الخرائط اسم واد بني بربر) يوجد مجرى واد آخر باتجاه شمالي جنوبي بموازاة الأودية الأخرى يُسمى واد قنطيس؛ وهناك يقع برج قنطيس على مقربة من أحد أجزاء الواد حيث تسيل مياه غزيرة بين صخور ضخمة منتشرة في الوادي. وعلى بعد حوالي 12 كلم جنوبي قنطيس تنمو بعض النباتات الهزيلة. وهناك يتلقى واد قنطيس مياه واد آخر فيتغير اسمه إلى واد دخان. وبعد خروجه من منطقة النمامشة يتلقى عددا من الروافد ذات المنسوب الضحل فيُسمى واد ميتا وبعد أن يسيل عبر النجد شبه الصحراوي يصب مياهه في شط تويجين الذي يتوسط شط ملغيغ والشط الكبير.

في شرق واد قنطيس تمتد كتلة جبلية جرداء من أهم قممها جبل زورا (1.421م) ورأس الداس (1.450م). يبلغ عرض هذه الكتلة الجبلية حوالي 20 كلم ويحدها شرقا واد آخر يسيل باتجاه شمالي جنوبي يقع جنوبي شريعة ويسمى واد هلايل.[1] يتوفر الغطاء النباتي في منطقة تدعى المزرعة وتوجد المنحدرات والكهوف في منطقة الجرف.

بعد أن يترك على يساره جبل الأبيض (1010م) ينحدر واد الهلايل صوب السفوح الجنوبية لمنطقة النمامشة؛ وحين يتلقى مياه عدد من الروافد يعبر النجد شبه الصحراوي فيتغير اسمه إلى واد جرش ثم يصب في أحد الشطوط الصغيرة.

في شرق واد الهلايل تمتد منطقة جبلية أخرى يبلغ عرضها حوالي 70 كلم إلى غاية الحدود التونسية: إنه الامتداد الشرقي لجبال النمامشة والامتداد الجنوبي لجبال تبسة. يتوفر في بعض مرتفعاته اخضرارٌ نسبي مثل ما هو الحال في جبل بوجلال الذي يفوق علوه 1.460م وفي جبل قُوَّة (1.484م) وجبل العنق (1.358م).

---

1. هكذا ورد اسمه في Dictionnaire Larousse ضمن خريطة القطاع القسنطيني؛ أما خريطة Taride وغيرها فتذكره باسم واد الهلايل.

توجد في المنطقة عدة مواقع تحمل اسم آبار قديمة مثل بئر رقيبة، بئر عطوش، بئر العاثر الخ... تنطلق من تبسة طريق متجهة نحو الجنوب بموازاة الحدود التونسية مرورا من الماء لبيض وبئر العاثر ثم تنعطف طريق أخرى غير معبدة نحو نقرين حيث تلتقي مع الطريق العابرة للنجود شبه الصحراوية متجهة إلى بسكرة بموازاة الحد الجنوبي لجبال النمامشة.

يسود في هذا الجزء مناخ قاس يتميز بفصول الصيف الحارة نهارا والباردة ليلا. أما فصول الخريف فغالبا ما تكون مطيرة فتتسبب في فيضان الوديان عن مجاريها بعد أن كانت جافة طوال فصل الصيف.

تتميَّز فصول الشتاء بمناخ شديد البرودة مصحوبة بسقوط الثلج في بعض الأحيان؛ وتكون الفروق الحرارية كبيرة المدى بحيث قد تُسجل في فصل الصيف 45° في الظل نهارا ثم تنخفض إلى حدود 0° ليلا. وتنخفض درجة الحرارة في فصل الشتاء إلى ما دون الصفر ولقد حدث أن سُجلت درجت قصوى بلغت 15° تحت الصفر.

من المُرجح أن منطقة النمامشة كانت في الماضي أكثر اخضرارا مما هي عليه في عصرنا وربما كانت تكسوها الغابات مثلما هو الحال في جبال الأوراس المجاورة.

هناك بعض الفرضيات التي تُرجع سبب هذه الوضعية المناخية إلى قطعان المعز التي ربما تكون ساهمت في ظاهرة التصحر في حين أن سكان الأوراس أكثر احتياطا في هذا الشأن من سكان النمامشة.

كما يوجد عددٌ من الملاحظات والاستنتاجات التي تدفع إلى الاعتقاد بأن المناطق الصحراوية كانت في الماضي أكثر رطوبة مما هي عليه حاليا وبالتالي كانت تتوفر هناك ثروة نباتية وحيوانية ذات خصوصيات أقل تصحرا.

ومن جهة أخرى تضاءلت الثروة الحيوانية كثيرا خلال القرون الأخيرة وانقرضت بعض الحيوانات مثل الأسود والفهود على سبيل المثال.

في الوقت الراهن توجد في المنطقة حيوانات مثل الثعالب والطيور الكاسرة والجوارح وبعض القوارض.

2. سكان المنطقة وتاريخهم

سكن البربر، خلال العصور القديمة، شمال إفريقيا والصحراء وجزءًا من ليبيا. وكانت للبربر، كغيرهم من الشعوب القاطنة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، مبادلاتٌ تجارية مع الفينيقيين القادمين من لبنان والذين اشتهروا في العالم المتوسطي كبحارة وتجار مهرة؛ وكانت الأبجدية التي اخترعها الفينيقيون وسيلة اتصال وتبادل عملية وأكثر نجعا من الكتابة الهيروغليفية المصرية. ساهمت الأبجدية الفينيقية بقوة في تقدم الحضارة الغربية.

أسس الفينيقيون محطات تجارية على طول السواحل المتوسطية وأهمُّها على الإطلاق مدينة قرطاج الواقعة بالقرب من مدينة تونس الحالية. كانت قرطاج، منذ قرون عديدة قبل ميلاد المسيح، أقوى وأعظم حاضرة في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي.

احتلت قرطاج جزءًا من القطر التونسي والسواحل الجزائرية والمغربية والإسبانية وكذا القسم الغربي من جزيرة صقلية وعددا من الجزر الصغيرة الأخرى.

كانت جبال النمامشة مجاورة لهذه الإمبراطورية الشاسعة الأطراف. وكان البربر، كلما سنحت لهم الفرصة، يشنون غارات السلب والنهب على تخوم الإمبراطورية القرطاجية. ولقد تسبب ذلك في عدد من الهجمات العسكرية الرادعة. اشتهر البربر كفرسان ممتازين ومربي خيول كانوا يبيعونها إلى القرطاجيين ويقتنون منهم عددا من المنتجات التي يحتاجونها. ولقد تطوَّر البربر بفضل تلك الاتصالات والمبادلات وتبنوا بعضا من مظاهر الحضارة القرطاجية.

كانت الإمبراطورية القرطاجية تملك أحسن أسطول في البحر الأبيض المتوسط ولكن جيوشها البرية لم ترق إلى نفس المستوى من القوة. وذلك ما دفعها

إلى تجنيد المرتزقة وخصوصا الإغريق والإيبريين والبربر. وكان البربر يشكلون سلاح الفرسان القرطاجيين مما جعلها قوة عتيدة في المنطقة.

انتشرت اللغة البونيقية، وهي لغة القرطاجيين، بين البربر وخصوصا في نواحي هيبون (عنابة) وفي أرجاء الشمال القسنطيني.

أسس البربر في شمال إفريقيا ثلاثة ممالك هي: موريتانيا (المغرب وجزء من القطاع الوهراني) ونوميديا الغربية (القطاع الأوسط وجزء من القطاع الوهراني) ونوميديا الشرقية (القطاع القسنطيني) وكانت تضم منطقة الأوراس والنمامشة.

تعتبر مدينة سيرتا (قسنطينة) من أشهر حواضر نوميديا وقد شيدت فوق كتلة صخرية حصينة تكاد تكون مستعصية على المهاجمين.

تبنى البربر بعض المعتقدات الفينيقية مثل عبادة الإله بعل.

كانت قرطاج في اتصال دائم مع الإغريق المستقرين في جنوب إيطاليا وفي شرق صقلية وفي ساحل بروفانس وجزء من الساحل الإسباني.

اندلعت حروب طويلة بين القرطاجيين والإغريق بغرض الاستيلاء على صقلية وكان ذلك خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. ولقد أبلى الفرسان البربر، ومن ضمنهم فرسان النمامشة، بلاء حسنا في تلك المعارك واشتهروا بصفة خاصة بوصولهم، مرات عديدة، إلى أسوار سيراكوز (Syracuse) الحاضرة الإغريقية العتيدة.

دُحر القرطاجيون فاضطروا إلى التمركز في غرب صقلية.

في تلك الأثناء كانت قوة جديدة في أوج التوسع. إنها الإمبراطورية الرومانية. ولقد أخضعت الجزء الأوسط من إيطاليا ثم استولت على الحواضر الإغريقية في جنوب إيطاليا واجتاحت صقلية خلال القرن الثالث قبل الميلاد لنجدة المدن الإغريقية هناك حيث اصطدمت بالقوة القرطاجية هناك.

كان للرومان جيشٌ بريٌ شديد البأس وكانت فِرق المشاة لديهم تملك أسلحة ثقيلة وتُحارِب في صفوف متراصة وتحسن فنون التخندق للدفاع عن نفسها.

أما قوات الخيالة البربرية فكانت سريعة الحركة وكانت تقوم باستطلاع تحركات العدو في العمق وتشتبك معه بكثير من البسالة فتباغته أحيانا بالهجوم ثم تلاحق فلوله المتراجعة. حين لا تكون معطيات المعركة في صالحهم فإنهم يفضلون الانسحاب بسرعة فائقة ثم مباغتة العدو من حيث لا يدري ولم يتوقع. بهذه التقنية كانوا يزرعون جوا من انعدام الأمن في أراضي العدو ويلجئون إلى مضايقة الخصم بكثرة التحرشات وبالانقضاض على الفرق المعزولة والجنود المتخلفين عن الركب.

كثيرا ما كان سلاح الفرسان البربر يضع قوات المشاة الرومانية في أوضاع حرجة للغاية. ففي بداية الأمر لم تكن روما قوة بحرية حين كانت قرطاج سيدة البحر. وفجأة بادرت روما إلى تأسيس قوة بحرية على جناح السرعة تبيَّن فيما بعد أنها قوة ممتازة. ولئن لم يكن الجنود البحارة الرومان في مستوى البحارة القرطاجيين إلا أنهم كانوا متفوقين عليهم في فنون المبارزة والمصارعة. وكانوا يستعملون نوعا من الكلاليب المعقوفة التي يغرزونها في جسم السفن المعادية ليتمكنوا من جرِّها نحو سفنهم فيقتحمونها مفضلين المنازلة الفردية حيث كانوا يبزون أقرانهم القرطاجيين. ذلك ما مكنهم من الانتصار في عدد من المعارك البحرية.

طلبت قرطاج السلم مقابل انسحابها من غرب صقلية.

تولى حنبعل، وهو شاب طموح برتبة جنرال، قيادة الجيوش القرطاجية المُرابطة في إسبانيا؛ وحين استولى، في سنة 219، على مدينة ساغونت (Sagonte) اندلعت الحرب مجددا بين روما وقرطاج.

وعلى رأس عدة ألوف من المرتزقة، معظمهم من الأيبيريين والبربر، قرر حنبعل اجتياز جبال البرانس ثم جبال الألب وانضم إليه عدد من الغوليين فاجتاح الأراضي

الإيطالية حيث أحرز عدة انتصارات ولكنه تكبد خسائر ثقيلة. ثم تمركز في جنوب إيطاليا حيث كان يتوقع أن تأتيه نجدة قرطاجية ولكنه هُزِم من طرف الرومان.

انطلق جيش روماني آخر للسيطرة على المراكز التجارية القرطاجية في إسبانيا. ولقد تحالف قائدُ القوات الرومانية، سيبيون (Scipion)، مع ملك نوميديا الغربية، سيفاقص (Syphax)، ونزل على البر الإفريقي. تزوج الملك سيفاقص سوفونيزب (Sophonisbe)، ابنة أحد الجنرالات القرطاجيين، فانقلب ضد الرومان. أما ماسنيسا، ملك نوميديا الشرقية، فقد انفصل عن قرطاج وتحالف مع روما وانتصر على سيافقص وألحق نوميديا الغربية بممتلكاته في نوميديا الشرقية. حين أصبح ماسنيسا ملكا على أغلب الأراضي الجزائرية الحالية قرر مهاجمة قرطاج بالتحالف مع الرومان.

رجع حنبعل، عن طريق البحر، مع فلول جيشه محاولا الدفاع عن قرطاج فوقعت معركة مشهودة في زاما، الواقعة في وسط القطر التونسي، سنة 202 قبل الميلاد.

أصبح الفرسان البربر العاملون في صفوف جيش ماسنيسا وجها لوجه مع البربر من قدماء الفرسان في جيش حنبعل الذي بقوا موالين لهذا الأخير فانتصروا عليهم.

سحق الرومان جيش حنبعل وتم القضاء نهائيا على قوة قرطاج.

الممالك النوميدية

استمرت المملكة البربرية التي أسسها ماسنيسا، واشتهرت باسم نوميديا، متمتعة بالاستقلال ما يقرب من قرنين ونصف وبلغت شأوا بعيدا في مضمار الحضارة.

دمَّرت روما قرطاج سنة 146 ق م. واستولت على ممتلكاتها في تونس وألحقتها بالمقاطعات الرومانية في أفريقيا.

اهتم مِيسيبسا، ابن ماسنيسا، بالعاصمة النوميدية سيرتا وجعلها حاضرة فكرية مزدهرة وأرسل بعض الفرق البربرية لمساعدة الرومان على احتلال إسبانيا. غير

أن ميسبسا توفي سنة 118 ق م؛ وبادر حفيدُه يوغرطة إلى اغتيال أحد أبناء ميسيبسا فاستولى على الحكم ثم ألقى القبض على بعض فرق الجند الروماني في نواحي مدينة قالمة سنة 109 ق م؛ ولكن الرومان هزموه قرب هيبون (عنابة). إثر ذلك التجأ يوغرطة إلى مكان يقع شرقي بلاد النمامشة حيث احتمى بصهره بوخوس، ملك موريتانيا، الذي سلَّمه إلى الرومان فقضى نحبه في السجن.

توسعت رقعة مملكة موريتانيا (المغرب حاليا) نحو الشرق وتوسعت المقاطعة الرومانية في إفريقيا (القطر التونسي حاليا) نحو الغرب على حساب مملكة نوميديا التي تقلصت تقريبا إلى حدود القطاع القسنطيني (منطقة القبائل والأوراس النمامشة) غير أن هذه المملكة ازدهرت من جديد في عهد الملك هيمصال الثاني.

الواقع أن الجنرالين الرومانيين ماريوس (Marius) وسيلا (Sylla) كانا يتصارعان على الحكم في روما منذ سنة 88 ق م إلى أن انتصر سيلا على خصمه بعد جهد جهيد؛ ولقد وقف هيمصال الثاني إلى جانب الطرف المنتصر فاستغل الفرصة لتدعيم مملكته.

بيد أن الملك يوبا، ابن هيمصال الثاني، كان أقل حظا من أبيه؛ ذلك أنه عندما تنازع الجنرالان الرومانيان، بومبي (Pompée) وقيصر (César) على الحكم ابتداء من سنة 49 ق م قرر يوبا الوقوف إلى جانب بومبي الذي كان يحظى بمساندة القوات الرومانية المتواجدة في الأراضي التونسية غير أن قيصر هزم بومبي وقتله ثم هاجم القوات الرومانية هناك.

أما ملك موريتانيا، بوخوس الثاني، الموالي لقيصر فلقد تمكن من مهاجمة منطقة سطيف ولما خسر يوبا عاصمته سيرتا اصطدم بقيصر قرب ثابسوس (Thapsus) الواقعة على الساحل التونسي (46 ق م) ولكنه انهزم فانتحر بتناول السم. نُقل ابنُه يوبا الثاني إلى روما حيث نشأ على الثقافة اللاتينية. حينئذ وقعت نوميديا تحت قبضة الإدارة الرومانية التي استنزفت ثرواتها إلى أبعد الحدود.

بعد اغتيال قيصر، سنة 44 ق م؛ دخل ابنُه بالتبني، آوكتاف (Octave)، في صراع ضد أقرب مساعديه، مارك أنطوان (Marc Antoine)، على السلطة في روما فانتصر أوكتاف أوغست وانتحر غريمُه مارك أنطوان وانتحرت معه زوجتُه المصرية كليوباترا التي كانت تسانده. بعد وفاة بوخوس الثاني، ملك موريتانيا، بادر أوغست إلى إعادة بناء مملكة بربرية ضمت كلا من الجزائر والمغرب الحاليين ثم سلّمها إلى يوبا الثاني زوج كليوباترا سيليني (ابنة أنطوان وكليوباترا). أُدرجت الأوراس والنمامشة ضمن هذه المملكة. اتخذ يوبا الثاني وزوجته مدينة شرشال (Caesarea) عاصمة للمملكة وكانا متأثرين بالحضارة الإغريقية وكانت مدة حكمهما الطويلة نعمة على البربر.

انتشر الإسرائيليون في كافة البلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط بما فيها مرافئ شمال إفريقيا. وكانوا ذوي نشاط جم ومهارة فائقة فاشتغلوا بالتجارة وطوروها وجلبوا الازدهار إلى هذه المنطقة. توفي يوبا الثاني سنة 18م وخلفه على العرش ابنُه بطليموس (Ptolémée). اندلعت انتفاضةٌ في نواحي سيرتا بقيادة أحد قدماء الجنود يدعى تكفاريناس ولكن الرومان قتلوه ففشلت الانتفاضة.

الاستعمار الروماني

في سنة 40م اغتيل الملك بطليموس على يد الإمبراطور الروماني كاليغولا (Caligula) وأُلحقت المملكة البربرية بالممتلكات الرومانية بعد أن تم تقسيمها إلى ثلاثة أقسام هي: موريتانا الطنجية (المغرب الحالي) وموريتانيا القيصرية (مقاطعة الجزائر ووهران تقريبا) ونوميديا (القطاع القسنطيني) ثم أُنشئت موريتانيا السطيفية بعد فترة من الزمن.

عملت روما على تطوير مدن شمال إفريقيا وكان من أشهرها كل من تبسة (Théveste) المجاورة للقطر التونسي حاليا؛ وخنشلة (Mascula) في شمال غرب جبال النمامشة؛ وتيمقاد ولمبيز في شمالي الأوراس؛ وبسكرة (Vescera) في جنوب غرب الأوراس.

تمركز الفيلق الروماني، أوغستا 3، في مدينة لمبيز وكان تعداده قرابة 5.500 رجل؛ وتم تعزيزه بقوات إضافية من البربر. كما أن عددا كبيرا من الغوليين (les Gaulois) عملوا ضمن هذه القوات ثم استقر بعضهم في المنطقة بعد بلوغهم سن التقاعد واختلطوا بالسكان البربر.

كان واد بيدغر، الذي يقطع جبال النمامشة، ممرا للتغلغل نحو الصحراء؛ ولقد تم العثور هناك على معالم الطريق الرومانية. ونتيجة لهذا التغلغل انتشرت اللغة اللاتينية ولكنها لم تحل محل على اللغتين البربرية والبونيقية.

كما أن الآلهة الرومانية اختلطت واتحدت مع الآلهة الفينيقية التي سبق أن اعتنقها البربر وتأسست المدارس في المدن مما أدى إلى تبني قسم من السكان للثقافة اللاتينية. تقلَّد عددٌ من البربر مناصب في جهاز القضاء وأصبح بعضهم أطباء وأدباء وأعضاء في مجلس الشيوخ.

ازدهر الإنتاج الزراعي بفضل إقامة نظام متطور للسقي وكان من أشهر الغلال: الحبوب وأشجار الزيتون واللوز والتين والكروم وازدهرت تربية الحيوانات مثل الأبقار والخيول والأغنام والجمال وأصبحت مقاطعة إفريقيا من أكبر المناطق المصدرة للقمح.

لم يستسغ سكان الأوراس والنمامشة السيطرة الرومانية وراحوا يناوشون الفيلق الروماني المتمركز في لمبيز طوال خمسين سنة بدون انقطاع قبل أن يسلموا بالأمر الواقع.

الديانة المسيحية

دخلت الديانة المسيحية في قرطاج مع أواخر القرن الثاني بالرغم من تنكيل الرومان بمعتنقيها. ومن هناك انتشرت في مدن وأرياف شمال إفريقيا وتخلى عدد كبير من البربر عن ديانتهم السابقة واعتنقوا المسيحية؛ وكان من بينهم عدد كبير من الشهداء والشهيدات الذين سلطت عليهم السلطات الرومانية أقسى أنواع التعذيب والتنكيل أو ألقت بهم في ملاعب السيرك فريسة للحيوانات الضارية.

شُيِّد عدد كبير من الكنائس وخصوصا في القطاع الوهراني.

في مطلع القرن الثالث الميلادي نبغ عددٌ من الأساقفة النوميديين وتم تنظيم مُجمَّع مسيحي سري في مدينة لمبيز، سنة 250 م، كما شارك عدد من الأساقفة المور في المجمع الكنسي المنعقد بقرطاج سنة 256م.

في سنة 313م وضع الإمبراطور قسطنطين حدا لعمليات التنكيل ضد المسيحيين ومنذئذ أصبحت مدينة سيرتا تُعرف باسم قسنطينة إكراما لهذا الإمبراطور.

وفي بضع عشرات من السنين تحوَّل السواد الأعظم من سكان الإمبراطورية الرومانية إلى الديانة المسيحية؛ كما أن أغلب البربر غيروا معتقداتهم وتحولوا إلى هذا الدين.

رفض الدوناتيون، وهم مسيحيون أفارقة متطرفون، الانتماء إلى الكنيسة المسيحية التي كان أتباعُها قد ارتدوا عن المسيحية أيام تضييق الخناق عليهم من طرف الرومان؛ وهكذا انفصل الدوناتيون عن الكنيسة وهاجموا المسيحيين من أتباع المذهب الكاثوليكي: والتحق بصفوفهم خلقٌ كبير من الفلاحين الذين أنهكهم ظلم كبار مُلاك الأراضي وأرهقتهم الضرائب الرومانية. اندلع الشغب ووقعت بعض الاغتيالات وأُضرمت الحرائق وارتُكبت أعمال عنف. ترأس زعيمٌ بربري، اسمه فيرموس، تمرد سكان جبال القبائل ضد روما سنة 372م ولكنه هُزم. أما قبائل الأوراس والنمامشة فقد استغلت حالة الفوضى العارمة فعاودت النهب والسلب في النواحي المحاذية لمعاقلها الجبلية.

الاحتلال الوندالي

كانت الإمبراطورية الرومانية تعاني مشكلة قلة السكان مقارنة بمساحتها الشاسعة مما عرَّض حدودها الأوروبية إلى ضغوط كبيرة من طرف الشعوب الجرمانية التي كانت، آنئذ، همجية وكانت تتميز بنمو سكاني سريع جدا.

جُلب عدد كبير من الجرمان إلى المقاطعات الرومانية في بلاد الغول (la Gaule) وإيطاليا كعبيد أو كعمال في المزارع أو كمرتزقة في الجيش.

بيد أنه في مستهل القرن الخامس الميلادي تدفقت جماعات جرمانية مدججة بالسلاح على بلاد الغول وإيطاليا. لم يبادر المرتزقة الجرمان العاملون في صفوف الجيش الروماني إلى إيقاف نزوحهم؛ وسرعان ما اكتُسحت إسبانيا بدورها.

تمكنت الإمبراطورية الرومانية من الصمود والبقاء على قيد الحياة في شطرها الشرقي، وعاصمته بيزنطة (القسطنطينية ثم اسطنبول حاليا)، وفي اليونان وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر وعلى الساحل الليبي وأصبحت تعرف باسم الإمبراطورية البيزنطية. كانت الإغريقيةُ لغتَها الرسمية.

استقرت إحدى الشعوب الجرمانية في جنوب إسبانيا وكانوا من القبائل الوندالية ومن هذه التسمية اشتُق اسم وندلوسيا (الأندلس). وفي سنة 429م زحفت عشرات الآلاف من القبائل الوندالية على شمال إفريقيا وساروا بمحاذاة الساحل إلى أن بلغوا هيبون فحاصروها وصمدت في وجههم عدة شهور. توفي القديس أوغسطين، وهو أسقف هيبون، في أثناء ذلك الحصار؛ وهو بربري وُلد بمدينة سوق أهراس (Tagaste) وما يزال حتى اليوم من أبرز وجوه الكنيسة الكاثوليكية. استولى الوندال على هيبون ثم على قرطاج.

كان الوندال يدينون بالمسيحية مثل غيرهم من الجرمان ولكن كانوا من أتباع المذهب الأريوسي الذي يُنكر صفة الألوهية للمسيح فاضطهدوا البربر من أتباع المذهب الكاثوليكي ونكلوا بهم ومات منهم خلق كبير في الزنزانات وأُبعد أساقفتُهم إلى المنفى.

تمركز الوندال في نواحي قرطاج دون ما عداها من مناطق شمال إفريقيا فتركوها تسقط في براثن الحروب القبلية. عاد بربر الأوراس والنمامشة إلى شراستهم المودعة في طباعهم ككل مرة يرتخي فيها حبل السلطة المركزية فنهبوا مدن تيمقاد ولمبيز وتبسة. تراجع الإنتاج الزراعي بعد أن كان مزدهرا في العهد الروماني وانقرضت اللغتان اللاتينية والبونيقية وتفوقت اللغة البربرية شيئا فشيئا.

استمرت السيطرة الوندالية على المنطقة قرابة قرن. في سنة 533 أنزل الإمبراطور البيزنطي جوستينيان (Justinien) على الساحل التونسي جيشا يتألف

أساسا من الإغريق فعاود احتلال سواحل هذا البلد وجزءا من الساحل الجزائري. أما البربر النمامشة، الذين يكنون عداوة عميقة ضد الوندال، فالتحقوا بصفوف الإغريق في حين ذابت جحافل الوندال في صفوف الشعب البربري. عاود الإغريق الاستيلاء على بعض المدن الداخلية الهامة مثل تبسة وتيمقاد.

بعد أن تخلص بربر النمامشة من الوندال قرروا التخلص كذلك من البيزنطيين. تعززت صفوفهم بمدد من قبائل الأوراس ومنطقة القبائل فهاجموا الجيش البيزنطي قرب سفاقص شمال خليج قابس ولكنهم تلقوا هزيمة كبرى.

عاود البربر هجوما آخر ضد قرطاج ولكن البيزنطيين أوقفوهم على ضفاف نهر مجردة. ومهما يكن؛ فلئن تمكن البيزنطيون من البقاء على الساحل إلا أنهم لم يفلحوا في إخضاع بربر المناطق الداخلية وخصوصا سكان منطقة النمامشة.

تواصلت المعارك بصورة متقطعة بين البيزنطيين والبربر طيلة النصف الأول من القرن السابع الميلادي. وبعد ذلك وصل إلى المنطقة محتلون جدد قادمون من الشرق: إنهم العرب الذين تبيَّن أنهم أشد خطرا من المحتلين الذين سبقوهم إلى هذه الديار.

3- الاحتلال العربي ـ الإسلام

وُلد محمد، وهو المبشّر بالدين الإسلامي، في حدود سنة 570 م بمكة في بلاد العرب. كانت أغلب القبائل القاطنة في تلك الفيافي الشاسعة تعبد آلهة عديدة وكانوا قوما أصلافا ذوي طباع فظة. وكان بعض تلك القبائل يعتنق اليهودية وبعضها الآخر المسيحية. أصبح محمد يتيما منذ صباه. تزوج بخديجة وهي أرملة ثرية وقام بعدة أسفار إلى سوريا وهناك اتصل بالنساطرة المسيحيين.[2]

2 .النساطرة هم أتباع المذهب النسطوري وكانوا يؤمنون بالطبيعة البشرية للمسيح ويعتبرونه حاملا لكلمة الرّب. أما دعاة الطبيعة الواحدة فيعتقدون أن الطبيعة البشرية للمسيح قد تلاشت في طبيعته الإلهية. في حين يعتقد الكاثوليك والأرثوذكس بطبيعته المزدوجة أي الإلهية والبشرية.

في حدود سنة 610 ادعى محمد أنه تلقى الوحي من طرف الملاك جبريل فأخذ يدعو قومه إلى (الإسلام) أي أن يسلموا وجوههم لإله التوراة؛ وأصبح أتباعه يُسمون المسلمين. بعد وفاة زوجته خديجة، حوالي سنة 620 م، أصبح عرضة لعداوة شديدة من طرف المكيين فهاجر إلى المدينة سنة 622 م. وكان ذلك بداية للتقويم الهجري.

أشرف محمد، في المدينة، على تنظيم مجتمع المؤمنين وأسس الجيش وسنَّ القوانين واتخذ عدة زوجات ثم استولى على مكة وهزم القبائل العربية المؤمنة بالديانتين اليهودية والمسيحية وتوفي سنة 632 م.

تولى أتباعُه تدوين تعاليمه. وبعد وفاته بحوالي عشرين سنة بادروا إلى جمع ما توفر لديهم من نصوص وأتلفوا ما عداها من النصوص السابقة. إن النسخة الرسمية لتلك النصوص هي التي تُعرف باسم القرآن اليوم وهي مقسمة إلى عدد من السور والآيات التي لا تخضع للترتيب الكرونولوجي.

بعد وفاة محمد قامت حملة تبشيرية نشيطة لحمل بقية القبائل العربية على اعتناق الدين الإسلامي بواسطة حملات حربية وضغوط ضريبية.

لم تعد جزيرة العرب الشاسعة الأطراف قادرة على إعالة سكانها بسبب التزايد الديموغرافي السريع جدا؛ فاضطروا إلى النزوح نحو فلسطين وسوريا والساحل اللبناني والعراق ومصر التي كانت، آنذاك، جزءا من المقاطعات الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية المجاورة لبلادهم.

لئن كان المهاجرون العرب الأقدمون قد تبنوا الحضارة الهلينية (الإغريقية) واعتنقوا الديانة المسيحية واندمجوا في سكان الإمبراطورية؛ فإن العرب الذين هاجروا حديثا ظلوا متمسكين بالوشائج التي تشدهم إلى بلدهم الأصلي أكثر من البلدان التي آووا إليها.

أما الإمبراطورية البيزنطية، وهي الوريث الشرقي للإمبراطورية الرومانية التي سقطت تحت ضربات الأقوام الجرمانية، فإنها كانت مثل سابقتها تعاني مشاكل انخفاض عدد الولادات وتبعثر سكانها في أطراف البلاد وسيطرة الطبقة الأرستقراطية وغلواء الجهاز البيروقراطي وإجحاف الضرائب الثقيلة وسطوة المرتزقة في صفوف الجيش وارتخاء الشعور بالانتماء الوطني واحتدام الخلافات الدينية وتصاعد الاستياء في صفوف المجتمع.

تمكن العرب من سحق الجيوش البيزنطية فاستولوا على فلسطين وسوريا ولبنان ومصر وليبيا وبلاد النوبة وعلى الإمبراطورية الفارسية وجزء من الهند؛ وأجبروا السكان المتمسكين بوثنيتهم على الدخول في الإسلام كرهًا وقتلوا واستعبدوا الذين صمدوا أو لم يتمكنوا من الفرار إلى خارج بلدانهم.

أما من بقي من المسيحيين والإسرائيليين فقد ضُربت عليهم الذلة ولم يعد في مستطاعهم صدُّ عائلاتهم عن اعتناق الإسلام وحُرموا من التبشير بدياناتهم أو إظهارها علانية.

كان تشييد الكنائس الجديدة أمرا محظورا، من الناحية المبدئية، وأُجبر السكان غيرُ المسلمين على إبداء آيات الولاء للمسلمين وارتداء ثياب تميزهم عن غيرهم كما فُرضت عليهم ضرائب أثقل وكانوا، بصفة عامة، ممنوعين من تقلد الوظائف العامة.

لئن كان اعتناق الإسلام ينال كل تشجيع فإن ارتداد المسلم إلى دين آخر غير الإسلام يُعاقب بالقتل بالرغم من أن الآيات القرآنية تحث على عدم التعرض للمرتدين.

تواصلت الهجرة العربية والإسلامية طيلة قرون عديدة. فتحول اللبنانيون والسُّريانيون والأشوريون والكلدانيون والأقباط المصريون شيئا فشيئا إلى أقليات في بلدانهم وتم تعريبُهم.

4. المقاومة البربرية ضد المحتلين العرب في منطقة الأوراس والنمامشة

بعد أن فرض العرب سيادتهم على مصر، سنة 642، اجتاحوا ليبيا واستولوا على مدينة قرنة (Cyèrne) وهي مدينة بيزنطية صارت مركز إشعاع مسيحي؛ فاضطر سكانها إما إلى الفرار أو اعتناق الإسلام.

اجتاح الجيش العربي الأراضي التونسية، سنة 647، فهزم قائد القوات البيزنطية، غريغوار (Grégoire)، وقتله في مدينة سبيطلة؛ ثم وصل إلى نواحي تبسة على حدود بلاد النمامشة.

حين تولى علي الخلافة، وهو زوج ابنة محمد، ثارت بعض القبائل العربية ضده وتم الاعتراف بمعاوية، الحاكم العربي على سوريا، خليفة فأنشأ الخلافة الأموية واتخذ دمشق عاصمة للدولة الأموية. أعلنت الأغلبية الساحقة من المسلمين الولاء لمعاوية وهؤلاء هم المسلمون السُّنيون.

أما السواد الأعظم من أتباع علي، أي الشيعة، فاستقروا في جنوب العراق وفي إيران وانفصلت عنه طائفة من أنصاره بسبب إحجامه عن محاربة معاوية وهؤلاء هم الخوارج.

صمد البربر القاطنون في ليبيا وجنوب تونس في وجه العرب. ثم اعتنق بعضهم الإسلام في حين فضل البعض الآخر التراجع نحو الصحراء وجمع البيزنطيون صفوفهم في شمال تونس استعدادا لمجابهة العرب في نواحي قرطاج.

حينئذ وصلت دفعة جديدة من القوات العربية قادمة من المشرق بقيادة عقبة فاستولت على جنوب تونس وأسست مدينة القيروان في مكان يقع بين مدينتي سوسة وتبسة على مسافة تبعد بأقل من 200 كلم عن بلاد النمامشة. واصل عقبة زحفه على طول السواحل الجزائرية ومعه بضعة آلاف من الفرسان العرب ثم سار بمحاذاة الساحل المتوسطي فالأطلسي بالمغرب. وفي سنة 684 قفل عقبة راجعا

عبر الهضاب العليا ثم قُتل في نواحي بسكرة على يد الزعيم البربري كُسيلة. ويبدو أن هذا الأخير كان مسيحيا ولقد حشدَ عددا من قبائل الأوراس والنمامشة تحت إمرته فاستولى على مدينة القيروان؛ بيد أن العرب سرعان ما استعادوا السيطرة على المدينة.

في تلك الأثناء ظهرت ملِكةٌ بربرية تُدعى الكاهنة وكانت على الدين اليهودي أو المسيحي فتمكنت من توحيد صفوف قبائل النمامشة وهزمت العرب على ضفاف واد مسكيانة بين خنشلة وتبسة ثم لاحقتهم إلى الأراضي التونسية حتى نواحي قابس في نهاية القرن. ثم اندحرت إلى جبال النمامشة ولقيت مصرعها على يد العرب حوالي سنة 700 م.

اصطدم العرب بمقاومة بربرية شرسة فلم يتمكنوا من الدخول إلى منطقة النمامشة ولا الأوراس؛ ولكنهم من ناحية أخرى بسطوا سيطرتهم على شمال تونس حيث اضطر السكان، شيئا فشيئا، إلى الإسلام أو الهجرة.

حاولت الحاميات العربية المتمركزة في المرافئ الجزائرية والمغربية حمل القبائل البربرية القاطنة في المناطق الداخلية على الاعتراف بسلطتها بعد أن اعتنق بعضُها الإسلام.

في هذه الأثناء (711م) انطلق جيشٌ عربي صغير معظمه من البربر بإمرة القائد البربري طارق؛ فعبرت تلك القوات مضيق جبل طارق واستولت على إسبانيا والبرتغال وكان سكان شبه جزيرة أيبيريا قد ضاقوا ذرعا بهيمنة قبائل القوطة الجرمانية.

انطلق الجيش الإسلامي، ذو الأغلبية الساحقة من البربر المغاربة (les Maures)، فاجتاح الأراضي الفرنسية، في سنة 721، واستولى على مدن ناربون (Narbonne) وتولوز (Toulouse) وبوردو (Bordeaux) ومرسيليا ومقاطعات أكيتان (Aquitaine) وبروفانس (Provence) وسافوا (Savoie) وجزءا من الكتلة الجبلية الوسطى ووصل

إلى ساينس (Sens) وأوتان (Autun). ثم أُبعدت تلك القوات نحو إسبانيا قبل أن تعاود الكرَّة بهجمة ثانية في نهاية القرن ولكنها دُحرت من جديد فتخلصت المناطق الواقعة في شمال إسبانيا والبرتغال من السيطرة الإسلامية. بعد ذلك طُرد العرب من هذين البلدين خلال حرب استغرقت عدة قرون واستمرت إلى غاية سقوط غرناطة.

في سنة 740 اندلعت حركة تمرد بربرية ضد العرب في المغرب ثم امتدت إلى الجزائر. هاجم بربرُ الأوراس والنمامشة العرب في تونس وحاصروا القيروان إلى أن وصل المدد العربي ففك عنها الحصار في سنة 742 م.

في سنة 750م سقطت الخلافة الأموية وحلت محلها الخلافة العباسية ذات العقيدة السنَّية أيضا واتخذت بغداد عاصمة لها.

أما الإسلام الخارجي فانتشر بين صفوف العرب والبربر في شمال إفريقيا. ولمجابهة الخلفاء العباسيين الذين انغمسوا في البذخ والترف راح الخوارج يدعون إلى إسلام يقوم على مزيد من المساواة والتقشُّف.

انطلقت قوات عربية قادمة من مصر إلى الأراضي التونسية لإعادة تثبيت سلطة الإسلام السُّني فأبعدت البربر نحو المناطق الغربية ولكنها لم تفلح في إخضاع بربر الأوراس والنمامشة؛ ولقي قائد هذه القوات العربية، واسمه سليم ابن الأغلب، حتفه خلال إحدى المعارك ضد البربر في سنة 768م.

دخل البربر تدريجيا في الإسلام في حين ظلت أقليات معتبرة متمسكة بعقيدتها المسيحية في الشرق الأوسط وبقي معظم الأسبان والبرتغاليين على مسيحيتهم بالرغم من الاضطهاد الإسلامي المسلط عليهم.

لهذا التباين في المواقف عدة أسباب:

إن البربر، ذوي الأصول المشرقية، لم يستوعبوا من الحضارة اللاتينية سوى بعض قشورها السطحية بل ظلوا متمسكين بحريتهم بشراسة شديدة ولكنهم كانوا طيِّعين جدا على صعيد العقيدة الدينية فسارعوا، مثلا، إلى تبني الآلهة القرطاجية.

بعد ذلك اعتنق قسم كبير منهم الديانة المسيحية بالرغم من التنكيل بهم من طرف الرومان. ولقد لجأ المسيحيون البربر المتطرفون. وهم أتباع المذهب الدوناتي، إلى محاربة المسيحيين الكاثوليك وأضعفوا شوكتهم وقضوا، إلى حد بعيد، على هيبة الكنيسة المسيحية. أما الوندال، الذين كانوا ينكرون ألوهية المسيح فإنهم سلطوا على البربر المسيحيين اضطهادا عظيما ونفوا أساقفتهم وألقوا أشدَّ الكاثوليك إيمانا في غياهب السجون.

عادت الكثير من القبائل البربرية إلى ديانة أسلافها الوثنيين؛ وحين جاء الإسلام ذكَّرهم بوحدانية الله الذي سبق أن عرَّفتهم المسيحية بوجوده. وكانت التعاليم القرآنية الأولى بخصوص مغانم الحروب متماشية مع المعتقدات البربرية التي عادت إلى ضراوتها التقليدية بسبب تطور النزاعات العشائرية والحروب القبلية.

إن اعتناق البربر للإسلام وضعهم على قدم المساواة مع المحتلين العرب وحفظهم من شرور الحرب ضدهم ولقد مكنهم الإسلام، بهذه الصفة، من الاحتفاظ باستقلاليتهم التي هي أول مطالبهم منذ الأزل.

كما أن بعض الذين اعتنقوا الإسلام بغير قناعة، في بداية الأمر، سرعان ما تحولوا إلى مؤمنين صادقين فيما بعد فتغلغل الإسلام أكثر فأكثر في نفوس البربر بالرغم من احتفاظهم ببعض الأفكار والمعتقدات المسيحية السابقة مثل التبرك بالأولياء ولم يكونوا، في أغلب الأحيان، يفرضون على زوجاتهم ارتداء الحجاب.

ظلَّ بعضُ البربر على دينهم المسيحي إلى ما بعد سنة 1.000م.

تأسست مملكة بربرية خارجية في القطاع الوهراني كما تأسست مملكة شيعية على يد البربر شمالي المغرب.

أما في القطاع القسنطيني فاعتنقت بعض القبائل البربرية مذهب الخوارج وبقي بعضُها على المسيحية وتمسك بعضُها الآخر بعبادة عدة آلهة.

أحرز الإسلام الخارجي تقدما ملموسا في منطقتي الأوراس والنمامشة. كما ارتبطت القبائل القاطنة في هذه الكتلة الجبلية بالمملكة الأغلبية،[3] العربية السُّنية، في تونس وكانت علاقاتهم معها شبيهة بتلك التي كانت تربطهم في الماضي مع قرطاج؛ ولئن كانت لهم مبادلات تجارية مع تونس إلا أنهم لم يكونوا يحجمون، حين تسنح الفرصة، عن القيام بغارات السلب والنهب على تخومها وكانوا يصدون الهجمات العربية رافضين الخضوع للعرب والتعريب بالرغم من أنهم كانوا يمدون الجيوش العربية بالجند المرتزقة.

في القرن التاسع الميلادي اجتاح عربُ تونس سواحل صقلية وسردينيا وكورسيكا وجنوبي إيطاليا ومقاطعة بروفانس ووصلوا إلى مشارف مدينة روما.

كان في صفوف تلك القوات العربية بربرٌ شاوية من الأوراس والنمامشة فقاتلوا معهم ورجعوا إلى الأصقاع الأوروبية التي سبق لأسلافهم النوميديين أن وطأتها أقدامهم حين كانوا يقاتلون في صفوف الجيش القرطاجي.

في مطلع القرن العاشر انتشر المذهب الشيعي بين البربر القاطنين في جبال القبائل ثم انتقل إلى المناطق المحاذية لمدينة الجزائر وأتى على المملكة الخارجية. غير أن المذهب الخارجي بقي حيا لدى البربر المزابيين القاطنين في الواحات الصحراوية في منطقة غرداية.

اجتاح المذهب الشيعي الربوع الجزائرية وتولى أحدُ العرب الشيعة قيادة هذه الحركة فاستولى على القيروان بمساعدة أبناء منطقة القبائل وقضى على حُكم بني الأغلب واحتل القطر التونسي وجعل عاصمته في ميناء المهدية شرقي القيروان وأسس السلالة الفاطمية.

بما أن معظم البربر الشاوية القاطنين في الأوراس والنمامشة ظلوا على المذهب الخارجي فإنهم هاجموا القطر التونسي، سنة 943، ووصلوا إلى مشارف القيراون والمهدية ولكنهم هُزموا في نهاية المطاف.

---

3. تنتمي الأسرة الأغلبية الحاكمة إلى ابن سليم الأغلب المذكور آنفا.

ثم استعادوا استقلالهم الذاتي بفضل اندلاع الحرب بين المملكتين الشيعيتين: الفاطمية في تونس والإدريسية في المغرب.

احتل الفاطميون مصر واستقروا في القاهرة.

استولت أسرةٌ بربرية سُنية من بني زيري على السلطة في تونس وأرجعت تونس والجزائر إلى حظيرة الإسلام السُّني وانفصلت عن الفاطميين الشيعة الذين استقروا بمصر في نهاية القرن العاشر الميلادي.

في منتصف القرن الحادي عشر حاول عاهلُ مصر استعادة سلطته على تونس فقرر التخلص من الأقوام العربية من بني هلال فأرسلهم لاجتياح البلدان الواقعة غرب مصر.

كان بنو هلال بدوا كثيري الإنجاب ولقد سبق لهم أن عاشوا في سوريا سلبا ونهبا خلال القرن العاشر ثم انتقلوا إلى صعيد مصر. وهكذا انتقلت عشرات الألوف منهم بمحاذاة الساحل الليبي في موجات بشرية متتابعة تتألف من عائلات بأكملها.

سحقوا جيش بني زيري البربري قرب مدينة قابس، في سنة 1053، ودمَّروا مدينة القيروان.

اجتاحت آلافُ العائلات العربية شمال تونس فأتموا فيها عملية التعريب والأسلمة؛ ثم انتقلوا إلى شمال القطاع القسنطيني وعرَّبوا جزءا من سهوله وأوديته. ولكن بعض الجيوب البربرية صمدت في وجوههم بمنطقة جبال القبائل.

كذلك كان شأن البربر الشاوية في الأوراس والنمامشة الذين قاوموا توسع بني هلال وصدوهم عن الدخول إليها.

تحوَّلت جميع هذه القبائل البربرية إلى الإسلام السُّني.

بعد أن استرجع المسيحيون سيطرتهم على جزء من إسبانيا والبرتغال وبروفانس وكورسيكا وسردينيا وجنوبي إيطاليا؛ بادروا بهجمة مضادة في اتجاه

الشرق الاوسط وتمكنوا، بصورة مؤقتة، من تحرير قسم من المسيحيين الأرمن واللبنانيين والفلسطينيين الرازحين تحت السيطرة الإسلامية.

أما بربر قبيلة مصمودة المغربية، الذين عادوا إلى اعتناق المذهب الشيعي، فبسطوا سيطرتهم على غرب الجزائر وشمالها. ثم اصطدموا، سنة 1052، بقبائل بني هلال في نواحي سطيف فأجلوهم إلى نواحي تبسة.

في الوقت نفسه نزل النورمان الصقليون على سواحل إفريقيا فاستولوا على تونس وسوسة ومهدية وطرابلس؛ ولكن بني هلال طردوهم منها. وحين تلقى هؤلاء مددا جديدا من أمواج الهجرات العربية اجتاحوا القطاعين الجزائري الأوسط والوهراني فعاثوا فيهما فسادا وعربوهما؛ واضطرت آخر القبائل البربرية التي كانت متمسكة بعقيدتها المسيحية إلى اعتناق الإسلام وتعريب لهجتها.

دخل بنو هلال إلى المغرب واختلطوا بالبربر القاطنين في المناطق السهلية والساحلية وعرَّبوا قسما كبيرا منها. في حين احتفظ البربر بلغتهم في المناطق الجبلية المغربية.

في سنة 1.270 هاجم ملك فرنسا، سان لويس، تونس ولكنه فشل في اقتحامها ومات بداء الطاعون تحت أسوارها. ثم وصلت هجرة جديدة من الأقوام العربية، تدعى بنو معقل، عبر السواحل الليبية ومرَّت بالقرب من منطقة الشطوط الموجودة جنوبي بلاد النمامشة وهي في طريقها إلى جنوب المغرب. وهكذا فإن توافد عدة ملايين من المهاجرين العرب واختلاطهم ببضعة ملايين من البربر ساهم إلى حد بعيد في تعريب هؤلاء وحصر الباقي في المناطق الجبلية وأدخل تحويرات عميقة على تركيبة السكان في شمال إفريقيا وعاداتهم وتقاليدهم وطباعهم وحضارتهم وأساليبهم الزراعية ثم أصبحت اللغة العربية أكثر انتشارا من اللغة البربرية ذاتها.

ظلت منطقة الأوراس والنمامشة جيبا من الجيوب البربرية المستعصية.

في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي بسط الأتراك سلطانهم على جزء كبير من أوروبا وإفريقيا وآسيا. وخلال القرن السادس عشر استولوا على بعض المرافئ التونسية والجزائرية وفرضوا على القبائل البربرية القاطنة في المناطق الداخلية الاعتراف بالتبعية لهم ونصبوا في قسنطينة حاكما تركيا برتبة داي وصارت قبائل الشاوية، في الأوراس والنمامشة، تدفع له الإتاوات عرفانا بسلطته وكانت تخضع له إلى حد ما.

5. التدخل الفرنسي

استمرت السيطرة التركية على الجزائر مدة ثلاثة قرون انتفض خلالها السكان العرب والبربر عدة مرات ولكن الأتراك تمكنوا من قمعهم: أما الحروب العشائرية والقبلية فبقيت متواصلة ولم يتزايد عدد السكان بسبب كثرة الأوبئة والمجاعات والصراعات المحلية.

كان القراصنة الأتراك والعرب والمغاربة، طيلة قرون عديدة، يزرعون الرعب في البحر المتوسط ويعرقلون تطور الحركة التجارية فيه ولقد تواصلت القرصنة إلى غاية القرن التاسع عشر مما أثار ضغينة القوى الأوروبية لما كان يصيب سفنَها وسواحلها وضاقت ذرعا بعمليات اختطاف البحارة المسيحيين: فخلال تلك القرون الطويلة كان العديد من الغربيين يباعون عبيدا في أسواق النخاسة بإفريقيا.

تسببت أعمال القرصنة في إثارة هجمات مضادة من طرف الدول الغربية. ولقد تدهورت العلاقات بين الداي التركي المقيم بالجزائر وبين الدولة الفرنسية إثر نشوب نزاع مالي بين الطرفين نتج عنه إرسال حملة تأديبية قوامها 40.000 جندي فاحتلت مدينة الجزائر سنة 1830 ثم استولت على أهم الموانئ الجزائرية. اصطدمت القوات الفرنسية، في القطاع الوهراني، بحركة مقاومة بقيادة الأمير عبد القادر؛ وبحركة مقاومة أخرى في القطاع القسنطيني بقيادة أحمد باي تكبد الفرنسيون خلالها خسائر ثقيلة.

في سنة 1837 تمكنت حمْلةٌ عسكرية قوامها 12.000 جندي فرنسي من احتلال قسنطينة ولقد شارك في صفوف تلك الحملة عدة مئات من جنود الزُّواف من منطقة القبائل ومن القناصة الأتراك والفرسان العرب. أسفر احتلال قسنطينة عن مئات القتلى من بينهم الحاكم العام للجزائر واثنين من الجنرالات الذين قُتل بعضهم في خضم المعارك ومات البعض الآخر بسبب وباء الكوليرا.

أما الباي أحمد فقد اعتصم بجبال الأوراس.

في سنة 1843 دخل رتل من القوات الفرنسية (الكتيبة الثانية من قوات المرتزقة) إلى جبال النمامشة بقيادة المقدم دي ماك ماهون (de Mac Mahon) وهو الذي سيترقى بعد ذلك إلى رتبة ماريشال ثم يصبح رئيسا للجمهورية الفرنسية. وفي الواقع إن قبائل النمامشة التي صمدت في وجه العرب طيلة قرون عديدة وتصدت للأتراك بعد ذلك؛ قد خضعت لماك ماهون بدون صعوبة تُذكر في حين فضلت بعض القبائل المعادية الهجرة إلى تونس.

في مطلع سنة 1844 دخلت الكتيبة الثانية من قوات المرتزقة الأجانب إلى منطقة الأوراس واستولت على باتنة وبسكرة وشتَّتت صفوف 3.000 بربري كانوا متمركزين في امشونش استعدادا لمجابهتها.

بعد أن أصيب أحمد باي بداء عضال سلَّم نفسه للفرنسيين، سنة 1848، ورخصوا له بالإقامة بمدينة الجزائر إلى أن توفي هناك بعد سنتين.

واصل الشيخ بوزيان الحرب ضد الفرنسيين انطلاقا من واحة الزعاطشة الواقعة جنوب شرق بسكرة وتمكن من دحر محاولة هجومية من طرف المرتزقة، خلال صيف 1849، ثم هاجم بسكرة وصُدَّ عنها بعد أن خسر 200 من رجاله.

بعد ذلك تجمَّعت عدة مئات من الأوراسيين في مدينة امشونش وزحفوا نحو مدينة سريانة الواقعة شرقي بسكرة ولكن فرقة عددُها 200 من المرتزقة الأجانب و350 من القومية البربر المنضوين تحت اللواء الفرنسي شتَّتت صفوفهم.

في خريف 1849 استولى الجنرال هربيون (Herbillon) على واحة الزعاطشة على رأس كتيبة فاق تعدادُها 5.000 رجل قُتل أو جُرح منهم عدة مئات خلال عملية المداهمة وقُتل الشيخ بوزيان مع المئات من أنصاره خلال تلك المعارك.

في تلك الأثناء، أي في أواخر 1849، احتشد بعض المتمردين الأوراسيين في مدينة نارا الواقعة بين باتنة وامشنونش ولكن تم تشتيتهم من طرف الكولونيل كانروبير (Canrobert) الذي سيتقلد رتبة ماريشال فيما بعد.

الاستيطان الفرنسي

شجعت فرنسا عددا من الأوربيين على استيطان الجزائر وبصفة خاصة في المدن والسهول القريبة من مدينة الجزائر؛ وكان أولئك المستوطنون يتكونون من البطالين ومن قدماء العسكر الفرنسيين ومن المهاجرين الأسبان والإيطاليين والمالطيين واليونان والسويسريين والألمان. كما أن فرنسا نفت إلى الجزائر، سنة 1848، قرابة 4.000 من العمال الباريسيين الذين شاركوا في ثورة باريس آنئذ. وفي سنة 1852 أقدم نابليون الثالث على نفي 10.000 من المعارضين الاشتراكيين والجمهوريين وتوجه عدد كبير منهم إلى لمبيز. بعد وصول هؤلاء المنفيين تأصل القانون الفرنسي في الجزائر.

وبموازاة ذلك واصلت فرنسا عملياتها التوسعية فاستولت، سنة 1854، على مدينة تقرت الواقعة جنوبي بسكرة وفرغت، سنة 1857، من عمليات التهدئة في منطقة القبائل وأسست ما يعرف بالمكاتب العربية وعهدت إلى الضباط العاملين فيها مهمة مراقبة السكان وإشاعة الأمن في المنطقة واستمالة زعماء القبائل لكسب ثقتهم.

تسبب الجفاف الذي حل بالجزائر، سنة 1868، في مجاعة فظيعة وبلغ تعداد سكان الجزائر، سنة 1870، قرابة 2.800.000 نسمة (منهم 15٪ من العرب و30٪ من البربر الذين احتفظوا بلغتهم والباقي من البربر المعربين أو من العرب المتبربرين) إلى جانب 200.000 من المستوطنين الأوروبيين الذين كان معظمُهم فقراء.

ومن جهة أخرى صوَّتت أغلبية هؤلاء الأوروبيين ضد نابليون الثالث في استفتاء سنة 1870 مثلهم مثل سكان باريس ومرسيليا في حين أن بقية المناطق الفرنسية صوتت بالأغلبية لصالحه. في تلك الأثناء اندلعت الحرب ضد بروسيا وانتهت بهزيمة فرنسا وأُلقي القبض على الإمبراطور في مدينة سيدان (Sedan) وأُعلن عن قيام النظام الجمهوري. ولقد تمكنت كمشة من الأوروبيين الذين انتظموا في إطار لجان ذات نزعة اشتراكية من الاستيلاء على السلطة، لمدة قصيرة، في مدينة الجزائر وبعض المدن الأخرى.

منحت حكومة غامبيطا (Gambetta) صفة المواطنة الفرنسية الكاملة وكافة الحقوق المدنية للإسرائيليين الجزائريين وحرمت الجزائريين من الحقوق نفسها بالرغم من أن الكثير منهم شارك في الحرب دفاعا عن رنسا.

في شهر مارس 1871 انتفض الباش أغا المقراني، أحد أكبر الإقطاعيين في منطقة القبائل، وتبعه أغلب سكان القطاع القسنطيني الذين كان أغلبهم من البربر.

بادر إلى تدمير المزارع الفرنسية وتعرض مستثمروها للتقتيل ثم زحف على مدينة الجزائر.

استولت قواته على مدينة بالسترو (الأخضرية) وقتَّلت قرابة خمسين من المدنيين الأوروبيين. أرسلت فرنسا إمدادات عسكرية معتبرة لفك الحصار المضروب على المدن. قُتل المقراني واستسلمت القبائل المنتفضة خلال الصيف الموالي. والتجأ بومزراق، أخ المقراني، إلى الصحراء ثم أُلقي عليه القبض سنة 1872. تميزت هذه الانتفاضة بصبغة قبائلية محضة: ذلك أن البربر الشاوية القاطنين في الأوراس والنمامشة لم يلعبوا فيها دورا معتبرا. اضطرت القبائل المنتفضة إلى دفع غرامات ثقيلة وتعرضت أراضيهم للحجز لصالح آلاف العائلات الوافدة من مقاطعتي ألزاس ولورين التي رفضت التحول إلى الجنسية الألمانية إثر إلحاق مقاطعتهم بألمانيا ففضلوا المجيء للاستقرار على الضفة الأخرى من البحر المتوسط.

إثر ذلك بادرت بعض القبائل التونسية إلى مهاجمة القطاع القسنطيني. وكرد فعل على ذلك فرضت فرنسا الحماية على تونس سنة 1881.

يتميَّز الاحتلال الفرنسي للجزائر بجملة من الخصائص التي تُفسِّر ما توالى بعد ذلك من أحداث:

1. لم تُرتكب في الجزائر مجازر ضد السكان الأصليين على عكس ما جرى في الولايات المتحدة في تلك الفترة التاريخية نفسها.

بل وضعت فرنسا حدا للنزاعات القبلية وحسَّنت الظروف الصحية وقضت على الأوبئة وطورت مستوى الإنتاج ووسائل النقل والاتصال والتبادل التجاري وأدخلت تحسينات على أساليب الرَّي واستصلحت أراض زراعية جديدة وخفَّفت من حدة المجاعات. وارتفع عدد سكان الجزائر، العرب والبربر، من 2.800.000 ن إلى 8.700.000 ن ما بين سنتي 1870 إلى 1954.

لو حدث انفجار ديموغرافي شبيه بهذا في فرنسا، آنذاك، لبلغ عدد السكان في فرنسا 110 ملايين نسمة بدل ما كان عليه، سنة 1954، أي أقل من 50 مليون؛ والحال أن عدد الهنود الحمر في الولايات المتحدة تقهقر من عدة ملايين إلى بضع مئات آلاف فقط.

إن تزايد السكان الجزائريين، السريع، كان سببا من أسباب ارتفاع عدد البطالين وانتشار الفاقة. ذلك أن فرنسا، بالرغم من المبالغ الهائلة التي أنفقتها، لم تتمكن من تطوير الموارد بنفس الوتيرة السريعة لتزايد السكان. لقد كلَّفتها الجزائر ثمنا باهظا والحال أن عمليات الاحتلال في مناطق أخرى عادة ما تعود بالمنافع.

2. لم تمارس فرنسا أية ضغوط على المغلوبين لدفعهم إلى الاندماج أو التحوُّل عن ملَّتهم وهذا على عكس ما فعله المسلمون في كثير من المناطق التي احتلوها. بل إن الحكومات الفرنسية المتعاقبة، بالرغم من توجهاتها اللآئيكية، شجَّعت الإسلام بصفة رسمية بالرغم من كون بعض تعاليمه معادية لغير المسلمين. هذا

الموقف المتناقض كثيرا ما اعتبره فقهاءُ المسلمين دليلا على اعتراف فرنسا بعلو كعب الإسلام على بقية الأديان. فلم يكونوا يرون داعيا لإعادة النظر في أحوالهم ولم يدفعهم هذا إلى القيام بمراجعة نقدية للآيات القرآنية ذات الأفكار القروسطية والمتعصبة ولا إلى التحاور مع التيارات الفكرية الأخرى. بل استمروا في نشر الأفكار ذاتها في المدارس القرآنية في ظل موافقة فرنسا ظاهريا على ضرورة محاربة غير المسلمين.

كان من الأجدى لو برهنت فرنسا على تسامحها الفكري باتخاذها موقفا محايد متماشيا مع مبادئها اللائيكية؛ ولكن هيهات فاللائيكيون الفرنسيون كانوا أشد معارضة للمسيحية من معارضتهم للإسلام.

كان من الأفضل عدم المساس بالعادات والتقاليد القبلية والامتناع عن إدارة شؤونها بطريقة مباشرة من طرف مسيرين فرنسيين لا يعرفون الناس حق المعرفة. يفترض هذا تشجيع الزعماء التقليديين في جميع المناطق التي يحظون فيها بالاعتراف من طرف القبائل التي ينتمون إليها.

غير أنه كان ينبغي مراقبة هؤلاء الإقطاعيين ورعاية الرقي الاجتماعي لدى فئة المسلمين ودفعهم إلى الممارسات الديقراطية مثلا بتشجيع هيئات تاجماعت باعتبارها مجالس شعبية محلية يمكنها نقل السلطة تدريجيا من أيدي الإقطاعيين إلى ممثلي الشعب.

لكن السياسة المتبعة أبقت المجتمع الجزائري في حالة الجمود فتحجّر تفكيره في إطار الفكر القرآني القروسطي مما منع بالنتيجة تفتُّحه على آفاق التقدم والرقي.

وباعتبار أن البربر كانت لهم، في القديم، وشائج متينة مع أمم الغرب وسبق لهم أن صمدوا في وجه التعريب فكان في إمكانهم الرجوع إلى أصولهم وعودة قسم منهم إلى أحضان المسيحية. لو حدث ذلك لكان بمثابة جسر بين الجزائر ودول الغرب؛

ولكن حدث العكس فتواصلت عملية التعريب في ظل السيطرة الفرنسية على حساب الخصوصية البربرية.

لقد ساعد الاستعمارُ الفرنسي على تركيز دعائم الاستعمار العربي وخصوصا ما تعلّق بأسوأ الجوانب وأكثرها سلبية.

3. تم استدراج جماعات من السكان الأوروبيين للاستقرار في الجزائر حيث أصبحت أقلية في خضم الأغلبية المسلمة.

ارتفع عدد أولئك السكان الأوروبيين إلى 1.200.000 ن، سنة 1954، وكان من بينهم ما يفوق 100.000 إسرائيلي مُدمجين مع فئة السكان الأوروبيين وما ينيف عن 100.000 من الأسبان، من أنصار النظام الجمهوري، الذين غادروا إسبانيا فرارا من نظام فرانكو.

لم تُسجل في الواقع أية حالات زواج بين الأوروبيين والمسلمين وذلك لأن الأوروبيات كن يربأن بأنفسهن السقوط في ظروف شبيهة بأوضاع النساء المسلمات؛ وكان المسلمون، بصفة عامة، يرفضون زواج أبنائهم وبناتهم مع غير المسلمين وهذا ما منع انصهار الطائفتين في بوتقة واحدة. لئن نشأت علاقات وطيدة بين جزائريين ينتمون إلى مِلل ونِحل شتى فإن ذلك لم يحُل أيضا دون بروز مشاعر الازدراء والاستخفاف لدى كلا الطرفين.

لم تكن الحكومات الفرنسية المتعاقبة تساورها الأوهام بخصوص بقاء تلك الوضعية بصورة دائمة ومستمرة؛ ولم يكن يهون عليها أيضا أن تنسحب وتتخلى عن الأوروبيين فتتركهم يواجهون مصيرهم في ظروف قروسطية قرآنية خصوصا وأنها هي التي شجعتهم، في بداية الأمر، على المجيء بل كانت تُبعد بعضهم بنفيهم إلى الجزائر. لم يكن لدى تلك الحكومات بديلٌ آخر غير خلق الظروف المواتية وفتح أبواب التطور والرقي في وجه السكان المسلمين فإما انصهار الشعبين في بوتقة واحدة وإما إنشاء نظام فدرالي وإما انسحاب فرنسا بصورة تدريجية لتحل محلها دولة جزائرية تتمتع بمؤسسات ديمقراطية.

4. لم يحدث [خلال العهد الاستعماري] أن أُبعدت القبائل العربية والبربرية عن مناطقها ولا حُشرت في مناطق ضيقة مخصصة مثلما وقع في الولايات المتحدة [مع الهنود الحمر]. لقد تم تنصيب أوائل المستوطنين في مناطق تغمرها المستنقعات أو في الأراضي التي تخلى عنها العرب والبربر بسبب ما فيها من حجارة وصخور؛ ومن ذلك مثلا منطقة متيجة التي تسودها ظروف غير صحية وموبوءة. ومن ذلك مثلا أن هؤلاء المستوطنين مُنحوا، في نواحي بوفاريك، قطعا أرضية ضيقة لا تتجاوز مساحتها، في بعض الأحيان، هكتارا واحدا؛ ولكنهم حولوها أراض زراعية صالحة بعد أن مات كثير منهم بسبب الحمى وشدة الإرهاق.

ولم يكن كبار المزارعين الأوروبيين يمثلون سوى أقلية قليلة بينما كانت الأغلبية تعيش حياة الكفاف في مزارع أصغر بكثير من متوسط المزارع المعروفة في فرنسا. وفي المقابل كان أغلب كبار مُلاَّك الأراضي ومربي المواشي عربا أو بربر؛ في حين كان عدد المستوطنين الأوروبيين الكبار محدودا وخصوصا بعد أن عرقل نابليون الثالث هجرة المستوطنين الأوروبيين وهذا لإنقاذ العرب والبربر الجزائريين من الغرق في خضم المستوطنين الوافدين ولكي لا يكون مصيرهم كمصير الهنود الحمر في الولايات المتحدة. ونظرا لارتباط نابليون الثالث بالحركة الرأسمالية الكبرى فإنه أنعم على الشركات المتعددة الجنسيات بقطاعات أرضية مترامية الأطراف.

أحلَّ قانون 1873 الملكية الفردية للمسلمين محل الملكية القبلية المشاعة. ولكن من غير تحضير مسبق. مما دفع الكثير من المسلمين إلى بيع أراضيهم للأوروبيين والمضاربين أو لأثرياء المسلمين؛ وبعد حوالي 15 عاما أُلغي هذا القانون بعد أن حرم الجالية المسلمة من الأراضي التي تبيَّن فيما بعد أنها ضرورية لها نظرا إلى نموها الديموغرافي السريع.

5. كان بإمكان المسلمين التخلص من قانون الأحوال الشخصية الإسلامية من غير التخلي عن معتقداتهم الدينية؛ غير أن الإطار القرآني والإقطاعي الذي يُكبلهم لم يسمح لهم بالتطور بل كانوا يعتبرون ذلك التطور بمثابة ارتداد عن الدين فرفضوه في الغالب الأعم.

تُرك المسلمون وشأنهم في إطارهم العائد إلى القرون الوسطى والتي لا مكان فيه لفكرة التصويت. والواقع أنه لم تكن أية دولة إسلامية تعتمد أسلوب الانتخابات.

تأسست بلديات كاملة الوظائف في المناطق ذات الكثافة الأوروبية العالية وكان المسلمون القاطنون فيها ممثلين بصفتهم أقلية: أما في المناطق ذات الكثافة الإسلامية العالية فتأسست بلديات مختلطة وُضعت تحت إمرة حكام مدنيين فرنسيين بمساعدة طائفة من القُياد المسلمين المُعيَّنين من طرف الإدارة الفرنسية وكان المسلمون ممثلين كأقلية في شتى المجالس الجزائرية.

أُلغي تطبيقُ بعض التعاليم القرآنية، التي كانت سارية في العهد التركي مثل قطع يد السارق واستُبدلت بنظام قضائي مستلهم من القضاء الغربي.

غير أنه تبيَّن بأنَّ العقوبات الغربية، التي كانت أقل فظاظة، لم تكن رادعة بما فيه الكفاية في نظر السكان الذين تعودوا، منذ قرون طويلة، على قطع يد السارق وقطع الرؤوس بسبب أدنى المخالفات: كما صدر قانونٌ خاص بالأهالي يتضمن عقوبات أكثر صرامة وقسوة على المسلمين بالمقارنة إلى العقوبات المسلطة على الأوروبيين.

لم يكن مجمل الفرنسيين يفقهون كنه التشريع الشديد التعقيد بالرغم من أن لا أحد يُعذر لجهله بالقوانين. وكان المسلمون أكثر عجزا عن فهم تعقيدات تلك الشرائع.

كان التوظيف يتم بمقتضى اختبارات مفتوحة للجميع؛ غير أن نسبة التمدرس المنخفضة بين صفوف المسلمين، وخصوصا في الأرياف، كانت عقبة كأداء في وجه الطامحين للتوظيف.

وعلى صعيد آخر تم تجنيس الأجانب المقيمين بالجزائر بكل سهولة ومُنحوا حق التصويت في حين حُرم المسلمون منه بالرغم من أنهم وُلدوا فوق الأرض الجزائرية وكانوا، من الوجهة القانونية، يُعتبرون فرنسيين بحكم مولدهم [في مقاطعة فرنسية] وبالرغم من أنهم حاربوا في سبيل فرنسا.

حتى ولو لم يكن الجزائريون يتمتعون بحق التصويت في الماضي إلا أن رؤية الأجانب يتمتعون بذلك الحق، المحظور عليهم في بلدهم، قد ولّد فيهم الشعور بالإحباط؛ ولئن لم يكن من المناسب منحُ حق التصويت بدون تحضير مسبق لفائدة السكان المسلمين الذين لم يتعودوا على ممارسته غير أنه كان من الممكن تعويدُهم بصورة تدريجية. ولقد أدركت الحكومات الراديكالية التي توالت في عهد الجمهورية الثالثة أن الناخبين المسلمين سوف يصوتون أساسا لصالح الأحزاب الفرنسية اليمينية على حساب الأحزاب اليسارية؛ كما أن أوروبيي الجزائر كانوا يخشون أن يتحولوا إلى أقلية ضئيلة وسط الناخبين المسلمين الذين بقي معظمهم متمسكين بتصوراتهم وأفكارهم البالية وهذا ما لم يكن الأوروبيون يتحملونه.

هذه الوضعية المتميزة آلت إلى خلق ظروف أرحم بالجزائريين وأحسن من الظروف التي كان المسيحيون يعانونها تحت سيطرة الأنظمة الإسلامية بل هي ظروف أحسن حتى من ظروف المسلمين الذين يعيشون في تلك الدول الإسلامية. ومهما كان الأمر فإن ظروف الجزائريين المسلمين كانت تنطوي على كثير من الكيد والتعسف وخيبة الآمال.

لقد ارتضى شاوية الأوراس والنمامشة بالاستعمار الفرنسي، في الفترة ما بين 1872 و1914، وتوافقوا معه بسهولة أكبر مقارنة مع مقاومتهم الشرسة ضد الاستعمار العربي. وكان الاستعمار الفرنسي أكثر رفقا ولطفا من الاستعمار التركي.

استقر عدد من التجار الفرنسيين في مدينة خنشلة واستقر بعض المزارعين في نواحيها ولكن ليس في عمق بلاد النمامشة وكذلك الشأن في الأوراس حيث اكتفى الأوروبيون بالاستقرار على حدودها الشمالية والغربية وخصوصا في مدينتي باتنة وبسكرة وعدد أقل في أريس.

لم يحصل أبناء النمامشة والأوراس على حق التصويت ولا كانوا يعرفونه من قبل بل لم يكن ذلك ضمن اهتماماتهم الرئيسية قط.

وبما أن معظمهم لم تكن لهم أية علاقة بالأوروبيين فإنهم لم يعقدوا أية مقارنة بين أحوالهم وأحوال هؤلاء؛ بل قارنوا بين أوضاعهم الحاضرة وأحوالهم الماضية التي ظلت ذكراها عالقة في أذهانهم؛ فلقد استتب السلم والأمن في ربوعهم أكثر مما كان عليه خلال القرون السالفة وذلك ما سمح لهم بتطوير نشاطهم الرعوي والزراعي ومكنهم، بالتالي، من زيادة مواردهم وتحسين مستوى معيشتهم.

أقدم بعض الشاوية النمامشة على الانخراط في صفوف القناصة والفرسان الجزائريين العاملين في الجيش الفرنسي وحاربوا في الهند الصينية ومدغشقر وتشاد والمغرب.

في سنة 1911؛ احتلت إيطاليا الساحل الليبي واصطدمت بمقاومة القبائل البدوية القاطنة في الصحراء مما كان له انعكاسات على بلاد النمامشة فيما بعد.

6. ثورة الأوراس والنمامشة سنة 1916

ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية.

مددت فرنسا في مدة الخدمة العسكرية وفرضت التجنيد الإجباري على المسلمين الجزائريين فأثار هذا الإجراء كثيرا من الاحتجاجات؛ وهاجرت عدة عائلات مسلمة من نواحي تلمسان إلى المغرب بغرض تجنيب أبنائها أداء الخدمة العسكرية الإجبارية. وعبثا طالبت عدة شخصيات إسلامية بمنح المسلمين الجزائريين حق التمثيل في البرلمان الفرنسي مقابل أدائهم الخدمة العسكرية الإجبارية؛ وحين اندلعت الحرب الفرنسية الألمانية، سنة 1914، تمت تعبئة 173.000 من الجنود المسلمين الجزائريين من بينهم 90.000 متطوع و83.000 من المدعوين للالتحاق بصفوف الجيش الفرنسي. مات منهم في الحرب 25.000؛[4] ولئن تم تخفيض عدد المجندين في صفوف السكان المسلمين الجزائريين البالغ عددهم 5

4. انظر: Marechal Juin. La France en Algérie. Perrin. 1963

ملايين نسمة غير أن 10.000 منهم قُتلوا في المعارك وأصيب عدد أكبر بجروح بالغة الخطورة وبُترت أعضاء بعض المعطوبين.

أما سكان الجزائر الفرنسيون فخسروا 22.000 قتيل أي نسبة ست مرات عدد القتلى في صفوف المسلمين.

في نهاية سنة 1914؛ استولى أتباع الطريقة السنوسية، المتمركزة في ليبيا، على إحدى المراكز العسكرية الإيطالية في مرزوق بالصحراء الليبية ثم استولوا على مركز غات.

انضمت قبائل التوارق نآجير إلى السنوسيين. وفي مارس 1916 استولى السنوسيون على المركز العسكري الفرنسي في جانت. ثم اندلعت عدة معارك في الجنوب التونسي غير بعيد عن جبال النمامشة.

وخلال فصل الخريف انتقلت الثورة إلى الأوراس. رفض بعض الشاوية المجندين الاستجابة لاستدعاء التعبئة فحملوا السلاح وشكلوا جماعات مسلحة اعتصمت بالقسم الغربي من جبال النمامشة بالقرب من أحد الحصون البيزنطية القديمة في زاما الواقعة في شمال غرب باتنة وفي جبل متليلي المشرف على شعاب القنطرة بين باتنة وبسكرة. ثم اتسعت رقعة الاضطرابات إلى مناطق شرقي خنشلة.

اغتيل الحاكم الإداري المدني رفقة أحد مساعديه في ماك ماهون بين باتنة والقنطرة. ومهما يكن فإن بقية أنحاء الجزائر بقيت هادئة مما أتاح الوقت الكافي لتدخل القوات الفرنسية المعززة بالمدفعية ومكنها من تشتيت الجماعات المسلحة في أرجاء النمامشة والأوراس في شهر مارس 1917. وإثر قصف برج زوي الواقع شرق خنشلة بالقنابل استرجعت المنطقة هدوءها المعهود.

استمر التوارق نآجير، إلى غاية سنة 1919، يتحرشون على القوات الفرنسية المحمولة فوق ظهور المهاري والتي كانت تجوب المناطق الصحراوية المحاذية لليبيا ثم انتهى الأمر بالتوارق إلى الخضوع. ولكن السنوسيون صمدوا في وجه القوات الإيطالية في الصحراء الليبية إلى غاية سنة 1931.

نشأة الحركة الوطنية

حصل الإسرائيليون على حقوقهم المدنية منذ عشرات السنين ولكن المسلمين ظلوا محرومين منها مما تسبب في خدش مشاعرهم. والحال أن الوافدين الأسبان والإيطاليين كانوا يحصلون على الجنسية الفرنسية وعلى حق التصويت بمنتهى السهولة بالرغم من أنهم لم يحاربوا في سبيل فرنسا على عكس المسلمين الذين خاضوا كثيرا من المعارك في صفوف الجيش الفرنسي ولم ينالوا شيئا من تلك الحقوق.

بدأ اتجاه سياسي يطالب بمنح الجزائريين المسلمين حقوقهم المدنية وكان على رأس تلك الحركة الشريف بن حبيلس وهو مؤلف كتاب بعنوان " الجزائر الفرنسية" صدر سنة 1914.

كرس حياته كلها للمطالبة بالجنسية الكاملة الحقوق للجزائريين المسلمين وأصبح عضوا في مجلس الشيوخ نائبا عن قسنطينة. لقي حتفه على يد بعض الوطنيين الجزائريين في أواخر حرب الجزائر.[5]

أما أبرز ممثلي هذا الاتجاه السياسي فهما: الصيدلي فرحات عباس، من سطيف، والدكتور بن جلول وهو أيضا من أبناء القطاع القسنطيني.

ظهرت شخصيات أخرى مطالبة بالاستقلال نذكر من بينها العلماء وهم فئة من الفقهاء المسلمين بزعامة ابن باديس من قسنطينة.

كما تأسست حركة أخرى للمطالبة بالاستقلال؛ نشأت بين صفوف العمال الجزائريين المغتربين في فرنسا والمنضوين تحت لواء الحزب الشيوعي. وبرز في صفوفهم مصالي الحاج المزدوج الثقافة بالعربية والفرنسية. ابتعد عن الشيوعيين وتطورت مطالبه باتجاه الوطنية والإسلام؛ ثم أسس، سنة 1937، حزب الشعب الجزائري وحُكم عليه بالسجن.

---

5. انظر Maréchal Juin نفس المصدر السابق.

اقترحت حكومة ليون بلوم (Léon Blum)، الاشتراكية، منح الحقوق المدنية لحوالي 25.000 مسلم جزائري من قدماء المحاربين والموظفين والمنتخبين وحاملي الشهادات الخ...

عارضت فدراليةُ رؤساء البلديات الفرنسيين بالجزائر مشروع بلوم فتخلى هذا الأخير عنه، سنة 1938، وحينئذ غيَّر الكثير من الجزائريين المؤيدين لفكرة المساواة مع الفرنسيين رأيهم فتحولوا إلى مناصرة الاتجاه المطالب بالاستقلال.

ظل عدد آخر من الجزائريين المسلمين على ولائهم لفرنسا.

لعبت كتيبة القناصة الجزائريين، بقيادة الكولونيل جيرو (Giraud)، دورا حاسما في المغرب خلال حرب الريف، في سنتي 1925- 1926، وساهمت إلى حد بعيد في إلحاق الهزيمة بجيش عبد الكريم.

كما أن القناصة الجزائريين حاربوا الدروز في سوريا؛ وحين اندلعت الحرب بين فرنسا وألمانيا، سنة 1939، شاركت فيها أعداد كبيرة من القناصة والسبايس الجزائريين إلى جانب فرنسا. ولقد هاجمت قوات السبايس، على ظهور الخيل وبالسيوف، الدبابات الألمانية في شهر ماي 1940.

ساهمت الحرب العالمية الثانية في تفتح الأذهان بسرعة فائقة. وبعد الهزيمة المنكرة التي تلقتها الجيوش الفرنسية طلب الماريشال بيتان (Pétain) الهدنة في جوان 1940. سحب عن الإسرائيليين الجزائريين حق التصويت ووضع مصالي الحاج رهن الاعتقال وقرر تشكيل ممثلية عن المسلمين في مجلسه الوطني.

في سنة 1941؛ قدم فرحات عباس إلى الماريشال طلبا بإقرار المساواة بين الجزائريين والفرنسيين. اتسمت إجابة بيتان بكثير من اللياقة وحُسن التملص.

حدثت في الجزائر خصاصة وندرة خانقة بسبب موسم سيء المحاصيل؛ ولئن لم تستطع فرنسا تقديم النجدة، بسبب الضغوط الألمانية الخانقة وما انجر عنها من شح الموارد وخطر المجاعة، إلا أنها بذلت جهودا معتبرة لصالح السكان الجزائريين ثم صارت الجزائر ميدانا من ميادين القتال.

في نوفمبر 1942؛ نزلت قوات مشتركة، إنْكليزية أمريكية، بالجزائر والمغرب في حين استولت الجيوش الألمانية والإيطالية على تونس.

حينئذ قررت القوات الفرنسية المتواجدة في شمال إفريقيا، بعد فترة من التردد، استئناف الحرب ضد ألمانيا وإيطاليا. وتمكنت ثلاثة كتائب من الجيش الفرنسي المرابط بقسنطينة من بينها فرقٌ من القناصة الجزائريين تمكنت من صد هجوم ألماني على نواحي تبسة. ولقد قُتل الجنرال فيلفرت (Welwert) الذي كان على رأسها.

ثم صدر أمر بالتعبئة الجماعية لفرنسيي الجزائر لتحرير فرنسا من الاحتلال الألماني. ولقد تم تدعيم تلك القوات من طرف عشرات الآلاف من الجزائريين المسلمين وكان أغلبهم من المجندين المتطوعين وكذا من طرف فيلق يتكون من المغاربة وفيلق من القوات الكولونيالية التي تتألف أساسا من الجنود السنغاليين.

وساهمت عدة فيالق فرنسية، تضم في صفوفها عددا كبيرا من الجزائريين والمغاربة والسنغاليين، في انتصار الحلفاء بتونس حيث بلغ عدد الأسرى الألمان والإيطاليين 300.000 جندي.

أما الجنرال ديغول الذي أعلن، من لندن، عن رفضه الاعتراف بهدنة 1940 فقد تولى رئاسة الحكومة المؤقتة التي اتخذت مدينة الجزائر مقرا لها. وكان تحت تصرفه قوات للتدخل قوامها ثمانية فيالق، من بينها فيلق جزائري، ساهمت سنة 1944 في حملة إيطاليا وفي اختراق خطوط الدفاع الألمانية بدءا من كاريغليانو (Carigliano) إلى نزول قوات الحلفاء على ساحل بروفانس وانتهاء بتحرير مقاطعة ألزاس.

بينما كانت رحى هذه الحرب تدور؛ أصدر فرحات عباس بيانا يطالب بمنح الاستقلال الذاتي للجزائر.

بادر الجنرال ديغول إلى رفع عدد ممثلي الجزائريين في شتى المجالس المحلية ولكن دون ترقيتها إلى أغلبية.

كما تنازل عن الحماية الفرنسية على سوريا ولبنان؛ في حين تخلت بريطانيا العظمى عن حمايتها على مصر. نالت ليبيا استقلالها بعد تحريرها من السيطرة الإيطالية على يد قوات الحلفاء. وطالب كل من باي تونس وسلطان المغرب بإنهاء الحماية الفرنسية وذلك بدعم من الوطنيين في هذين البلدين.

في فاتح ماي 1945؛ نظم حزب الشعب الجزائري مظاهرات في الجزائر ووهران وعنابة أسفرت عن عدد من القتلى والجرحى بسبب الاصطدامات مع الشرطة.

وفي 8 ماي 1945، وهو تاريخ استسلام ألمانيا، انتظمت مظاهرة أخرى جمعت قرابة عشرة آلاف متظاهر من الوطنيين الجزائريين في كل من سطيف وبلاد القبائل.

وعند وقوع مشادة مع الشرطة اضطرت هذه الأخيرة إلى إطلاق النار فأصابت أحد حاملي اللافتات بجروح وقتلت عنصرا من عناصر الكشافة الإسلامية كان يحمل الراية الجزائرية؛ فانتشر المتظاهرون في أرجاء المدينة وقتلوا قرابة ثلاثين أوروبيا من الجنسين بعد اغتصاب كثير منهم ثم ذبحوهم أو بقروا بطونهم أو انتزعوا أعضاءهم التناسلية. اغتال المتظاهرون رئيس البلدية، ذي الاتجاه الاشتراكي، وأصابوا قرابة خمسين أوروبيا بجروح.

هاجمت الآلاف المؤلفة من القبائل عددا كبيرا من المراكز السكنية والمزارع المعزولة في نواحي سطيف وبجاية وجيجل. واتسعت رقعة الشغب إلى غاية مدينة قالمة.

اعتصم السكان الأوروبيون في ضيعاتهم ومزارعهم المحاصرة وراح المسلمون المناصرون للفرنسيين يؤازرونهم ويقاتلون إلى جانبهم.

ارتكب بعض المتمردين مجازر رهيبة وتفننوا في التنكيل ببعض حراس الغابات المسلمين والأوروبيين وعائلاتهم وجميع من وجدوه في المزارع التي اجتاحوها.

قامت إحدى الطرادات وعدد من السفن الحربية الصغيرة بقصف جماعات المتمردين القبائل الذين كانوا يحاصرون المراكز السكنية القريبة من الساحل كما

قصفت القطع البحرية القرى التي كان المهاجمون ينطلقون منها. وقصفت الطائرات المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل.

تمت تعبئة بضعة آلاف من القناصة السنغاليين ومن الزواف والسبايس والقومية المغاربة وما توفر من قوات الدرك والمرتزقة وجُندوا لفك الحصار عن المراكز السكنية التي كانت عرضة للهجوم ثم شرعوا في ملاحقة المشاغبين ومهاجمة القرى التي تراجعوا إليها.

كما تم قصف بعض جماعات المتمردين في جبال البابور ورُشقوا بقذائف المدفعية.

اضطرت بعض جماعات المتمردين إلى تسليم أنفسهم وطلب سكان الدواوير المتمردة الأمان وسلموا أسلحتهم.

فاق عدد القتلى الأوروبيين 100؛ ولقي عدة آلاف من المسلمين الموالين لفرنسا نفس المصير.

أعلنت السلطات الفرنسية عن سقوط 1.500 قتيل في صفوف المتمردين والظاهر أن هذا الرقم يجافي الحقيقة؛ إذ من المرجح أن يكون العدد الحقيقي بضعة آلاف ولكن المؤكد أنه لم يبلغ عدد 40.000 المُعلن عنه من طرف الوطنيين الجزائريين؛ كما ألقت السلطات الفرنسية القبض على آلاف الأشخاص وصدرت بعض الأحكام بالإعدام ثم صدَر العفو العام في شهر مارس 1946.

أسس فرحات عباس حزبا يطالب بالاستقلال الذاتي سماه الاتحاد من أجل الدفاع عن البيان الجزائري ولقي الحزب استجابة في صفوف البرجوازية الحضرية الإسلامية.

وأسس مصالي الحاج، من جهته، حزبا سماه حركة انتصار الحريات الديمقراطية ضم مناضلي حزب الشعب الجزائري الذي كان ينشط في الخفاء حينئذ. ولقد ترسخ هذا الحزب، بصفة خاصة، في صفوف العمال الجزائريين

بفرنسا وضمن الطبقة البروليتارية المسلمة المتواجدة في المناطق الحضرية وكان يعد في صفوفه قرابة 15.000 مناضل.

ولقد تم تنظيم أكثر هؤلاء المناضلين حزما، أقل من الثلث بقليل، في تشكيلة المنظمة الخاصة (OS). يعتبر مصطفى بن بولعيد من أبرز قادة هذه المنظمة وهو من أبناء الأوراس الذين جُنِّدوا في صفوف الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية.

تفيد بطاقتُه الوصفية، كواحد من المطلوبين، أنه من مواليد سنة 1917 في مدينة أريس؛ لون شعره أشقر داكن، طول قامته 1,72م وتظهر على صورته الفوتوغرافية ملامح رجل صعب المراس وحازم. قاد الحركة الوطنية في الأوراس والنمامشة وشمال القطاع القسنطيني.

في ربيع سنة 1947؛ انتقل كريم بلقاسم، وهو من المناضلين الشباب في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية، إلى النشاط السياسي في كنف السرية بمنطقة القبائل بناحية ذراع الميزان. كانت بحوزته رشاشة. أشرف على تجنيد الأنصار وقتل أحد حراس الغابة القبائليين. كان، لعدة سنوات، ضمن قائمة المطلوبين من طرف رجال الدرك الفرنسيين ولم يقع بين أيديهم وتمكن من تشكيل فرقة تتكون من عشرات المسلحين.

في سبتمبر 1947؛ أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية قانونا خاصا بالجزائر. وتم تشكيل هيئتين انتخابيتين؛ تضم الهيئة الانتخابية الأولى المنتخبين الفرنسيين ذوي الأصل الأوروبي ومعهم قرابة 60.000 مسلم من قدماء المحاربين وحاملي الشهادات والمنتَخبين الخ... وتضم الهيئة الانتخابية الثانية بقية الجزائريين. تتولى كل هيئة انتخابية، على حدة، انتخاب نصف عدد نواب الجمعية الجزائرية.

بما أن عدد الجزائريين المسلمين يفوق عدد الأوروبيين سبع مرات فإن نسبة تمثيل المسلمين كانت مجحفة للغاية.

ومن جهة أخرى بذلت الإدارة الفرنسية وُسعها لمنع انتخاب نواب من فئة الوطنيين. وبمناسبة انتخابات أفريل 1948 سُجن عدد كبير من مرشحي حركة انتصار الحريات الديمقراطية، حزب مصالي، ومارست المصالح الإدارية ضغوطا جمة على المنتخبين.

ومن جهتها بادرت المنظمة الخاصة، التابعة لمصالي، إلى اغتيال عدد من المسلمين المتعاطفين مع الفرنسيين.

في سنة 1949؛ تولى آيت أحمد قيادة المنظمة الخاصة وهو شاب قبائلي.

أما المنظمة الخاصة بوهران فكانت تحت قيادة بن بلة، أحد العرب الجزائريين، عمل سابقا في الجيش الفرنسي برتبة مساعد أول؛ ويبدو حسب أقوال إيف كوريير (Yves Courrière) أنه طلب، سنة 1947، الانخراط في صفوف الشرطة الفرنسية بغرض الالتحاق بعد ذلك بهيئة حراس الغابات وبما أن طلبه لم يحظ بالموافقة انضم إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية. كان يوجد نوع من التنافس بين العرب والبربر في صفوف الحركة الوطنية ولقد أُزيح آيت أحمد لإحلال بن بلة محله على رأس المنظمة الخاصة. ولتوفير الأموال الضرورية اقتحم الرجلان دار البريد بوهران.

في ربيع سنة 1950؛ أزاحت المنظمة الخاصة المتمركزة في تبسة واحدا من أعضائها بسبب انتقاداته ضدها؛ فخرج من الصفوف وطلب الحماية من طرف الشرطة الفرنسية مما مكنها من تفكيك المنظمة الخاصة في تبسة ثم تعرَّفت بفضل الوثائق التي وقعت بين أيديها، على جزء من المناضلين في صفوف المنظمة الخاصة عبر أنحاء الجزائر وألقت القبض على قرابة 300 منهم ومن بينهم بن بلة ومهساس.

التجأ كل من خيضر وآيت أحمد، وهما نائبان عن حركة انتصار الديمقراطية، إلى مصر؛ ودخل نواب آخرون إلى العمل في كنف السرية وغادر البعض الآخر إلى فرنسا حيث اختلطوا بصفوف العمال الجزائريين هناك.

في سنة 1952 : فرَّ بن بلة من السجن والتحق بكل من خيضر وآيت أحمد بالقاهرة ثم حذا مهساس حذوهما.

في تلك الأثناء كانت فرنسا متورطة في حرب عصيبة ضد الشيوعيين في منطقة الهند الصينية؛ وكانت تجابه، في الوقت نفسه، قلاقل جمة في كل من تونس والمغرب؛ فاستعانت، سنة 1953، بالقبائل البربرية المغربية لخلع السلطان المغربي وتولية أحد أبناء عمومته.

على الصعيد الخارجي كان الكولونيل ناصر قد استولى على الحكم في مصر ولقد قدَّم، بصفته قوميا ملتزما، كثيرا من الدعم للوطنيين في شمال إفريقيا.

الفصل الثاني

أولى انتصارات المتمردين

1 . الإعداد لتمرد سنة 1954 في الأوراس والنمامشة وبقية أرجاء الجزائر

بذل ابن الأوراس، بن بولعيد، مساعي حثيثة لإعادة بناء المنظمة الخاصة وربط الاتصال من جديد، في ربيع 1954، مع قدماء المناضلين في صفوف هذه المنظمة: بوضياف، ديدوش، بيطاط وبن مهيدي.

ومن جهته بادر كريم رفقة مساعده أوعمران، وهو رقيب قبائلي فارٌّ من صفوف الجيش الفرنسي، إلى الانخراط في صفوف الجماعة وكذلك فعل كل من خيضر وبن بلة وآيت أحمد الذين سبق أن تغرَّبوا إلى مصر.

أسس هؤلاء منظمة تُدعى اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) وهي التي ستُعرف فيما بعد باسم جبهة التحرير الوطني. قسَّموا مساحة التراب الجزائري إلى ست مناطق سوف يُطلق عليها فيما بعد اسم الولايات وهي: الولاية الأوليصوتشمل الأوراس والنمامشة (بقيادة بن بولعيد)؛ الولاية الثانية في الشمال القسنطيني (بقيادة ديدوش)؛ الولاية الثالثة في منطقة القبائل (بقيادة كريم)؛ الولاية الرابعة في الجزائر الوسطى (بقيادة بيطاط)؛ الولاية الخامسة في القطاع الوهراني (بقيادة بن مهيدي)؛ الولاية السادسة وتشمل الصحراء.

ثم عمدوا إلى تأسيس مراكز لتخزين السلاح وتشكيل الفرق الثورية. وكان يتوفر لدى كريم بلقاسم ما يقارب 300 من الأنصار المسلحين في منطقة القبائل وكان، منذ سبع سنوات، لا يفتأ يتنقل بين المعاقل الجبلية.

توفرت لدى بن بولعيد بعض الأسلحة الألمانية والإيطالية التي لم يسترجعها الحلفاء بعد انتهاء المعارك في كل من ليبيا وتونس خلال سنتي 1942 و1943. كانت تلك الأسلحة تشمل بضع عشرات البنادق من نوع موزر (Mauser) وبعض البنادق الخفيفة من نوع ستاتي (Statti) فضلا عن عدد كبير من بنادق الصيد وبعض المكاحل الفرنسية القديمة الصنع والرشاشات من نوع ستيرن (Stern).

وكان بضعة عشرات من المناضلين المطلوبين من طرف الشرطة قد اتخذوا جبال الأوراس والنمامشة ملجأ اختبئوا فيه وكان أغلبهم مسلحين. ربط بن بولعيد الصلة مع غرين وهو رئيسُهم ذو المكانة المرموقة فانضم إلى صفه.

في تلك الأثناء كانت الأوضاع الدولية في تطور مستمر؛ ففي هذا الإطار دخلت فرقٌ من الوطنيين التونسيين في مجابهة ضد القوات الفرنسية. وفي منطقة الهند الصينية وقعت معركة حاسمة في ديان بيان فو سحق فيها الجيش الشيوعي الفيتنامي حامية فرنسية قوامها 15.000 رجل سقط منهم ما يربو عن 10.000 ضحية بين قتيل وأسير. وكان ضمن تلك الحامية الفرنسية ثلاثة كتائب من القناصة الجزائريين قاتلت ببسالة في معركة ديان بيان فو.

وفي شهر جوان 1954؛ بادر النائب الاشتراكي الراديكالي، منديس فرانس (Mendes France) إلى تشكيل حكومة يسارية تفاوضت مع الشيوعيين الفيتناميين في شهر جويلية فتحصل هؤلاء على الاعتراف بسلطتهم على النصف الشمالي من فيتنام مقابل إبرام سلام هش وغير مأمون العواقب.

وفي شهر أوت 1954؛ اندلعت أعمال شغب في عدد من المدن المغربية لمناصرة السلطان محمد الخامس الذي أبعده الفرنسيون في وقت سابق.

أما القوات الفرنسية المرابطة في الهند الصينية، والتي تكبدت خسائر فادحة، فلم يتم إجلاؤها إلا بصورة تدريجية استغرقت أكثر من سنة لأنها كانت ملزمة بحفظ النظام وبتطبيق الشروط المتعلقة بالهدنة والسلم.

بينما كانت بعض الفرق العسكرية الفرنسية ترابط في تونس والمغرب كان بعضُها الآخر يشارك في عمليات احتلال ألمانيا.

هذا يعني أن الجزائر خلت تقريبا من القوات العسكرية ولم يبق فيها سوى بعض وحدات التدريب وبعض مخازن الأسلحة والمصالح العسكرية وقليل جدا من الفرق القتالية. وبما أن فرنسا كانت مضطرة أيضا إلى إبقاء بعض قواتها في مدغشقر وبقية مستعمراتها بإفريقيا السوداء فإنها لم تكن تملك أي احتياطي جاهز للتدخل في الجزائر.

صارت الوضعية العسكرية في الجزائر مواتية لقيام حركة عصيان بالرغم من الضعف العددي للوطنيين الجزائريين.

قررت اللجنة الثورية للوحدة والعمل القيام بعملية منسقة واسعة النطاق تشمل جميع أرجاء القطر في يوم أول نوفمبر 1954. ولم يكن في الإمكان أن تتجاوز تلك العمليات مجرد عمليات فدائية معزولة في نواحي الجزائر وفي القطاع الوهراني وبعض التحرشات في منطقة القبائل حيث كان لدى كريم بلقاسم بعض الفرق المسلحة وعددا من العمليات العسكرية الأكثر جسامة في منطقتي الأوراس والنمامشة حيث كان بن بولعيد يملك وسائل أكثر بكثير.

استعد بن بولعيد لهذه العمليات طيلة فصل الخريف. وكان من بين مساعديه المدعو شيباني بشير (هكذا ورد اسمه في بطاقات الاستعلام التي بحوزتنا آنذاك ثم ورد اسمه بلفظة شيهاني في كثير من المؤلفات التي صدرت بعد ذلك) وكان مأموره المكلف بمنطقة الأوراس يدعى عجول عجول (هكذا ورد اسمه في بطاقات الاستعلام التي كانت بحوزتنا آنذاك ثم ورد اسمه بلفظة عاجل عجول في المؤلفات الصادرة فيما بعد) أما مأمور بن بولعيد على منطقة النمامشة فيدعى لغرور عباس.

يُستفاد من هذه البطاقات، وبعضها يتضمن أخطاء، أن عجول عجول كان برتبة مساعد في الجيش الفرنسي أما لغرور عباس فموظف سابق في خنشلة. قاما بتعداد الرجال القادرين على المشاركة في العمليات الفدائية المزمع تنفيذها في خنشلة وغيرها من المراكز السكنية العديدة في الأوراس.

كما قاما بمعاينة المواقع التي يمكن للفرق المسلحة الانسحاب إليها وهي أماكن حصينة يصعب الدخول إليها بقدر ما يسهل الدفاع عنها وتتوفر فيها الكهوف وينابيع المياه.

ثم نصبوا وكلاء سياسيين وجباة ضرائب في عدد من الدواوير؛ وتتمثل مهمة هؤلاء في تبليغ أوامر القادة إلى السكان المعنيين بالأمر وجمع الضرائب وتوفير المئونة وترصد الأخبار والمعلومات وحشد مزيد من المقاتلين عند الاقتضاء.

لم يكن جميع هؤلاء المسئولين من أنصار الحركة الوطنية بل كان يتم تعيينُهم، في بعض الأحيان، بقرار مباشر من طرف القادة مع تهديدهم بالذبح إذا ما رفضوا الامتثال للأوامر. ولكي يتمكن الوطنيون من ترهيب معارضيهم بادروا إلى اغتيال بعض حراس الغابات وبعض قدماء المحاربين الفرنسيين وزرعوا الرعب في صفوف السكان وكثير من القُياد. هكذا فرضوا سيطرتهم على جزء من منطقتي الأوراس والنمامشة من غير إثارة انتباه السلطات الفرنسية التي كانت وسائل تدخلها محدودة جدا.

انتصر الوطنيون في الجولة الأولى قبيل اندلاع التمرد المسلح وذلك بفضل انضواء جزء من السكان تحت لواءهم وبفضل عمليات الترهيب والتخويف المسلطة على الجزء الباقي. إن هذه السيطرة على الميدان مستلهمة من تقنيات حرب العصابات التي برهنت على فعاليتها على أيدي الشيوعيين في الهند الصينية.

كان لغرور عباس يلتجئ إلى عدد كبير من المخابئ وخصوصا منها الواقعة في منخفض بويقظان بين الأوراس وواد بيدغر وكذلك في الكهوف والمنحدرات الصخرية بالقرب من العامرة الواقعة في واد بيدغر ومدرجات منطقة الجديدة الواقعة جنوبي فنطيس كما استغل هذه المعاقل لتخزين المؤن والعتاد.

أشرف بن بولعيد وعجول عجول على اختيار موقع منيع جدا في جنوب شرق الأوراس وعلى مقربة من جبال النمامشة يسمى غابة بني ملول. كان في استطاعتهما الانطلاق من ذلك الموقع المنيع للإشراف على تنسيق العمليات في الكتلتين الجبليتين وتمرير الفرق المسلحة والأسلحة من منطقة إلى أخرى بسهولة ويسر.

2. الوضعية في سنة 1954

نذكر القارئ بأن الجزائر كانت، في سنة 1954، تعد قرابة عشرة ملايين نسمة من بينهم 8.700.000 من المسلمين ومن ضمن هؤلاء قرابة 2.300.000 نسمة ما زالوا يتحدثون باللغة البربرية حتى ذلك العهد وتتركز أغلبيتهم في القطاع القسنطيني (القبائل والأوراس والنمامشة) وكذلك 1.200.000 من الأوروبيين وأغلبهم من الحضر.

كانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث مقاطعات إدارية هي: عمالة الجزائر ووهران وقسنطينة. تبلغ مساحة كل عمالة من هذه ما يساوي مساحة 12 عمالة في فرنسا وتتقسم كل عمالة إلى عدد من نيابات العمالة، أو الدوائر الإدارية، تساوي مساحة كل منها مجموع مساحة ثلاثة وأربعة عمالات فرنسية.

كانت الأغلبية الساحقة من المسلمين تعيش في الأرياف وتقطن في عشرات من البلديات المختلطة تبلغ مساحة بعضها مساحة عمالة فرنسية بأكملها.

كانت منطقة الأوراس والنمامشة تابعة لنيابة عمالة باتنة؛ وكانت مساحة البلدية المختلطة في أريس تغطي معظم مساحة الأوراس وكان عدد سكانها قرابة 100.000 نسمة.

أما معظم أجزاء النمامشة فتابعة لبلدية خنشلة المختلطة التي يقطنها قرابة 70.000 نسمة؛ في حين كانت السفوح الشرقية من المنطقة الجبلية تابعة لبلدية تبسة المحاذية للحدود التونسية. وكانت البلدية المختلطة تُسيَّر من طرف حاكم إداري بمساعدة عدد من الموظفين.

كانت القوات المسلحة الفرنسية المتواجدة بالجزائر تتألف من جيش موزع على ثلاث فرق كبرى في الجزائر ووهران وقسنطينة وتتألف كل فرقة من أقسام فرعية في كل نيابة عمالة. ولم تكن فرقة قسنطينة تتوفر على قوات قتالية جاهزة. ولقد قدمت إليها من فرنسا بعض فرق القناصة الألبيين وبعض الفرق المكلفة بحفظ الأمن وكانت تتوفر على بعض المدرعات الخفيفة وعدد من القناصة الأفارقة وجنود المدفعية وكتيبة من المظليين.

كانت المنطقة الفرعية التابعة لدائرة باتنة تحت إمرة قائد برتبة كولونيل. وكانت حامية باتنة تتوفر على عدد قليل من القناصة الأفارقة وجنود المدفعية ورجال الدرك.

أما مدينة خنشلة الواقعة شمال غرب جبال النمامشة فكانت تعد بضع عشرات الآلاف من السكان أغلبهم من المسلمين. ويبدو حسب رواية إيف كوريير، في كتابه "حرب الجزائر"، أن زوجة الحاكم الإداري، فيفي دي ريجيس (Vivie de Régis) كانت تجري في عروقها دماء شاوية أوراسية؛ وكانت زوجة شيخ البلدية المسلم بن شنوف فرنسية أصلها من مقاطعة ألزاس مع العلم بأن هذا الأخير كان من كبار الضباط في جوقة الشرف وكان نائبا منتميا إلى حزب ذي توجه ديمقراطي مسيحي بزعامة جورج بيدو (Georges Bidault).

كانت بلدية باتنة المختلطة، التي تساوي مساحتها مساحة عمالة فرنسية، تشمل عددا من الدواوير المنتشرة على مساحة تساوي مساحة نيابة عمالة فرنسية. وكان كل دوار تحت إمرة قايد يساعده سكرتير وحارس غابات مكلف بحفظ النظام. وكانت القرى والمشاتي التابعة للدواوير مسيَّرة من طرف وقاف.

شيد مقر للدرك في عمق منخفض صخري بمنطقة تابِردقة في قلب جبال النمامشة كانت تأوي بعض رجال الدرك المتنقلين على ظهور الخيل.

كان عدد المدارس ضئيلا في المنطقتين الجبليتين أبرزها مدرسة بابار في جنوب خنشلة ومدرسة الولجة في وادي العرب ومدرسة تابِردقة. وكان في زاوية الواقعة في وادي بيدغر مزرعة نموذجية.

•

لم تكن جبال النمامشة خارج السيطرة العسكرية فحسب بل تكاد المصالح الإدارية تكون منعدمة فيها مثل ما هو الحال في بقية أنحاء الجزائر.

كان سبعة أو ثمانية من رجال الدرك المقيمين في تابردقة يشرفون على مساحة شاسعة تكاد تساوي مساحة عمالة فرنسية. ففي كل عمالة فرنسية توجد حوالي 40 مقاطعة أي 40 مرة سبعة أو ثمانية من رجال الدرك بالإضافة إلى عناصر الدرك المقيمة في مقر العمالة أي ما مجموعه قرابة 400 دركي في كل عمالة فرنسية بدل 8 في جبال النمامشة؛ وبالتالي فإن نسبة رجال الدرك في النمامشة أقل 50 مرة من نسبة الدرك في العمالات الفرنسية.

تقع مهمة حفظ النظام، في كل دوار، على كاهل حارس غابة مسلم يتوفر على بندقية صيد في حين أن بفرنسا توجد فرقة تضم عددا من رجال الدرك يتوفرون على أسلحة كافية. كان هؤلاء المستخدمون المسلمون الذين يمثلون القوات المدنية يعيشون في عزلة تامة فلم يكن في مستطاعهم مجابهة عدد من الخارجين عن القانون الأحسن تسليحا منهم وبالتالي فلقد كان من اليسير تحييدهم بمجرد أن نصب الوطنيون بعض الفرق المسلحة في الأوراس والنمامشة.

كانت لدى سكان النمامشة، كغيرهم من سكان بقية المناطق الجزائرية، دوافع عميقة للتذمر والسخط بعضُها سيكولوجي وبعضها اجتماعي واقتصادي وتعليمي وإداري.

كانت أقلية قليلة من النمامشيين، وخصوصا منهم قدماء المحاربين، يحوزون حق التصويت ضمن الهيئة الانتخابية الأولى مع الأوروبيين. أما باقي السكان فكانوا يشعرون بأنهم مواطنين من الدرجة الثانية ذلك أنه بالرغم من كونهم يمثلون سبعة أضعاف عدد الأوروبيين إلا أنهم لم يكونوا مخولين لانتخاب عدد من النواب أكبر من هؤلاء.

هذا الشعور بالإحباط كان قويا لدى السكان المسلمين في مدينة خنشلة على وجه الخصوص. أما في المنطقة الجبلية فإن مسألة التصويت والانتخابات كانت

من الاهتمامات الثانوية لدى النمامشيين بل كان جل اهتمامهم ينصب على المسائل الإدارية.

كما أن نقص المدارس في المناطق الجبلية كان عائقا دون التطور والرقي الاجتماعي لمعظم أطفال المسلمين وكانت بعض العائلات واعية بهذه القضية. في حين لم تكن الكثير من العائلات تولي لمسألة التعليم أهمية كبرى لأنها كانت تُنشئ أطفالها ليكون لهم مصيرٌ مشابه لمصيرها؛ أي أنها كانت تُعدهم لممارسة الرعي والزراعة وبالتالي فإن مسألة التعليم لم تكن قضية ضرورية في نظر الكثير منهم.

كانت المشاكل الاقتصادية والاجتماعية تلعب دورا هاما. ولقد أصبح قسم من سكان خنشلة، وخاصة منهم فئة التجار، يعيش حياة ميسورة نسبيا وكان جزءٌ من هذه الطبقة البرجوازية يعيش وفق نمط الحياة الغربية إلى حد ما.

كان بعض المسلمين الذين تبنوا نمط المعيشة الغربي يطمحون ليصبحوا فرنسيين طمعا في العديد من المزايا المرتبطة بذلك التحول سواء من حيث الحماية الاجتماعية أو التعليم أو التشغيل أو رغد الحياة الخ... في حين كان السكان الآخرون يرون أن مصلحتهم الموضوعية مرتبطة بذهاب الفرنسيين لأن مستواهم التعليمي يتيح لهم أن يصيروا إطارات في دواليب الدولة المستقلة مع كل يرتبط بذلك من رواتب ضخمة وامتيازات عديدة.

كانت نسبة هامة من سكان خنشلة تعيش في فقر مدقع وتعاني من البطالة المزمنة؛ وكان بعض هؤلاء السكان يعتقدون أن ذهاب الفرنسيين سوف يفتح لهم الباب للاستفادة مما يتركونه وراءهم من تراث زراعي وتجاري وعقاري؛ في حين كان البعض الآخر يخشون أن يصيروا أكثر فقرا وأقل أمنا في أحضان الجزائر المستقلة.

كان معظم سكان البوادي فقراء وكان الكثير منهم يتنقلون بحثا عن المراعي والمنتجعات: فبعد جني محاصيل الحبوب في فصل الصيف يخزنون جزءا منها في أهراء ويحملون الباقي على ظهور الجمال لبيعه في المناطق الصحراوية.

أمطار الخريف مفيدة جدا فهي تجدد مخزون المياه وتتسبب في فيضان الوديان وفي نمو قليل من الأعشاب الهزيلة على التخوم الصحراوية.

كان الكثير من النمامشيين يقضون فصل الشتاء في تلك الربوع ثم يعودون، إلى منطقة النمامشة، في فصل الربيع حين يبدأ فصل الجفاف فيشتغلون بالحرث والبذر.

كانت حياة التنقل والترحال تمثل منظرا مثيرا للاستغراب؛ حين ينطلق آلاف الشاوية وراء قوافل الجمال عابرين الفيافي والقفار متوجهين إلى الجنوب في الخريف وعائدين إلى الشمال في فصل الربيع.

لم تكن هذه الفئة السكانية تشغل بالها بالجدال السياسي التجريدي بل تنصب اهتماماتها المتوارثة أبا عن جد حول أماكن التخييم والبحث عن أحسن المراعي؛ وكان جل همها أن تنعم بظروف السلم والأمان التي توفرت بفضل التواجد الفرنسي؛ وكانت تعتبر القضاء على قُطَّاع الطرق واللصوص والمجاعات والأوبئة بمثابة تطور ملموس.

كان عدد الأطباء قليلا. وكان السكان يتولون علاج أنفسهم بالطرق التقليدية المتوارثة؛ ما عدا قلة من المرضى الذين يتوجهون إلى خنشلة طلبا للعلاج؛ وكان أطباء الجيش يعالجون الناس مجانا، حيثما وُجدوا، غير أن التواجد العسكري الفرنسي بالجزائر كان ضعيفا وكان متمركزا في المدن بصفة خاصة.

بادرت الإدارة الفرنسية إلى تهيئة خزانات المياه وشق بعض المسالك الريفية لفائدة سكان المنطقة. وكان بعض المعلمين المتنقلين يرحلون ويحلون مع مخيمات البدو.

كان المستخدمون في هذه المصالح الإدارية كالموظفين وحراس الغابات والقُياد والخفير وغيرهم يعتقدون أن من مصلحتهم بقاء الإدارة الفرنسية وكان بعضهم يتمنون الحصول على ترقيات في صفوف الإدارة الوطنية في حالة استقلال الجزائر.

وكان قدماء المحاربين مترددين بين هؤلاء وأولئك فكثيرٌ منهم زار فرنسا وكان يعتقد أن من مصلحة الجزائريين الانتماء إلى الأمة الفرنسية ذات الإمكانيات الاقتصادية الوفيرة.

كانوا يتهيبون من صعوبة استلام المعاشات التي تصرفها لهم فرنسا وهم مقيمون في الجزائر المستقلة؛ وثمة تيار آخر كان يعيب على فرنسا عدم مكافئتهم بما فيه الكفاية عن التضحيات التي قدموها كجنود جزائريين في سبيلها وكان هؤلاء يعتقدون أنهم سيلعبون أدوارا أكثر أهمية في الجزائر المستقلة.

وكانت فئة من المسلمين التواقة إلى نوع من الحياة اللآئيكية منقسمة على نفسها: ففريقٌ يخشى سقوط الجزائر المستقلة فريسة للأصولية الإسلاموية إذا ما رفضت الارتباط مع فرنسا؛ وفريق مقرَّب من الأصوليين التقليديين كان يتمنى رحيل الفرنسيين. ولكن الكثير يتمنون البقاء فرنسيين دون أن يولِّد ذلك في نفوسهم إحساسا بالردة عن عقيدتهم الدينية.

هكذا كانت مشاعر السكان المسلمين معقدة وملتبسة.

كان سكان خنشلة أكثر حساسية تجاه المشاكل السياسية والاجتماعية.

أما سكان المنطقة الجبلية، وهم الأكثر عددا، فكانت حساسيتهم أكبر تجاه المسائل ذات الصبغة الإدارية.

كان المسيرون الإداريون يتحملون مسئولية الإشراف على مناطق شاسعة جدا ومأهولة بالسكان وكان بحوزتهم عدد محدود من المستخدمين. ولم يفتأ عدد السكان في تزايد مستمر بسبب ارتفاع نسبة الولادات في صفوف المسلمين؛ وبالتالي كانت الصعوبات تزداد جسامة.

وأخذ حضور المسيرين الإداريين يتناقص شيئا فشيئا في الدواوير ولم يعودوا يتحكمون في تصرفات القُياد وشططهم فغدوا منفصلين عن الحياة اليومية للسكان.

القُياد فئة من الموظفين لدى السلطة وليسوا مُنتَخبين من طرف السكان فكان هؤلاء يعتبرونهم، في بعض الأحيان، غرباء عنهم.

ظلت وشائج القرابة بين الأُسر والعشائر والقبائل متينة جدا ولم يكن الشعور بالانتماء إلى الوطن الجزائري ماثلا في الأذهان إلا عند الأقلية المثقفة. كان معظم النمامشيين يشعرون أنهم بربر على نقيض العرب ولكن العصبية البربرية لم تكن مستحكمة فيهم. فلم يكونوا يعتبرون الجنود البربر المغاربة ولا سكان بلاد القبائل من أبناء العمومة ولا حتى جيرانهم الأوراسيين ولا حتى القبيلة المجاورة أحيانا وقد ترجع النزاعات القبلية بين الدواوير إلى عهود طويلة.

كان بعض القُياد ذوي كفاءة جيدة وخصوصا منهم أولئك الذين سبق أن عملوا في صفوف الجيش الفرنسي برتبة ضباط أو ضباط صف. أما القياد الآخرون فكانوا يتعسفون في استغلال سلطتهم وسلطة حراس الغابات؛ وكانوا يقبضون إكراميات مقابل تسليم بعض الوثائق الإدارية المجانية أصلا؛ ويحدث أيضا أن يفرض بعض القياد إتاوات على السكان مقابل استسقائهم من العيون التي حفرتها الإدارة الفرنسية وعلى الرعاة الذين يوردون مواشيهم في المشرعة التي شيدتها فرنسا من أجلهم ليستغلوها مجانا.

حُكي لي أن بعض القياد قام بجباية الضريبة مرتين، خلال سنة 1942، واحتفظ لنفسه بالفائض من الأموال.

كان النمامشيون يضطرون للتنقل إلى غاية بلدية خنشلة المختلطة لتسوية بعض قضاياهم الإدارية أو الضريبية فيقطعون مسافة 150 كلم ذهابا وإيابا.

لم يكن بعض المتذمرين والساخطين على الإدارة الفرنسية يؤيدون استقلال الجزائر مخافة من أن تزداد أوضاعهم سوءا وتكبر معاناتهم في الجزائر المستقلة.

كانت منطقة النمامشة موالية في مجملها للوطنيين الجزائريين. وكان هؤلاء يسيطرون على بضعة دواوير تقع في جنوب المنطقة الجبلية، بصفة خاصة، أي

حيث تمكنت فرقهم المسلحة الصغيرة من القضاء على القياد وحراس الغابات وقدماء المحاربين المتعاطفين مع فرنسا وأحلوا محلهم مسئولين سياسيين مكلفين بجباية الضرائب.

لم يكن السكان الخاضعون لهذه الإدارة الوطنية راضين حتما بهذه الوضعية التي تُقدم لهم على أنها تحريرٌ من رق الاستعمار بل كانوا يعتبرونها هيئة إدارية أكثر تسلطا وجبروتا من الإدارة الفرنسية نفسها.

ثمة أقلية من السكان الذين يناصرون مطلب الاستقلال وأقلية أخرى ممن يطمحون إلى الحصول على صفة المواطنة الفرنسية التامة والكاملة؛ وبين هؤلاء وهؤلاء توجد أغلبية محتارة بين الخيارين.

لو أن سكان جزيرة كورسيكا أو إقليم بريتاني أو بلاد الباسك وُضعوا في مثل هذه الوضعية لكانت لهم ردود أفعال مماثلة؛ ولذهب الكثير منهم إلى القول، مثل الجزائريين، بأن للاستقلال محاسنُ لا تُنكر غير أن الانتماء لفرنسا له امتيازاته أيضا؛ ولا جدال في أن للديمقراطية الفرنسية بعض المساوئ ولكن من يدري فقد تكون قبضة الوطنيين أنكى وأشد. تلك هي علة تردد الكثير من المسلمين في الوقوف إلى جانب طرف معين ولقد غيَّر بعضُهم معسكره عدة مرات خلال فترة النزاع المسلح. وهكذا هي طبيعة الأمور؛ ففي جميع الأزمات لا يكون أي طرف من الأطراف محقا تماما على حساب الطرف الآخر وهذا ما يطرح مسألة الخيارات الصعبة.

كل أقلية تعتقد أنها على صواب وأن غيرها مخطئ تماما وذلك ما يريح ضمائر أفرادها غير أن الغالبية العظمى تتخذ موقفا فيه كثيرا من الالتباس. وفي بعض الأحيان تكون الخيارات بحسب الموقع الذي يوجد في المعنيون بالأمر أو الوظائف التي يشغلونها. فمثلا عندما اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية فإن بعض الجنرالات الذين كان يُعتقد أنهم من أنصار النظام الجمهوري اختاروا الانحياز إلى صف الجنرال فرانكو في حين أن جنرالات آخرين لديهم قناعات أقرب إلى أفكار الجنرال فرانكو ظلوا أوفياء للحكومة الجمهورية.

خلال الأسابيع التي سبقت اندلاع حركة التمرد في الجزائر لم تكن الدعاية الوطنية تعتمد على بث المفاهيم الإيديولوجية في منطقة الأوراس والنمامشة ولا شك أن الأمر كان كذلك في المناطق الأخرى. بل كانت دعاية الوطنيين تروج فكرة مفادها أن الجيش الفرنسي قد دُمِّر تماما في منطقة الهند الصينية وبذلك يفسرون خلو الأرياف الجزائرية من الجنود الفرنسيين وكانوا يروجون أن مسئولية حفظ النظام أصبحت على عاتق حراس الغابات لا غير وهم أفراد قليلو العدد ومعزولون ولا يحملون سوى بنادق صيد. ثم أضافت الدعاية الوطنية قولها إن الجيش المصري العتيد، والمدعم من طرف الاتحاد السوفيتي، سوف يحل بالجزائر عما قريب وأن المستوطنين الفرنسيين سوف يُطردون وأن أملاكهم سوف تُوزَّع بين الجزائريين الموالين للمتمردين.

بعد ذلك بفترة وجيزة صرَّح أحد الشاوية بسذاجة، تاركا العنان لسليقته التي ورثها عن أسلافه، قائلا: " لا يُعقل أن نترك هذه الفرصة تفلت من أيدينا".

بما أن السلطات الفرنسية ضيَّعت كل اتصال مع السكان فإنها لم تكن تحصل إلا على النزر اليسير من المعلومات. كان عدد المتمردين قليلا وكانت فرقهم معزولة عن بعضها ولم يتمكن المُخبرون المتعاونون مع الشرطة من اختراق صفوفهم. وفي منطقة الأوراس والنمامشة، حيث فرض المتمردون سيطرتهم قبل أول نوفمبر 1954، لم يجرؤ أحد على التبليغ عنهم حتى من قِبل معارضيهم.

لا شك في أن بعض القياد وحراس الغابات والمسلمين الموالين لفرنسا القاطنين في الدواوير المجاورة كانت تساورهم بعض الشكوك ولكنهم لم يكونوا يرغبون في إثارة المتاعب لأنفسهم مع فرق المتمردين المسلحين فالتزموا جانب الحذر ولاذوا بالصمت.

لم يكن الكثير من الناس على علم بشيء مما يُدبر في الخفاء.

ذلك الصمت المطبق الذي التجأ إليه الناس هو الذي أوهم السلطات الفرنسية بأن معظم الشاوية يناصرون المتمردين.

وبعد اندلاع حركة التمرد تضامن معها البعض وفضّل آخرون التزام موقف الترقب والحذر.

بيد أنه لم تقم انتفاضة شعبية شبيهة بتلك التي عاشتها منطقة القبائل سنة 1871 ولا بتلك التي عاشتها منطقة سطيف سنة 1945. بل وقعت عمليات تميزت بحزم شديد من طرف المتمردين الذين أحكموا قبضتهم على جزء كبير من السكان قبل الشروع في عملياتهم العسكرية ثم وسعوا رقعة نفوذهم وعززوا سلطتهم ثم وجدوا بعض المساندة والدعم من لدن قسم من السكان ولكنهم اصطدموا أيضا بعدم المبالاة أو بمعارضة قسم آخر.

بالرغم من نقص الموظفين ورجال الدرك وغياب الجيش فإن بعض المعلومات توفرت لدى السلطات الفرنسية قبيل أول نوفمبر 1954 نذكر من بينها المعلومات الواردة من بسكرة.

اتُخذت بعض الاحتياطات العسكرية، في حدود الوسائل المتاحة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن معلومات منذرة بالخطر كانت قد توفرت في وقت سابق ولكن تبيَّن أنها غير صحيحة.

أُرسلت فصيلة من جنود السبايس إلى خنشلة. وتعرض ثلاثة من رجال الدرك لهجوم مباغت من طرف المتمردين قرب ڨنطيس ولكنهم تمكنوا من فك الحصار.

3. حركة التمرد في نوفمبر 1954

تطبيقا لتعليمات اللجنة الثورية للوحدة والعمل؛ بدأ قادة المناطق المتمردة الخمسة (منطقة الصحراء التي ستصبح الولاية السادسة لم تتأسس بعد) في العمل المسلح في ليلة 31 أكتوبر إلى أول نوفمبر 1954 ولقد اندلعت العمليات بصفة عامة على الساعة الواحدة صباحا.

كان بمعية كل قائد منطقة بضع عشرات من المناضلين المسلحين جزئيا.

في القطاع الوهراني اكتفى بن مهيدي بالهجوم على مزرعتين شرقي مستغانم ولكن الهجوم لم يسفر عن نتيجة كما أمر بإطلاق النار على مقر رجال الدرك فقُتل مُزارع أوروبي كان متواجدا أمام مقر الدرك.

سارعت قوات الشرطة والدرك إلى نصب حواجز على الطرقات فقُتل ثمانية متمردين حين حاولوا اختراق تلك الحواجز عنوة. وفي غضون بضعة أيام تمكنت الشرطة من التعرف على هوية قرابة أربعين من الوطنيين الذين شاركوا في هذا التمرد وألقت القبض عليهم. لم يهتم السكان العرب بالمتمردين بل ساهموا في إلقاء القبض على البعض منهم تضامنا مع السلطات الفرنسية.

تغرب بن مهيدي إلى مصر ثم رجع إلى الجزائر حيث أُلقي عليه القبض في مطلع سنة 1957 من طرف المظليين الفرنسيين وانتحر في السجن حسب الرواية الرسمية.

أشرف نائبُه بوصوف على إعادة تشكيل شبكة الوطنيين في القطاع الوهراني بمساعدة طالبٍ اسمه بومدين وهو من العرب المتشبعين بالإسلام.

وفي مدينة الجزائر شقَّت طائفة من المناضلين الوطنيين عصا الطاعة فأرسل كريم، المقيم في منطقة القبائل، نائبه أوعمران وبعض المناضلين القبائل لتعويض المنشقين.

تسببت بعض القنابل في قليل من الخسائر في مدينة الجزائر: وأُضرمت النيران في بعض المخازن؛ وتمت مهاجمة ثكنتين في البليدة وبوفاريك فاستولى المهاجمون على بضعة أسلحة.

سرعان ما ألقت الشرطة القبض على حوالي خمسة عشر من الوطنيين الذين شاركوا في الاعتداءات بمدينة الجزائر. كما أُلقي القبض على بيطاط، أحد مؤسسي اللجنة الثورية للوحدة والعمل، ومكث في السجن حتى نهاية الحرب.

نصب كريم بلقاسم نائبه أوعمران على رأس ولاية الجزائر ونصب قبائليا آخر، اسمه عبان، على رأس المنطقة المستقلة بمدينة الجزائر؛ وهو موظف سابق وعضو في

المنظمة الخاصة؛ اعتقلته الشرطة الفرنسية سنة 1950 وظل في السجن قرابة خمس سنوات. اغتيل عبان بأمر من بوصوف، قائد ولاية وهران وهو من الجزائريين العرب، لأنه كان يناهض سعي القبائل البربر إلى احتلال مكانة هامة في دواليب الحركة الوطنية.

أشرف أحد الشباب الناجين من الاعتقالات، يدعى ياسف سعدي، على إعادة تشكيل شبكة المناضلين الوطنيين بمدينة الجزائر.

وفي غرب منطقة القبائل قتلت فرق المسلحين العاملة تحت إمرة كريم أحد الأعوان المسلمين من ذراع الميزان وأطلقوا النار على رجال الدرك في تيغزيرت وعزازقة وأضرموا النيران في مخزن الفلين والتبغ في برج منايل وكامب ماريشال (Camp du Maréchal).

ثم اعتصموا بالجبال حيث عانوا بعض الصعوبات في التزود بالمئونة في أوساط السكان القبائل الذين أقاموا المتاريس حول القرى للتصدي لهم. قضى كريم فصل شتاء عصيب ولكنه تمكن شيئا فشيئا من فرض سيطرته على جزء من سكان منطقة القبائل.

وفي الشمال القسنطيني لم يمتثل بعضُ المناضلين الوطنيين للأوامر ولكن ديدوش، قائدهم، أمر بإطلاق النار على مقر الدرك في كوندي- سمندو (Condé-Smendou)، الواقعة شمال قسنطينة؛ وتعرَّض مخزن للبنزين في الخروب لطلقات نيران البنادق.

أما العمليات التي وقعت في الأوراس، بقيادة بن بولعيد، فكانت أكثر جسامة؛ وفي بسكرة أطلقت جماعة من المسلحين النار على مقر محافظة الشرطة ومباني البلدية المختلطة ومحطة توليد الطاقة الكهربائية وعلى عدد من الحراس فأصيب أربعة منهم بجروح.

واقتحمت جماعة تتألف من حوالي ثلاثين مناضلا مسلحا مدينة باتنة وأطلقوا النار على الثكنة العسكرية وقتلوا اثنين من الخفر الفرنسيين.

وحاصرت جماعةٌ أخرى مقر الدرك في تكوت الواقعة جنوبي أريس؛ أما الفريق المكلف بالهجوم على مدينة أريس فلقد تخاذل بعض أفراده عن تنفيذ الأوامر.

تمركز ڤرين ومعه قرابة خمسين من الخارجين على القانون في المرتفعات المطلة على أريس وأطلقوا النار على المدينة حيث يوجد عدد من رجال الدرك وعشرات الأوروبيين؛ ولقد انضم بعض الشاوية القاطنين في واد عبدي إليهم لمساعدتهم على مجابهة المتمردين.

أما شيباني بشير، نائب بن بولعيد، فقد اتخذ مواقعه في شعاب تيغانيمين الواقعة على الطريق الرابط بين أريس وامشونش ومع شروق الشمس، يوم أول نوفمبر، اعترض سبيل حافلة كان على متنها القايد حاج صدوق وزوجا من المعلمين الفرنسيين. رفض القايد الانخراط في صفوف المتمردين وتوسّط لصالح المعلمَين ثم حاول الدفاع عنهما. فأطلق أحد المتمردين النار على ثلاثتهم. أصيب القايد والمعلم بجروح قاتلة وأصيبت زوجتُه بجروح. كان حاج صدوق نقيبا في صفوف السبايس (حسب ما ذكره F. Porteu de la Morandiére في كتاب له بعنوان Soldats du Djebel).

أصدر شيباني الأمر بنقل القايد على متن الحافلة إلى أريس للعلاج. " لأنه مسلم". أما المعلم وزوجته فتُركا على قارعة الطريق. سرعان ما صار المتمردون ينسبون أنفسهم إلى الإسلام مثل ما كان يفعل الوطنيون الجزائريون أو أكثر منهم.

انطلق من أريس كل من جان سيرفيي (Jean Servier)، وهو متخصص في علم السلالات البشرية، رفقة أحد المسلمين، وكلاهما من ضباط الاحتياط، وكان برفقتهما عدد من المسلمين واثنان من الأوروبيين المسلحين لإغاثة المعلمة المصابة بجروح وإحضار جثة زوجها.

انطلقت بعض المدرعات مع عدد من جنود المدفعية من باتنة لفك الحصار على أريس. أُرسلت فرقةٌ من المرتزقة المظليين المتمركزة في سطيف للزحف على تكوت بهدف فك الطوق المضروب على رجال الدرك هناك.

تراجع المتمردون نحو قمة إيشمول على ارتفاع حوالي 2.000م في شمال شرق أريس كما التجأ قسم منهم إلى غابة بني ملول. في حين تجمّع الخارجون عن القانون مع قائدهم ڤرين في مكان يقع غرب أريس.

اعتُقل قرابة عشرين من المناضلين الناشطين في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية في باتنة. سلَّم أحد نواب بن بولعيد نفسه إلى السلطات الفرنسية في باتنة بعد أن شارك في الهجوم على المدينة.

دخل لغرور عباس مدينة خنشلة على رأس فرقة مسلحة قُدر عدد أفرادها بحوالي ستين رجلا ومن المرجح أن يكون العدد أقل من ذلك؛ فاقتحموا محافظة الشرطة واستولوا على عدد من المسدسات.

أطلق المهاجمون النار على الثكنة. قُتل الملازم أول دارنو (Darnault)، رئيس فصيلة السبايس، وقُتل معه أحد الجنود. أصيب أحد المتمردين بجروح.

وقعت محاولة اقتحام مبنى البلدية المختلطة ولكنها باءت بالفشل؛ ثم انسحب المتمردون باتجاه الجنوب متبوعين من طرف عدد من الوطنيين من خنشلة.

تشير بعض الوثائق التي تم الاستيلاء عليها في السنة الموالية إلى أن قوات لغرور عباس بلغت قرابة ستين مسلحا في نهاية سنة 1954.

تشكلت فرق صغيرة مسلحة في جنوب تبسة بالقرب من الحدود التونسية.

عقب هذه الاضطرابات أوقفت الشرطة الفرنسية عدة مئات من المناضلين في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية التابعة لمصالي.

بعد أن أشرفت اللجنة الثورية للوحدة والعمل على تنسيق مختلف العمليات المسلحة التي نُفِّذت في أول نوفمبر 1954 تحولت إلى منظمة تدعى جبهة التحرير الوطني وأصدرت بيانا يطالب باستقلال الجزائر.

انضم قسم من مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى صفوف جبهة التحرير الوطني مع أحد مسئوليها اسمه يزيد(*).

---

* المقصود به أمحمد يزيد (المترجم).

أما الآخرون فالتفوا حول مصالي حاج (وكان تحت الإقامة الجبرية بفرنسا) الذي أسس حزبا جديدا يسمى حزب الحركة الوطنية الجزائرية.

تبنى كل من الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، لفرحات عباس، والعلماء القرآنيين موقفا مؤيدا لجبهة التحرير الوطني.

التحق عدد كبير من المناضلين الجزائريين وبعض الأوروبيين من الحزب الشيوعي الجزائري، منذ وقت مبكر نسبيا، بصفوف جبهة التحرير الوطني.

كان الحزب الاشتراكي يود تسوية هذه المشكلة بتنظيم انتخابات حرة وكان الحزب الشيوعي يؤيد استقلال الجزائر التي أصبحت في الواقع العملي تحت قيادة جبهة التحرير الوطني.

أرسلت القيادة العسكرية الفرنسية ما توفر لديها من قوات المظليين الاحتياطية إلى الأوراس وخصوصا منها الفرقة 18 من قوات التدخل من المشاة وكتيبة المظليين الأولى.

في أواخر شهر نوفمبر 1954؛ اشتبكت الفرقة 18 بقيادة الكولونيل ديكورنو (Ducourneau)، الذي ذاع صيته في الهند الصينية على رأس فرقة المظليين، اشتبكت هذه الفرقة مع العصابة المسلحة التابعة بقيادة ڤرين في مكان يقع بين أريس وباتنة. تكبد المظليون عددا معتبرا من القتلى والجرحى وقتلوا قرابة عشرين متمردا، من بينهم ڤرين، وأسروا عددا مماثلا.

كانت فرنسا تفتقر إلى القوات المسلحة فأرسلت إلى الأوراس نصف فرقة تتألف من عدد من المرتزقة الشباب الذين كانوا يتابعون تكوينهم في معسكر وسعيدة.

بما أن القيادة العسكرية الفرنسية ركزت جل اهتمامها على جبال الأوراس الكثيفة الغابات وحيث بدا لها أن أغلب المتمردين يتمركزون فيها فلم يبق لديها سوى فرقتين من القناصة الجزائريين أرسلتهم إلى جبال النمامشة.

4. أولى انتصارات لغرور عباس

تم تكليف فرقة من القناصة الجزائريين، بقيادة الرائد متزينغر (Metzinger). بحفظ النظام في القسم الشمالي من جبال النمامشة من زوي إلى غاية تابِردقة. لم تصادف الفرقة أية صعوبة تُذكر لأن معظم المتمردين كانوا قد انسحبوا إلى جنوب المنطقة الجبلية. وبالتالي فإن مهمة القناصة الجزائريين، التي كانت تحت إمرة المقدم ميكال (Miquel)، المكلفة بالمنطقة الجنوبية كانت أصعب بكثير. تمركزت هذه الفرقة بصورة أساسية في خيران وخنقة سيدي ناجي وراحت تجوب المناطق الجبلية الواقعة بين واد العرب وواد بيدغر.

لم تتمكن الفرقة من العثور على المتمردين في تلك المنطقة الشاسعة والقليلة السكان وحيث توفر الشعاب والكهوف مخابئ عديدة. أما منخفض بويقطان، وهو من أهم معاقل لغرور عباس، فعبارة عن متاهة صخرية يمكن أن تأوي 200 من المتمردين المنتشرين عبر كهوفها المنيعة والتي يصعب الوصول إليها فيتمكن المتمردون من الإفلات بسهولة من أيدي مئات الجنود الذين يبحثون عنهم.

كان الجنود القناصة يتنقلون في أفواج صغيرة العدد: وكان لغرور عباس يتوفر، بدون شك، على قرابة خمسين رجل معظمهم غير مسلحين وذلك إذا أدرجنا في الحسبان عدد الوطنيين من خنشلة الذين انضموا إلى صفوفه في الجبل. كان بإمكانه أن يجمعهم في بعض المعاقل الحصينة مثل بويقطان أو أن يوزعهم إلى مجموعات صغيرة تتنقل ليلا.

لم يكن السكان يصادفون المتمردين أبدا إلا حين يدخل هؤلاء إحدى المداشر أو المخيمات لتفتيشها أو لتنصيب المسئولين السياسيين والمكلفين بجمع الضرائب وعادة ما يتم تعيين أولئك رغم إرادتهم ويتم اختيارهم من بين سكان الدشرة.

لا أحد تقريبا يعلم أين يختبئون وخصوصا أنهم يغيرون مواقعهم باستمرار وكل من يقدم معلومات عنهم يخشى على نفسه من انتقامهم؛ فكل من لا يمتثل لأوامرهم

جزاؤه الموت ذبحا، وتلك ميتة فظيعة، أو التنكيل بجسده أو دفع غرامة أو اختطاف بعض نساء عائلته.

حين تشعر إحدى المجموعات المتمردة بأنها على وشك أن يُكتشف أمرُها فإنها تبادر إلى إخفاء أسلحتها وتفترق عناصرُها في شتى الاتجاهات.

ثم بعد ذلك يظهرون بين المدنيين فيتوزعون بين شتى المخيمات ولا يكونون عرضة للوشاية أبدا؛ إما لأن الشاوية يؤيدونهم أو يخشونهم.

لم يكن الجنود القناصة يحصلون على أبسط المعلومات ولا يعثرون على أية أدلة عن تواجد المتمردين فضلا عن إمكانية الوقوع في الكمائن المنصوبة لهم.

بالرغم من أن عدد المتمردين كان أقل من عدد القناصة عشر مرات إلا أنهم كانوا أسيادا في هذه الربوع خلال الليل. كانوا ينتقلون عبر عدد كبير من المسالك وكان في إمكانهم الدخول إلى أية قرية يشاءون واغتيال من يريدون. لم يكن حراس الغابات وقدماء المحاربين الموالين لفرنسا متجمعين في مكان واحد فلم يكن في مقدورهم استعمال أسلحتهم ولا الدفاع فرادى ضد مجموعات المتمردين.

بل لم يكن لديهم خيار آخر غير تسليم بنادقهم للمتمردين؛ وهكذا استطاع هؤلاء في غضون شهر نوفمبر الاستحواذ على بنادق الصيد التي يملكها السكان في جنوب المنطقة الجبلية ونصبوا في عين المكان مسئولين سياسيين وجباة ضرائب في عدد متزايد من الدواوير والمشاتي.

كل من يمتنع عن الالتزام بتعليماتهم أو يرفض الانصياع لأوامرهم فجزاؤه الموت أو العقوبة الثقيلة الوطأة؛ وكلما بلَّغ سكان القرية عن أحد المسئولين السياسيين في قريتهم إلا ويسارع المتمردون للانتقام منهم بعد رحيل الجنود الفرنسيين ثم يعينون مسئولين آخرين.

مهما يكن من أمر؛ حتى في حالة الوشاية بالعناصر المتمردة وإلقاء القبض عليهم فلن يُقدموا للمحاكمة: ذلك أن الإجراءات القضائية الخاصة بزمن السلم كانت ما

تزال، آنئذ، سارية المفعول في الجزائر؛ إذ لا يمكن توقيف الأشخاص، من الناحية المبدئية، إلا من طرف ضابط الشرطة أو رجل الدرك المزود بأمر إحضار رسمي. والحال أنه لا يوجد سوى بضعة عناصر من الشرطة في خنشلة، التي تبعد بحوالي ستين كيلومتر شمال المنطقة الجبلية، وبما أنه لا يوجد سوى عدد محدود من رجال الدرك في تابِردقة فليس في إمكانهم الخروج إلى البادية بدون دورية حراسة.

لا يمكن إثبات التهمة ضد العناصر المتمردة إلا بمقتضى تصريحات الشهود. ولكن لا أحد يجرؤ على الإدلاء بشهادته خوفا من أن يتعرض، هو وأفراد عائلته، للانتقام ذبحًا أو تنكيلا أو غرامةً أو اختطافا؛ فلا وجود للشهود إذن؛ في حين أن الشهادة التي يدليها شخصٌ مجهول الهوية قد تكون بدافع تصفية حسابات شخصية فتعتبر محض كذب وتزوير.

في حالة قتل بعض المتمردين أثناء الاشتباك فإن الأمر يستدعي فتح تحقيق قضائي وتقرير خبرة عن نوع الرصاصات وعيارها وتشريح الجثة وإعادة تمثيل ظروف القتل وتحرير محضر مقابلة مع العسكر الخ...

قد يدعي المتمرد، حين يُلقى عليه القبض والسلاح بيده، أنه فعل ذلك مرغَما وربما كان ذلك صحيحا؛ أو يدعي أنه لم يُطلق النار قط أو أنه أطلق رصاصات في الهواء وأنه لم يقتل أي جندي فرنسي الخ...

إذا لم تكن بندقية الصيد التي تسببت في مقتل الجندي ملكا للمتمرد الذي وُجدت بين يديه، وهذا ما يستحيل التأكد منه، تكون للموقوف حظوظٌ كبيرة في إطلاق سراحه ثم يتمكن من قتل مزيد من العسكر بعد ذلك وهكذا دواليك.

في زمن الحرب؛ يوضع المقاتلون الذي يتم أسرُهم والسلاح بين أيديهم في الحبس إلى أن تضع الحرب أوزارها؛ وفي زمن السلم يبقى العسكر عُرضة للقتل من طرف الأعداء الذين سبق لهم أن وقعوا في الأسر ثم أطلقت العدالةُ سراحهم بسبب انتفاء أدلة الإثبات.

كان العسكر أمام خيارين اثنين: إما عدم توقيف أي شخص وهذا ما يجعلهم في أعين السكان عاجزين عن التصدي لخطر الجماعات المسلحة وإما إلقاء القبض على أعداء محتملين ولكن سرعان ما يُطلق سراحُهم لانتفاء الأدلة. إذا كان وضع الأبرياء رهن الاعتقال أمرًا مرفوضا؛ فإن إطلاق سراح متمرد ذائع الصيت كان يبدو في أعين الناس دليلا على ضعف السلطات وعجزها وفي ذلك تشجيع كبير لظاهرة التمرد.

ثمة عدة حلول ممكنة لمواجهة هذه الوضعية المعقدة: والحل الأمثل هو اعتبارُ كل المنطقة التي تندلع فيها الاضطرابات أرض أعداء.

ولقد سبق أن لجأ المستعمرون العربُ ثم الأتراك إلى اعتماد هذه التقنية لمواجهة انتفاضات البربر في الجزائر. غير أن هذه الأساليب منافية لمبادئ الدولة الديمقراطية.

تتمثل الإجراءاتُ التنظيمية في أن يذرع العسكرُ المنطقة الجبلية جيئة وذهابا حتى يطلق المتمردون النار عليهم وهم متحصنون في معاقلهم ثم يختفون تحت ظلام الليل فلا يتم العثور عليهم أبدا. هذا ما جعل قوات حفظ النظام تتكبد خسائر فادحة وسمح للمتمردين بإحكام قبضتهم على السكان.

لو توفر العدد الكافي من القوات المسلحة لأمكنت السيطرة على عدد من التجمعات السكنية وحماية جزء من السكان من تهديدات المتمردين. ولكان في إمكان تلك القوات أن تجوب في طول المنطقة الجبلية وعرضها وتعاين الأماكن التي يُحتمل أن المتمردين يختبئون فيها ومن ثمة تستدرجُهم إلى الاشتباك والإيقاع بهم في كمائن ليلية تنصبها لهم في السبل التي ينتقلون عبرها؛ ولأمكن حشدُ عدد من المتطوعين في صفوف الشاوية الذي ضجروا من ديكتاتورية المتمردين ومن تجاوزاتهم وتعسفهم؛ ولامكن تحديد هوية أعضاء الجماعات المتمردة والقيام بحملات مراقبة مباغتةٍ في صميم المخيمات والقرى لإلقاء القبض عليهم حين يحتمون فيها.

كان من الضروري عزلُ المنطقة التي تكون مسرحا للاضطرابات في حدود الإمكان لمنع تزويدها بالمئونة والسلاح من خارج المنطقة.

غير أن هذه الإجراءات تستغرق وقتا طويلا جدا وقد لا تكون ذات فعالية أصلا. ومع ذلك فإن هذه الطريقة، التي تتطلب الكثير من الصبر والأناة، تتميز بكونها متوافقة مع الروح والأخلاق الديمقراطية وبأنها لا تُثير السكان ضد القوات المسلحة الممثلة للسلطة الشرعية القائمة. كانت هذه القوات المسلحة مدعاة للسخرية، في البداية، لأنها لم تكن تحقق أية نتائج ملموسة في حين كان المتمردون مستمرين في القضاء على معارضيهم وفرض سيطرتهم النسبية على البلد.

من عادة السكان أنهم يخضعون للطرف الذي يهابونه أكثر؛ وبالتالي فإذا كان الجيش النظامي يُخيف السكان ويُروعهم أكثر مما يفعله الإرهابيون أو يلجا إلى استعمال أساليبهم نفسها فإنه يفقد مصداقيته في أعين الناس. لن يحقق الجيش أي نجاح مضمون بل سيساهم في خلق أعداء جدد أو في زيادة عددهم وهذا ما يؤدي إلى حرب إبادة شاملة. قد لا يكون الجيش النظامي مُرعبا للسكان أكثر من الإرهابيين ولكنه مع ذلك يلاحظ أن السكان يمتثلون لأوامر الإرهابيين؛ ولكن صورة الجيش، في أذهان الناس، لن تكون بشعة بقدر ما تزداد صورة الإرهابيين بشاعة بعد مدة من الوقت. حينئذ ترى أعداء الإرهابيين يساندون الجيش وحين يُفصح السكان عن معاداتهم للإرهاب بعد أن يتيقنوا من الدولة لن تتخلى عنهم يكون الإرهاب قد خسر الرهان.

في هذه الحالة ينبغي على السلطة الشرعية أن تتحلى بعزيمة لا تلين وأن تعترف بأنها في حالة حرب وأن تُبقي جميع الأسرى رهن الاعتقال إلى غاية انتهاء الحرب.

أما إذا أصرت السلطة الشرعية على تطبيق الإجراءات القضائية الخاصة بزمن السلم،أي إطلاق سراح المقاتلين الأعداء فإنها تدفع القوات النظامية إلى إعدام المتمردين الأسرى لكي لا تضطر إلى محاربتهم عدة مرات. وهذا ما يدفع المتمردين إلى القتال حتى الموت مما يرفع حجم الخسائر في صفوف القوات النظامية.

ما كان لحركة التمرد أن تستفحل في منطقة الأوراس والنمامشة لو توفرت فرنسا، فور اندلاع الأحداث، على بضعة آلاف من الجنود وسارعت إلى نشرهم في جميع أرجاء هاتين الكتلتين الجبليتين.

ساهمت الكتيبة الموضوعة تحت إمرة الرائد ميتزينغر في عرقلة تمركز المتمردين في شمال النمامشة. ولكن كتيبة المقدم ميكال لم تتمكن من فعل الشيء نفسه في جنوب المنطقة التي ركزّ عليها لغرور عباس جلّ جهوده في بداية الأمر. فكان من الضروري توفير عدد أكبر من الكتائب هناك.

استفاد لغرور عباس من الجهود التي بذلها المتمردون في الجنوب التونسي وفي جبال الأوراس. فلقد تمكن المتمردون في الأوراس من تجميد عدة كتائب من المظليين في نفس المكان. في حين جمّد المتمردون التونسيون الفيلق الرابع المتكون من القناصة التونسيين وكذا الفصيلة الرابعة من جنود الزواف والقناصة السنغاليين والقومية المغاربة والفرقة السادسة من قوات اللفيف الأجنبي وفيلق المشاة والسرية الثانية من القوات الصحراوية من المرتزقة المحمولة.

لم يبق ما يكفي من القوات لنشرها في منطقة النمامشة؛ وذلك ما مكن لغرور عباس من بسط سلطته الإدارية على جزء كبير من جنوب المنطقة. ففي هذا النوع من الحروب تعتبر السيطرة على السكان أكبر الرهانات في الصراع.

أُرسلت السرية الصحراوية الأولى المؤلفة من المرتزقة إلى زريبة الواد الواقعة جنوب الأوراس والنمامشة واستقرت في المركز العسكري الذي يأوي بين جدرانه مدرسة ومكتبا بريديا. قامت قوات المرتزقة المحمولة بجولات في جنوب المنطقتين الجبليتين لمراقبة تنقل القوافل ومنع تسريب الأسلحة إلى بن بولعيد ولغرور عباس عبر التخوم الصحراوية انطلاقا من تونس وليبيا. تتوفر فرق المرتزقة المحمولة على حوالي أربعين سيارة منها عدد من المدرعات الخفيفة وهذا لم يكن ليكفي لمراقبة تلك المناطق الشاسعة.

وكانت كتيبة القناصة الجزائريين بقيادة المقدم ميكال تجوب المنطقة الجبلية المحصورة بين واد العرب وواد بيدغر واضطرت إلى إرسال عدة فصائل تتألف من حوالي ثلاثين رجلا في شتى الاتجاهات.

في يوم 12 ديسمبر 1954 كان المقدم ميكال يتجول رفقة عدد من الخفر بين واحة خنقة سيدي ناجي وخيران الواقعتين على مجرى واد العرب. فنصب له المتمردون العاملون تحت إمرة لغرور عباس كمينا على طريق غير معبدة قرب تيبو يحمد فقتلوه. ولقد ركزوا جهودهم، في أول الأمر، على إحكام قبضتهم على السكان البربر وحاولوا تجنُّب العمليات العسكرية ضد المدنيين الفرنسيين والقناصة الجزائريين. غير أنهم صعَّدوا موقفهم بهذا الشأن ابتداء من شهر ديسمبر 1954.

في يوم 12 ديسمبر غادرت الفرقة الصحراوية التابعة لقوات المرتزقة زريبة الواد في يوم ممطر متجهة إلى الصحراء (ورقلة ثم برج فلاتيرس Fort Flatters). حلَّت محلها في زريبة الواد الفرقة 21 من قوات المرتزقة المحمولة وكانت مزودة بعدد من السيارات المدرعة (half-tracks) وبعض السيارات الخفيفة فواصلت مهمة الفرقة الصحراوية ووسعت دائرة جولاتها إلى غاية بئر العاتر قرب الحدود التونسية.

تقرر إجلاء فرقة القناصة الجزائريين من جبال النمامشة وتعويضها بكوكبة من الخيالة المظليين في خنقة سيدي ناجي وسيار. لئن تبين أن عدة مئات من القناصة الجزائريين لم تكن كافية للسيطرة على النمامشة فإن كوكبة مؤلفة من حوالي 150 من الخيالة المظليين وجدت نفسها في ظروف أصعب بكثير.

جازفت فرقة القناصة بإرسال أفواج صغيرة، عدد أفرادها قرابة ثلاثين رجلا، ليجوبوا في ربوع تلك المنطقة الوعرة والكثيرة الشعاب وحيث يوجد ضعف عددهم من المتمردين الذين في إمكانهم نصب كمائن لهم؛ ولقد غامر الفرسان المظليون أبعد من هذا حين انطلقت أفواجٌ صغيرة منهم للبحث عن المتمردين.

في شهر فيفري 1955 غامرت دورية من المظليين بالتغلغل في جنوب جبال النمامشة فوقعت في كمين نصبه المتمردون فقتلوا اثنين من المظليين وأسروا عددا آخر منهم ثم تمكن هؤلاء من الفرار بعد ذلك.

استغل ديدوش، قائد المتمردين في الشمال القسنطيني، قلة عدد القوات الفرنسية فبادر إلى تعزيز صفوف جماعاته المسلحة.

أُرسل فيلقُ المظليين الثامن عشر إلى تلك المنطقة بقيادة الكولونيل ديكورنو (Ducourneau) وهو ذات الفيلق الذي قضى على جماعة ڤرين في الأوراس وتمكن من تعيين موقع عصابة ديدوش فقُتل مع عدد كبير من رجاله.

خلفه زيغوت يوسف على رأس الولاية، وهو من قدماء المنظمة الخاصة، وعمل على تعزيز تواجد المتمردين جنوبي فيليب فيل (سكيكدة) والقُل.

شرعت القوات المسلحة الفرنسية في العودة من الهند الصينية. فأُرسل الفيلق الثالث إلى الأوراس؛ وكان قد خسر كتيبة بأكملها في ديان بيان فو ولم يعد يضم سوى كتيبتين اثنتين. ولقد قاسى عدد كبير من جنود المرتزقة من محنة مكوثهم الطويل في الشرق الأقصى.

أرسلت الكتيبة الأولى فرقتها الثانية، بقيادة النقيب كاملان (Camelin)، إلى ڤنطيس في جبال النمامشة؛ وتولى النقيب كاملان، في مطلع سنة 1955، قيادة الكتيبة والفيلق الخامس.

أما الفيلق الثاني، العائد من الهند الصينية في مطلع 1955، فتمركز في تونس؛ ولقد خسر هو أيضا كتيبة بأكملها في ديان بيان فو وتم تعزيز صفوفه بجنود من الفيلق السادس الذي تقلصت صفوفه إلى كتيبة واحدة فقط.

بدأت الحكومة الفرنسية تتخلى عن التزاماتها في تونس بصورة تدريجية.

في مطلع شهر فيفري 1955 حاول بن بولعيد، قائد المتمردين في منطقة الأوراس والنمامشة، الدخول إلى القطر التونسي لتنسيق التعاون مع الوطنيين

التونسيين في موضوع تسريب الأسلحة والذخيرة إلى الأوراس والنمامشة. ولكن أُلقي عليه القبض قرب الحدود. تشير الوثائق المحتجزة آنذاك إلى أن عدد المتمردين المسلحين في الأوراس بلغ 300 رجل وأن عددهم في النمامشة 60؛ ولكن يبدو أن هذه المعطيات الثانية قديمة نوعا ما باعتبار أن عدد الرجال المسلحين العاملين تحت إمرة لغرور عباس، آنذاك، كان قرابة 80 رجلا على أقصى تقدير.

تولى شيباني بشير، نائب بن بولعيد، قيادة الولاية الأولى خلفا له ولما يبلغ الثلاثين من عمره بعدُ حسب تصريح بن بولعيد. كان يود أن يسحب العصابات المسلحة في الأوراس والنمامشة إلى واد الهلايل القريب من القطر التونسي؛ ولكن لغرور عباس وعجول لم يوافقا على ذلك لأن كلا الرجلين لم يستسيغا أن يكونا مرؤوسين تابعين لشيباني بشير؛ مع العلم بأن عجول كان على رأس قرابة مائة من المتمردين الأوراسيين في جبال بني ملول المحاذية لجبال النمامشة وأن لغرور عباس كان على رأس بضع عشرات من المتمردين النمامشيين.

في شهر فيفري 1955 أطاح البرلمان الفرنسي بحكومة منديس فرانس وعهد إلى إيدغار فور (Edgar Faure)، وهو راديكالي آخر، بتشكيل حكومة جديدة.

أصبح سوستيل (Soustelle) حاكما عاما على الجزائر؛ وهو من المتخصصين في علم السلالات البشرية وكان مسئولا على مصالح المخابرات التابعة للجنرال ديغول خلال الحرب العالمية الثانية. أظهر سوستيل نوايا حسنة بخصوص تحسين الظروف السياسية للمسلمين الجزائريين. وتولى أحد مساعديه مقابلة أحد قادة جبهة التحرير الوطني، وهو بن بولعيد، الذي نُقل بعد ذلك إلى سجن قسنطينة.

كان بن بولعيد، كباقي قادة جبهة التحرير الوطني، يطالب بالاستقلال والتفاوض مع جبهة التحرير الوطني باعتبارها الممثلة الشرعية للشعب الجزائري.

في نوفمبر 1954؛ زُجَّ بمئات الآلاف من مناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في السجن وكان هؤلاء ممن لم يشاركوا في العمليات المسلحة التي

نفذتها جبهة التحرير الوطني. وبعد إطلاق سراحهم انضم الكثير منهم إلى جبهة التحرير الوطني على غرار ما فعل بن خدة وغيره.

أُسندت إلى الجنرال بارلانج (Parlange)، وهو اختصاصي في الشؤون الأهلية في المغرب، قيادة الشؤون المدنية والعسكرية في منطقة الأوراس والنمامشة. وعُين الجنرال فانوكسم (Vanuxem) نائبا له على الشؤون العسكرية. أشرف الجنرال بارلانج على تنصيب ضباط مكلفين بالمصالح الإدارية المتخصصة (SAS) وكان ينتقيهم من بين الضباط الذين يحسنون اللغة البربرية ليسند إليهم تسيير شؤون القبائل وتجنيد المتطوعين المسلمين الراغبين في محاربة جبهة التحرير الوطني. ولقد تم تعميم هذا التنظيم الإداري على كافة أنحاء الجزائر بعد ذلك. نُصِّب المئات من ضباط الفروع الإدارية المتخصصة فبادرت جبهة التحرير الوطني إلى قتل العشرات منهم وواصلت عمليات التنكيل بالمسلمين المتعاطفين مع فرنسا. ولقد أُعلن رسميا عن ذبح المئات منهم خلال شهر ماي 1955 وحده وخصوصا في منطقة الأوراس والنمامشة؛ غير أن عددا كبيرا من الضحايا لم يتم الإبلاغ عنهم إلى السلطات الفرنسية ولا شك في أن عددهم كان أعلى بكثير من هذه الحصيلة المعلنة. كان قسم كبير جدا من السكان المروَّعين يأتمرون بتعليمات جبهة التحرير الوطني من غير أدنى مقاومة.

5. معقل للمتمردين جنوبي جبال النمامشة في ربيع وصيف سنة 1955.

تم تدعيم الجهاز الإداري الفرنسي في جنوب وشرق جبال النمامشة: في زريبة الواد وفركان ونقرين وبئر العاتر حيث كانت الفرقتان الأولى والثانية من القوات الصحراوية التابعة للفيف الأجنبي وكذا الفرق 22 و23 المحمولة المكلفة باعتراض سبيل قوافل تموين الأوراس والنمامشة بالأسلحة انطلاقا من الأراضي التونسية عبر التخوم الصحراوية.

ولكن تقرر استدعاء الخيالة المظليين والانسحاب من منطقة جنوب النمامشة.

أضرم المتمردون النار في برج خنقة سيدي ناجي ومدرسة الولجة والمزرعة النموذجية في زاوية. وفي جلاَّل ذبحوا عددا من القرويين المتعاطفين مع القناصة الجزائريين. بسط لغرور عباس سيطرته على جميع المناطق الواقعة بين واد العرب وواد فنطيس وهي شريط يبلغ طوله حوالي 70 كلم من الشرق إلى الغرب ويبلغ عرضه حوالي 20 من الجنوب إلى الشمال إلى مشارف تابِردقة وفنطيس. هكذا أصبح لغرور عباس يسيطر على ما يقرب من 1.400 كلم^2 أي ما يعادل مساحة عمالة فرنسية كاملة يقطنها أكثر من 20.000 نسمة أغلبُهم من قبيلة أولاد الرشايش.

اضطر القياد وحراس الغابات المتواجدون في تلك الربوع إما إلى الانخراط في الصفوف أو الفرار. كما أن المسلمين الموالين لفرنسا تعرضوا للذبح أو أُجبروا على الالتحاق بالصفوف. وأصبحت العناصر الوطنية من الأعوان السياسيين والمكلفين بجمع الضرائب تتولى تسيير شؤون الدواوير والمشاتي الواقعة في هذه المنطقة.

انطلاقا من هذا المعقل الحصين وسَّع لغرور عباس دائرة نفوذه نحو المناطق الواقعة شمالا بين تابِردقة وفنطيس ونحو الشرق باتجاه واد الهلايل وجنوبا نحو المخيمات الواقعة على مشارف الصحراء. ورفع عدد قواته إلى قرابة 100 رجل.

وكان، من الناحية الشرقية، على صلة بعجول عجول الذي يشرف على ما يقارب مائة من المتمردين في جبال بني ملول ويمتد نفوذه إلى غاية جبل أحمر خدو وجبل شليا وباتجاه جبال بني بو سليمان وناحية امشونش وتكوت وأريس.

ارتقى لغرور عباس إلى الطور الثاني من أطوار حرب العصابات منذ أن أصبح يسيطر على منطقة خارجة عن نفوذ السلطة الشرعية. وهو، من بين قادة جبهة التحرير الوطني، القائد الوحيد الذي قتل ضابطا فرنسيا ساميا (فضلا عن قتل أحد رؤساء فرقة السبايس برتبة ملازم أول في أول نوفمبر 1954 بخنشلة) ولقد برهن بأنه أكثر فعالية من كريم بلقاسم الذي واجه صعوبات جمة في فرض سلطته على غرب منطقة القبائل بالرغم من السنوات الطوال التي قضاها في كنف السرية بجبال القبائل.

يتحكم لغرور عباس بمهارة فائقة في تقنيات الحرب الثورية وما تقتضيه من أساليب المناورة العسكرية. بيد أنَّ نجاحاته الظاهرية كانت تحمل في طياتها بذور الفشل؛ ذلك أن البربر كانوا يتحملون على مضض كل أشكال الجور والقهر وكانوا يضيقون ذرعا بتلك الديكتاتورية الثقيلة الوطأة.

بعد أن أحكم المتمردون، تحت إمرة لغرور عباس، قبضتهم على قسم كبير من السكان المسلمين في جبال النمامشة انتقلوا إلى الطور الموالي. ففي أواخر ماي 1955 أقدموا على اغتيال حاكم قنطيس الفرنسي، المدعو ديبوي (Dupuy)، وكان محبوبا جدا لدى السكان واغتالوا أيضا عسكريا برتبة ملازم أول وثلاثة عساكر آخرين.6

تمكن قرابة عشرين جنديا من المرتزقة من العودة إلى الخطوط الأمامية حيث تتمركز القوات الفرنسية. ومن جهة أخرى؛ أُبيدت معظم عناصر كتيبة اللفيف الأجنبي الأولى في ديان بيان فو، سنة 1954، بعد أن وقع 600 قتيل بين صفوفها ثم أُعيد تشكيلها من جديد بالعناصر الناجية وقدماء المحاربين والمجندين الجدد.

في سنة 1944 عاد الملازم الأول، جان بيار (Jean Pierre)، من القوات الفرنسية العاملة بسوريا إلى فرنسا ليلتحق بشبكة المقاومين ضد الاحتلال الألماني ثم نجا من الموت بعد نفيه إلى إحدى المعسكرات النازية وخروجه سالما من معركة ساو بنغ (Sao-Bang). وفي سنة 1954 تولى قيادة كتيبة ضمن فوج فرقة اللفيف الأجنبي الأولى [بالجزائر].

بسطت الكتيبة الأولى من قوات اللفيف الأجنبي سيطرتها انطلاقا من تبسة والشريعة باتجاه الجنوب بمحاذاة الحدود التونسية وواد الهلايل.

أُرسلت كتيبة من قوات المشاة إلى تابِردقة تحت إمرة النقيب بويسيير (Buissière) وكان هذا الرائد شخصا ضخم الجثة شرسا؛ سبق له أن اشتغل، في سنة 1939، وهو

6. انظر La Guerre d'Algérie, Yves Courrière.

برتبة مساعد في صفوف فرقة اللفيف الأجنبي الحادية عشر ووقع في الأسر على يد القوات الألمانية أثناء الهزيمة الفرنسية سنة 1940 وأُرسل إلى معسكر التأديب في راوا روسكا (Rawa Russka) بعد محاولتين للفرار: ثم تمكن من الفرار من هذا المعسكر وعمل كضابط في صفوف قوات المقاومة الفرنسية: ثم سافر، في سنة 1946، ضمن صفوف المرتزقة إلى الهند الصينية ثم أصبح رئيسا للفرقة المكلفة بإعادة تشكيل قوات المرتزقة في باماكو بإفريقيا السوداء ثم قائدا لفرقة من قوات اللفيف الأجنبي في مدينة معسكر ثم في المغرب؛ وتولى بعد ذلك قيادة فرقة المشاة المؤلفة من عناصر المرتزقة الشباب التي أصبحت، في جويلية 1955، تعرف باسم الكتيبة الثالثة التابعة للفوج الثالث وتم تكليف فرقتها الحادية عشر بإعادة احتلال جلاَّل.

تمركزت كتيبة القناصة الجزائريين، بقيادة المقدم ميتزنغر في منطقة زوي شرقي خنشلة.

في أواخر شهر جويلية 1955؛ هاجمت عصابة لغرور عباس كوكبة من المرتزقة كانت في طريقها من تابِردقة إلى مركز جلاَّل. اتخذ المتردون مواقعهم في المرتفعات المطلة على منعرج تافاسور فأطلقوا وابلا من الرصاص على خفير الكوكبة ثم التحموا في مبارزة رجلا برجل وقتلوا الطبيب الملازم الأول الأعزل ودفعوا سيارة الإسعاف في هاوية عميقة، رغم أن علامة الصليب الأحمر كانت واضحة عليها. ثم استولوا على بندقية رشاشة وعدد كبير من المسدسات الرشاشة والبنادق انتزعوها من الجنود القتلى. تولى المقدم لانغلوا (Langlois) قيادة الكتيبة وانطلق على جناح السرعة من تابِردقة على رأس قوات النجدة. ثم أقبلت فصيلة من المرتزقة من جلاَّل. انسحب المتمردون تاركين في الميدان 12 قتيلا. بلغت خسائر المرتزقة 26 قتيلا و12 جريحا.

هذا أخطر كمين من حيث عدد القتلى حتى ذلك الحين في الجزائر.

إثر ذلك بفترة وجيزة، في 9 أوت 1955، نصب عباس لغرور كمينا آخر لكوكبة من القناصة قرب ثنية العويجة جنوبي زوي؛ قُتل فيها المقدم ميتزنغر وعدد من القناصة الجزائريين.

إن لغرور عباس هو القائد الوحيد، من قادة جبهة التحرير، الذي قتل ضابطين اثنين برتبة مقدم وألحق بالجيش الفرنسي خسائر بلغت قرابة خمسين قتيل من بينهم خمسة ضباط.

بذلك يكون قد ارتقى إلى الطور الثالث من أطوار حرب التمرد ألا وهو الهجوم، بدون تحفُّظ، على القوات المسلحة.

إنه أول القادة المتمردين الذين وصلوا إلى هذه المرحلة القتالية في الجزائر. ولقد صار يتوفر الآن على أربعة بنادق رشاشة وما يقرب من مائة من الرجال المسلحين وبضعة مئات من المتعاطفين فتمكن من فرض سيطرته على السكان البالغ عددهم قرابة 50.000 نسمة واستطاع تجميد كتيبتين فرنسيتين في نفس المكان أي ما يربو عن ألف عسكري. كان يجابه الجنود الفرنسيين بنسبة رجل واحد مقابل عشرة تقريبا. ولكن بما أنه كان في مقدوره تركيز مائة من مقاتليه ضد عدد من الفصائل الفرنسية المؤلفة من عدد محدود من الجنود فلقد كان يستفيد من عامل التفوق العددي في جميع هجماته سواء ضد محافظة الشرطة بخنشلة أو المقدم ميكال أو دورية المرتزقة في سيار أو في تافاسور والمقدم متزنغر.

كان الفرنسيون، في الواقع، مضطرين إلى تشتيت قواتهم ليتمكنوا من إحكام قبضتهم على أكبر عدد ممكن من التجمعات السكنية وتفتيش أوسع مساحة ممكنة وتموين مراكزهم العسكرية المعزولة.

تشكلت عصابات مسلحة أخرى في الجزء الشرقي من جبال النمامشة بين واد الهلايل والحدود التونسية من تبسة إلى نقرين.

بذل شيباني بشير، بصفته خليفة بون بولعيد على رأس منطقة الأوراس والنمامشة، جهودا حثيثة لتنضوي تلك العصابات تحت سلطته ويعيد توحيد صفوفها.

راحت الكتيبة الأولى من المظليين تجوب هذه المنطقة الوعرة والفلاة ذات النباتات الهزيلة في نواحي الشريعة والماء لبيض وجبل بو جلال وواد الهلايل وجبل

الأبيض وجبل أم الكماكم. وكانت الكتيبة تراقب في الوقت نفسه مدينة تبسة وسوقها الأسبوعية التي تنتظم تحت أسوارها الضخمة. في حين كانت الفرقة المحمولة الواحدة والعشرين تنطلق من سوكياس وبئر العاتر وتتحرك في المناطق المحاذية للحدود التونسية (جبال زراقة وبوطنة) وكانت الفرقة القادمة من سوكياس عرضة لتحرشات فريق من المتمردين.

وقعت معارك صغيرة في غير هذه الأماكن فأسفرت عن خسائر لدى الطرفين معا. بيد أن شهر أوت 1955 تميَّز بحدوث تطورات هامة في الأوضاع بشمال إفريقيا.

ففي المغرب؛ وإثر الهياج الشعبي الذي أثاره الوطنيون في كبريات المدن المغربية، خلال شهر جويلية، ثارت بعض القبائل البربرية المناهضة للوجود الفرنسي وتم تقتيل قرابة مائة مدني فرنسي في أم زرم وفي خوريبقة؛ وانتفضت بعض العصابات المسلحة في منطقة الريف مما دفع الحكومة الفرنسية إلى إعادة السلطان المخلوع محمد الخامس.

في الشمال القسنطيني؛ أشرف زيغوت، قائد المنطقة، بمعية مساعده بن طوبال على تحضير واقعة ثانية على غرار أحداث الشغب التي جرت في 8 ماي 1945.

في يوم 20 أوت 1955، في حدود منتصف النهار، قامت عدة مئات من المشاغبين المسلمين، تحت إمرة بعض المقاتلين المسلحين التابعين لجبهة التحرير الوطني، باجتياح قلب مدينة فيليب فيل (سكيكدة) حاملين بنادق الصيد والخناجر وشتى الأدوات القاطعة وقاموا بتقتيل الأوروبيين بما فيهم النساء والأطفال. شنَّ المدنيون الأوروبيون المسلحون هجوما مضادا بمساعدة بعض العسكر التابعين للفيلق الأول من المظليين؛ فقتلوا عددا كبيرا من المسلمين.

في مناجم الهالية، شرقي فيليب فيل (سكيكدة)، قام بعضُ عمال المناجم المسلمين، تحت إمرة بعض المقاتلين المسلحين التابعين لجبهة التحرير الوطني، بقتل قرابة أربعين مدني أوروبي بما فيهم النساء والأطفال.

في عين عبيد، شرقي قسنطينة، قام المشاغبون بذبح أحد الأوروبيين مع زوجته ورضيع وطفل صغير وامرأة متقدمة في السن.

في قسنطينة؛ وقعت اعتداءات واغتيل أحد أحفاد فرحات عباس من طرف جبهة التحرير الوطني. ووقعت أحداثٌ مماثلة في القُلّ وكاتينا وواد الزناتي وحمام المسخوطين وجيماب وسان شارل والحروش؛ حيث مات عشرات الأوروبيين وعشرات المسلمين الموالين لفرنسا. أسفر الهجوم المضاد من طرف المدنيين الأوروبيين والعسكر عن سقوط مئات الضحايا في صفوف المسلمين.

أرسلت جبهة التحرير الوطني تهديدات بالقتل للمنتَخبين المسلمين فقدم الكثير منهم استقالته.

6. الهجوم الفرنسي المضاد ومقاومة لغرور عباس (سبتمبر - ديسمبر 1955)

بعد عودة القوات المسلحة من الهند الصينية ووصول الإمدادات تمكنت فرنسا من رفع عدد قواتها المسلحة في الجزائر. ولقد استفاد قطاع النمامشة من ذلك.

كان القناصة المغاربة جنودا ممتازين إلا أنهم كانوا متعاطفين مع تطورات الأحداث في المغرب السائر نحو نيل الاستقلال والانفصال عن فرنسا. ولقد تسربت بين صفوف القناصة المغاربة دعايات الوطنيين الجزائريين باسم الإسلام والتضامن بين شعوب شمال إفريقيا؛ فبدأ حماسهم يفتر شيئا فشيئا بخصوص قتالهم في صفوف الجيش الفرنسي.

تناقصت فعاليتُهم على الصعيد العسكري. ومهما يكن فإن تواجدهم هناك وضع مدينة خنشلة في مأمن من هجوم مباغت من طرف لغرور عباس.

منذ مطلع نوفمبر 1954 كانت المدينة تعيش على وقع تدفق الفرق العسكرية وقوات الدرك ولكن تلك الإمدادات لم تستقر فيها لأن تواجدها في أماكن أخرى كان ضروريا أكثر.

في منتصف شهر سبتمبر 1955 أُرسلت الكتيبة الثانية إلى خنشلة وكانت تتألف من المرتزقة الشباب. تمركزت تلك القوات في ميدان الرياضة الذي يتحول إلى مستنقع تغمره الأوحال في فصل الخريف وتهب عليه رياح باردة جدا في فصل الشتاء. كانت عناصر هذه الكتيبة تقيم تحت الخيام في ظروف قاسية جدا.

ثم أُلحقت الكتيبة بالفرقة الثالثة من قوات اللفيف الأجنبي وتحركت إلى منطقة الأوراس في نهاية السنة؛ أما القناصة المغاربة فقد أُعيدوا إلى بلدهم. وصلت إلى خنشلة سرية من رجال الدرك المزودين بمدرعات خفيفة وهي عبارة عن مدينة صغيرة منكوبة في فصل الشتاء تقع عند نهاية السكة الحديدية القادمة من قسنطينة وبالقرب من الأطلال الرومانية في باغاي.

في سبتمبر 1955 أُرسل نصف الزمرة الثالثة عشر التابعة للقوات المرتزقة، التي عادت لتوها من الهند الصينية، إلى منطقة النمامشة وبقيت هناك مدة عامين كاملين حيث لعبت دورا حاسما في الكفاح ضد لغرور عباس.

ذلك ما سمح بسحب كتيبة القناصة الجزائريين التي كانت تباشر العمليات في هذه الكتلة الجبلية منذ نوفمبر 1954 والتي تكبدت خسائر فادحة على رأسها مقتلُ قائدها المقدم متزنغر. كما أن الكتيبة الثالثة التابعة لفرقة اللفيف الأجنبي الثالثة، والتي سقطت في كمين تافاسور، قد سُحبت من النمامشة وأُرسلت إلى الأوراس.

كان تشكيل نصف الزمرة الثالثة عشر التابعة للقوات المرتزقة في سنة 1940 بالمغرب ولقد سبق لها أن حاربت في النرويج ضد الألمان. وكان الكثير من المرتزقة العاملين في صفوفها من الألمان المناهضين للنازية ومن الإيطاليين المناهضين للفاشستية والإسرائيليين والجمهوريين الأسبان والباسكيين والكتلونيين والتشيكيين والبولونيين والأرمن. فبعد أن تراجع هؤلاء إلى لندن التحق أغلبهُم بقوات الجنرال ديغول، في جوان 1940، ثم استأنفوا خوض غمار الحرب العالمية. وكان من ضباطهم أمثال الملازم الأول كونيغ (Koenig) وأميلاكفاري (Amilakvari) ودي سيرينيي (Sairigné) وشاتو جوبير (Chateau - Jobert) والملازم الأول

الاحتياطي ميسمار (Messmer)، الذي عُيِّن فيما بعد وزيرا أول. ولقد حارب هؤلاء جميعا في أريتريا ضد القوات الإيطالية، في سنة 1941، وأسروا عدة آلاف من الجنود الإيطاليين. كما أنهم قاوموا، في سنة 1942، مقاومة شرسة ضد القوات المشتركة الألمانية والإيطالية بقيادة للماريشال رومل في بئر حكيم بالصحراء الليبية وشاركوا في معركة العلمين حيث قُتل الأمير الجورجي، الكولونيل أميلاكفاري (Amilakvari). كما حاربوا في تونس وإيطاليا وشاركوا في الإنزال البحري، سنة 1944، في سواحل بروفانس وشاركوا في معركة ألزاس وذاع صيتُهم في جبال الألب ثم في الهند الصينية وهناك قُتل الكولونيل دي سيرينيي سنة 1948.

تم تدمير الكتيبة الأولى والكتيبة الثالثة، التابعتين لنصف الزمرة الثالثة عشرة،[7] وذلك في سنة 1954 في ديان بيان فو وقُتل فيها الكولونيل غوشي (Gaucher)، الذي كان على رأسها، وهي الفرقة الوحيدة التي خسرت 3 ضباط برتبة كولونيل خلال 12 سنة.

أشرف الكولونيل روسي (Rossi) على إعادة تنظيم صفوف الفرقة الثالثة عشرة وأُعيد تشكيل الكتيبة الأولى بواسطة الناجين من الموت وبعض المرتزقة الشباب الذين أُرسلوا إلى الجزائر من طرف فرقة اللفيف الأجنبي الأولى التي كانت تُعسكر في سيدي بلعباس. أما الكتيبة الرابعة التابعة لفرقة اللفيف الأجنبي الثالثة، التي تشكلت في سنة 1953، فأُرسلت لمساعدة اللاووسيين للوقوف في وجه الاجتياح الشيوعي الفيتنامي ثم ساهمت في المعارك التي دارت رحاها في خليج طونكين. ثم أُدمجت عناصرها ضمن نصف الزمرة الثالثة عشرة فأصبحت كتيبتها الثالثة.

تزامن وصول هذا الفوج القوي إلى جبال النمامشة مع الحملة الهجومية التي شنتها القوات الفرنسية في شرق هذه الكتلة الجبلية حيث تمكن شيباني بشير، قائد الولاية الأولى (الأوراس والنمامشة)، من توحيد صفوف العصابات الصغيرة من

7. أُطلقت تسمية "نصف الزمرة" في سنة 1940. على هذا الفيلق المؤلف من كتيبتين والمخصص لمساعدة فنلندة التي تعرضت للغزو من طرف الاتحاد السوفييتي ولكنه حارب إلى جانب الفنلنديين ضد الهجوم الألماني على بلادهم.

المتمردين التي كانت تتجول هائمة بين الأراضي التونسية وواد الهلايل وتبسة ونقرين.

هكذا تجمَّع 200 متمرد في واد الهلايل؛ وحين تم تحديد موقعهم شُرع في هجوم ضدهم انطلاقا من الأراضي التونسية حيث كانت الأوضاع متأزمة بالرغم من خفوت شدة المعارك بسبب الأحداث التي أدت إلى نقل السلطات إلى بورقيبة.

ظهرت أيضا فرق المتمردين المسلحين في شمال النمامشة بين خنشلة وشريعة. وكان الفوج الثالث من قوات المظليين موزعا في منطقة الأوراس بين باتنة وبسكرة فأرسل جزءا من قواته إلى خنشلة.

إنه لمن الضروري التذكير بتاريخ هذه الكتائب الرائعة:

بعد انهزام كتيبة المظليين الأولى والثانية في ديان بيان فو؛ تم نقل الكتيبة الثالثة المتمركزة في سطيف إلى الهند الصينية فأعادت تشكيل الكتيبة المظلية الثانية.

وأُعيد تشكيل الكتيبة الأولى من العناصر الناجية من الموت هناك. وأخيرا تم تنظيم كتيبة مظليين ثالثة جديدة في سطيف من العناصر التي بقيت في نفس المكان ومن بعض المظليين المتطوعين الشباب القادمين من فرقة اللفيف الأجنبي الأولى.

حينئذ تم انتداب كتيبة المظليين الثالثة للعمل في الأوراس في حين انتدُبت الكتيبة الأولى، العائدة من الهند الصينية، إلى تبسة وتحولت كلتا الكتيبتين إلى فوج من المظليين الذي لم يكن في الواقع سوى كتيبتين معززتين.

وهكذا فإن فرقة المظليين الثانية، التي لم تعد من الهند الصينية سوى في نوفمبر 1955 للتمركز في فيليب فيل (سكيكدة)، قد تم تحويلها لتشكيل الفوج الثاني من المظليين بعد انصهارها مع الفرقة الثالثة.

أما الفرقة التاسعة التابعة للفوج الثالث من المظليين المنتدب إلى خنشلة فدخلت مباشرة في المعارك وأعلنت عن وقوع جريحين في صفوفها يوم 18 سبتمبر

1955 بمناسبة هجومها على عشرة متمردين كانوا قد التجئوا إلى أحد المغارات الواقعة شمال شرقي المدينة. قامت بتفجير المغارة وقتلت جميع من فيها.

حينذاك انطلقت عملية عسكرية تُعرف باسم تيمقاد ضد المتمردين المتواجدين في واد الهلايل. وصلت إمدادات فرنسية ضخمة من تونس تتألف من الفرقة الرابعة من القناصة التونسيين ومن القومية المغاربة ومن الكتيبة الثانية التابعة لفرقة اللفيف الأجنبي الثانية.

كانت قوات ممتازة ولقد تميَّز فوج القناصة التونسيين بصفة أخص في معارك اقتحام غاريغليانو (Garigliano) خلال الحملة على إيطاليا سنة 1944 ولقد تكبدت خسائر فادحة في مواجهة القوات الألمانية المتمركزة في قمم الحواجز الجبلية الصعبة الاقتحام. ومع ذلك استولى القناصة التونسيون على تلك المواقع الحصينة بعد أن اضطروا إلى التعارك بالحجارة بعد أن نفذت ذخيرتهم ولقد استماتوا بحيث لم يبق منهم سوى قلة من الجنود الأسوياء في بعض الأفواج.

كان القومية المغاربة قوات إضافية تم ضمها في فرق صغيرة من القوم (قرابة 150 رجلا) وكان عدد من الوم يشكلون طابورا (كتيبة تعدادها قرابة 600 أو 700 رجل). سبق لهذه الطوابير أن شاركت في عمليات التهدئة بالمغرب سنة 1912؛ وفي سنة 1934 قاتلت ضد القوات الألمانية في الأراضي التونسية وفي سنة 1943 في إيطاليا وفي فرنسا ثم في الهند الصينية. لقد أُبيد الطابور الأول والحادي عشر والثالث جزئيا في معركة كاو لانغ (Cao-lang) التي وقعت على الحدود الصينية ضد القوات الشيوعية الفيتنامية سنة 1950. وصمد الطابور الثاني، في سنة 1953، في نواحي مدينة لا تشو (Lai-Chau) في تايلاند واضطر إلى الانسحاب بصعوبة نحو قاعدة ديان بيان فو.

قاتلت الطوابير المغربية في تونس سنة 1954 وساهمت في إعادة الهدوء إلى عدد من المدن المغربية في السنة نفسها.

أما الفرقة الثانية المؤلفة من قدماء المرتزقة الذين عملوا في الهند الصينية فقد قاتلت في سهول الجرار للدفاع عن لاوس ضد الجيش الشيوعي الفيتنامي. وكانت تحت إمرة قائد الكتيبة فيوليس (Vieulés)، أحد أبطال المرتزقة، الذي أُصيب بجروح مميتة في تونس سنة 1943 خلال الهجوم ضد القوات الألمانية هناك كما تولى نيابة قيادة كتيبة المظليين الأولى في ديان بيان فو وقُتل في سنة 1958 وهو على رأس نصف الزمرة الثالثة عشر بعد أن أُصيب سبع مرات بجراح وتقلد وسام الشرف سبعة عشر مرة.

في 22 سبتمبر بنواحي الشريعة تمكنت الفرقة السادسة من إخراج عصابة من المتمردين من مخبئها في معقل صخري وخسرت خمسة من أفرادها من بينهم الملازم غرانسارت (Grandsart). انسحب المتمردون تاركين وراءهم 22 قتيلا. وفي 25 سبتمبر تكبد القناصة التونسيون خسائر فادحة حين هاجموا فريقا معتبرا من المتمردين.

هاجمت فرقُ القوم المغربية عصابات المتمردين من ناحية الجنوب؛ في حين تمركز نصف الزمرة الثانية في واد الجرف. تمكن المتمردون من الفرار ولكنهم تكبدوا عشرات القتلى. وكانت تلك أول هزيمة تلحق بهم في هذه المنطقة.

أما سرية المرتزقة الواحدة والعشرين المتمركزة في واحة نقرين وفركان فكانت مهمتُها هي قطع السبيل أمام ثلاثة عصابات قادمة من تونس تضم كل واحدة منها 50 متمردا. تمكنت السرية، بمساعدة اثنين من الحركى البربر الماهرين في اقتفاء الأثر، من اللحاق بإحدى تلك العصابات؛ ولقد كلّفتها تلك العملية قتيلين اثنين وثلاثة جرحى وقتلت من جهتها 25 متمردا واسترجعت مسدسين رشاشين و12 بندقية ومسدسين اثنين.

في أواخر شهر أكتوبر تكبدت سرية المرتزقة الثانية والعشرين، المتمركزة في زريبة الواد، قتيلا و3 جرحى من بينهم ضابط برتبة ملازم أول.

استقرت السرية الثالثة والعشرين في بئر العاثر في مركز يقع في قعر منخفض

من الأرض ظليل تهب فيه رياحٌ عاصفة وتشرف عليه منحدرات صخرية قاحلة. ولقد انتدبت إحدى فصائلها للإقامة في مركز سوكياس. في أوائل نوفمبر اشتبكت الفصيلة مع عدد من المتمردين فسقط في صفوفها جريحٌ واحد بترية ملازم أول.

في هذه الأثناء نصبت نصف زمرة المرتزقة الثانية بجوار مدرسة بابار مخيمها وكان الجو شديد البرودة بسبب موقع المخيم في سفح جبل مرتفع.

أما نصف الزمرة الثالثة فأخذت موقعها في واد العرب: في مركز خيران الذي تشرف عليه منحدرات وعرة وفي واحة الواجة التي سبق للمتمردين أن أضرموا النيران في مدرستها وفي مركز شبلة.

أُرسل إلى هناك طابورٌ مغربي غير أن التطورات السياسية المستجدة في المغرب جعلت القومية يركنون إلى موقف المتفرج المنتظِر لما تُسفر عنه تلك التطورات فأُعيدوا إلى بلادهم خلال فصل الربيع الموالي.

وتمركزت نصف الزمرة الثالثة عشر في تابِردقة بجوار مقر الدرك والمدرسة وفوق الهضبة المشرفة على ذلك المنخفض من الأرض وأرسلت إحدى سراياها إلى جلاَّل.

أُرسلت كتيبة أخرى لتتمركز في برج واحة سيار الواقعة في جنوب النمامشة؛ في حين تمركزت كتيبة من القناصة الجزائريين في فنطيس.

تم تنصيب عدد من ضباط المصالح الإدارية المتخصصة في كل من تابِردقة وسيار وخنقة سيدي ناجي وجلاَّل فتمكنوا من إعادة ربط العلاقات مع السكان وبسَّطوا التعامل مع الإجراءات الإدارية وأشرفوا على علاج المرضى وفتحوا أبواب المدارس وجنَّدوا عددا من القومية والحركى في صفوف الشاوية المناهضين للحركة التمردية.

وفي بابار تم تجنيد فرقة متنقلة للحماية الريفية تتألف من المتطوعين الشاوية. وأُعيد ترميم بعض الطرق غير المعبدة.

تم فتح عدد من الورش لتشغيل البطالين الشاوية. تسببت الأمطار الغزيرة في فيضان الأودية وأعطبت بعض الطرق غير المعبدة وقطعت بعضها الآخر.

بدأت المعلومات عن المتمردين تتوافر بكثرة. وصار في الإمكان ضبط عدد كبير من القوائم بأسماء الشاوية المجندين في عصابات لغرور عباس وتم شطب أسماء الذين ماتوا.

لقي المتمردون صعوبات جمة في التخفي وسط جمهور السكان حيث أصبح يتهددهم خطر إلقاء القبض عليهم في نقط التفتيش ومراقبة الهوية. اضطر أغلبهم على البقاء مجتمعين مخافة أن يتم اكتشافهم من طرف القوات الفرنسية التي كانت تفتش جميع أركان وزوايا الكتلة الجبلية بدون كلل. التجئوا إلى العيش في المغارات واضطروا إلى تغيير أماكن إقامتهم باستمرار وخصوصا أثناء الليل. أمضوا فصل شتاء عصيب بسبب برودة الجو الشديدة في تلك السنة.

تمثل رد فعل المتمردين في صورة تهديدات ضد عائلات الحركى والقومية. ولقد حدثت حالات فرار من صفوف الفرق الريفية المتنقلة في بابار. تمثل حل هذه القضية في تجميع عائلات القومية للإقامة في المراكز العسكرية أو بجوارها لضمان أمنها.

كما وجهت تهديدات أيضا إلى الشاوية الذين تطوعوا للتجنيد في صفوف القناصة ضمن الورش الفرنسية وضد كل الذين يدفعون الضرائب لفرنسا. بلغ عدد الشاوية المغتالين ذبحا 17 مدنيا خلال شهر واحد في ناحية بابار فقط وهذا دون احتساب الذين لم يتم العثور على جثتهم أو الذين ماتوا في غير ذلك المكان.

امتنع أغلب السكان عن تسديد الضرائب إلى الإدارة الفرنسية وبادر المتمردون إلى إعادة إغلاق الطرق غير المعبدة.

وعلى الصعيد العسكري برهن لغرور عباس عن نشاط دءوب. ففي النصف الثاني من شهر نوفمبر 1955 قتل عددا كبيرا من القومية الشاوية قرب واحة سيار وأسر أحد قادتهم برتبة ملازم أول.

نصب كمينا لكوكبة من الجنود المرتزقة في جنوب تابِردقة قُتل فيه النقيب جيني (Genet) وأُصيب المقدم كوست (Coste) ومعه 3 جنود مرتزقة بجروح.

إن لغرور عباس هو الوحيد، من بين قادة التمرد، الذي تمكن حتى ذلك الحين من قتل ضابطين اثنين برتبة رئيس كتيبة ولقد كاد يردي الثالث قتيلا.

في 2 ديسمبر تحرك لغرور عباس على رأس قرابة 150 رجلا مسلحين برشاشتين من نوع هوتشكيس (Hotchkiss) وعدة بنادق رشاشة ومدفع هاون من عيار 60 فهاجم سرية من القناصة الجزائريين جنوبي قنطيس.

سقط عدة قتلى وجرحى في صفوف القناصة ولكنهم قاوموا بشراسة فتمكنوا من صد المتمردين. انتقل الصحفي أندري سوڤان (André Seguin) إلى منطقة النمامشة لزيارة القوات الفرنسية المتواجدة هناك.

ذكر في مقاله الصحفي أن أولئك القناصة الجزائريين من مواليد القطاع الوهراني؛ أي أنهم من العرب وكان البربر يعتبرونهم أجانب إن لم نقل أعداء. بقيت مشاعر الانتماء العشائري قوية جدا بحيث أن الشعور بالانتماء الوطني يجد صعوبة في ضرب جذوره بين البربر: ذلك أن علاقات التضامن والانتماء كانت ضعيفة جدا مع البربر في القطاع القسنطيني أو مع البربر القومية المغاربة. كان بربر النمامشة والأوراس يُضمرون مشاعر الحذر تجاه البربر في بلاد القبائل. ولم يكن التفاهم والود سائدين بين بربر الأوراس وبربر النمامشة. وكانت بعض العشائر البربرية الأوراسية متناحرة بسبب الخصومات المتوارثة أبا عن جد منذ القديم. كثير من تلك العشائر كانت تنضم إلى معسكر المتمردين وأخرى إلى الفرنسيين؛ ولا ترتبط تلك المواقف المتباينة بتباين القناعات الشخصية بقدر ما هي نتيجة للتنافر بين عشيرتين متجاورتين إذا ما اختارت إحداهما الانضمام إلى معسكر معين فإن الأخرى تنضم إلى المعسكر الخصم.

هذه الحقيقة الضاربة جذورها في ذهنية القرون الوسطى لم تكن واضحة المعالم في أذهان الرأي العام الفرنسي الذي كان ينظر إلى هذا النزاع من زاوية نظر غربية تقوم على قراءات مستوحاة من النزعات المحلية في أوروبا.

تدهورت وضعية لغرور عباس في جناح قواته المتواجدة قرب الحدود التونسية. فلقد صارت قوات المرتزقة تجوب بدون انقطاع في طول وعرض المناطق المجاورة

لبئر العاثر وسوكياس ونقرين وفركان وتُلحق خسائر فادحة بالمتمردين في كل اشتباك. وكانت فرقة المظليين الأولى تقوم بالعمل نفسه جنوبي تبسة وفي واد الهلايل. وكانت تتكبد خسائر قليلة نسبيا مما دفعها إلى مضاعفة الاشتباكات التي كانت تتسبب في سقوط القتلى في صفوف المتمردين. أصبحت حصيلة الخسائر البشرية ثقيلة بالنسبة للمتمردين ففي مدة شهرين تمكنت السرية الأولى من اللفيف الأجنبي من أسر عشرات المتمردين واسترجعت منهم بندقية رشاشة وعشرات المسدسات الرشاشة والبنادق.

أصبح لغرور عباس يجد صعوبة جمة في التزود بالرجال والأسلحة انطلاقا من الأراضي التونسية.

7. الإجراءات الفرنسية الجديدة

تم التوصل إلى حل وسط بين الاعتماد على الطوابير الضخمة التي كان المتمردون يتحاشون مجابهتها وبين الفصائل القليلة العدد أو المراكز القارة التي يستطيع المتمردون اجتياحها بسهولة. اقتضت القاعدة الجديدة احترام الإجراءات التالية: تحاشي إقامة مراكز عسكرية يقل عدد أفرادها عن سرية كاملة أو الخروج في دوريات يقل عدد أفرادها عن فصيلتين.

كانت فصائل الجنود المرتزقة تنظم دوريات تتألف من عشرين رجلا (فريق حماية يتوفر على بندقيتين رشاشتين من عيار 24-29 وفريق خيالة مزودين ببنادق قاذفة ومسدسات رشاشة من نوع MAT 49 وبنادق من نوع MAT 36).

كانت هذه الأسلحة الفرنسية الصنع متينة ودقيقة التصويب وسهلة التفكيك مقارنة بالأسلحة الأمريكية الصنع. وكان ضباط الصف مجهزين ببنادق أمريكية بعضها من نوع US M2 تطلق صليات متتابعة.

تقول التقديرات إن فصيلة تتألف من أربعين مرتزقا يمكنها التقدم بسهولة عبر الذرى الجبلية؛ وفي استطاعتها، في حالة الاشتباك مع مائتين من المتمردين، الصمود في مواقعها إلى غاية وصول الإمدادات. ولقد أثبتت الوقائع صحة هذه

الحسابات بالرغم مما ذهبتْ إليه بعض المؤلفات الصادرة عن حرب الجزائر من مبالغات حين ادعت أن الجنود كانوا يُمنعون من الخروج في دوريات بأقل من كتيبتين. كان التموين يصل إلى المراكز العسكرية مرة كل شهر بواسطة قوافل الإمداد التي تخفرها المدرعات الخفيفة التابعة لقوات الدرك المتنقلة وسرية من المرتزقة رفقة بعض عناصر الحماية الريفية الذين كانوا يتخذون مواقع لهم فوق القمم العالية المشرفة على الطرق غير المعبدة وكانت طائرات الاستطلاع تحلق فوق قافلة الإمداد لمراقبة المناطق القريبة منها. جنَّبت هذه الإجراءات الوقوع في الكمائن.

كان السكان يعامَلون برفق ولطف أثناء مداهمة مشاتيهم ومخيماتهم ولكن الجنود كانوا يتحلون بالحذر والحيطة. ذلك أن فصائل الجنود حين تصل إلى مشارف إحدى القرى كانت تجهل ما إذا كانت ستجد داخلها سكانا مدنيين مسالمين أم عصابة مسلحة معادية أم بعض المتمردين المتخفين وسط السكان وهم على استعداد لإطلاق النار.

كانت العلاقات بين الجنود والسكان طيبة وكان الأطباء والممرضون العسكريون يعالجون المرضى مجانا كما كان الجنود يقتنون ما يحتاجون من بيض ودجاج من السكان المتواجدين بالقرب من المراكز العسكرية.

تميَّزت الأجواء بالهدوء والارتياح. ولم تكن أبدا أجواء مشحونة بالعدوانية من كلا الطرفين. لم تكن القوات الفرنسية تحمل أية ضغينة أو أفكار عنصرية. ولم تكن القبائل المجاورة تهابُهم أو تخشاهم.

اقترح الضابط المكلف بالاستعلام تشكيل كومندوس مشترك يتألف من الحركى والمرتزقة يتم إنزالهم بواسطة طائرات الهيلكوبتر، مع توفير الحماية الجوية الضرورية، في الأماكن التي يُحتمل أن يلتجئ المتمردون إليها. من شأن هذا التكتيك أن يشيع في صفوف المتمردين جوا متسما بانعدام الأمن. فإذا لاذوا بالفرار تصب عليهم الطائرات نيران رشاشاتها وإذا مكثوا في نفس المكان فلن يفلتوا من الكومندوس المعتصم في أعلى الذرى المحيطة بهم والذي يمكنه الصمود إلى غاية وصول الإمدادات

وافق الجنرال فانوكسيم على انتهاج هذا التكتيك ولكن لم تكن بحوزته آنذاك طائرات الهيلكوبتر أما الكولونيل روسي فكان يُفضل الاشتباك على الأرض في انتظار أن تنجلي الأمور. ترك له الجنرال حرية الاختيار. وبعد ثلاثة شهور توفرت لدى الجنرال خمس طائرات هيلكوبتر ألحق بالمتمردين خسائر فادحة سنتطرق إليها فيما بعد. إثر ذلك تقرر تعميم تكتيك القوات المحمولة بطائرات الهيلكوبتر والمدعومة جوا فاستُعمل بنجاح على طول التخوم الجزائرية التونسية.

كان من الأفضل لو أُسندت قيادة الكومندوس إلى ضابط الاستعلامات ليتمكن، في الوقت ذاته، من استغلال المعلومات التي جمعها في عين المكان والحصول على مزيد منها خلال كل عملية من هذا القبيل.

كما كان من المستحسن تشكيل كوكبة من الخيالة الحركى والمرتزقة لتجوب المناطق الوعرة التي يصعب الوصول إليها بواسطة الشاحنات وحيث لا تصل إليها فرق المشاة بالسرعة المطلوبة.

ولكن لم تتوفر الأموال الضرورية لاقتناء الخيل. بعد ذلك بمدة طويلة قدمت سرايا الخيالة المتواجدة في الهضاب العليا خدماتها فتمكن المشاة الحركى والفرنسيون من التنقل بسرعة بين الربوع التي يلتجئ إليها المتمردون وكانت تلك القوات مجهزة بأجهزة الراديو لطلب النجدة الجوية عند الضرورة.

كان الكولونيل روسي يولي أهمية كبيرة للمعلومات التي يقدمها السكان بكل عفوية وخصوصا من طرف الخصوم الذين كانوا يتطوعون في صفوف القوات الفرنسية وكذا من طرف المتمردين الذين يلتحقون بصفوف الجيش. وهكذا تم جمع معلومات دقيقة جدا.

لم يُرغم سكان جبال النمامشة على التجمُّع قسرًا؛ وإن استُعمل هذا الإجراء في مناطق أخرى بغرض تخليص سكانها من تسلط جبهة التحرير الوطني مع ما في ذلك التجمع من محاسن ومساوئ سبقت مناقشتُها.

لم يعد الشاوية يدفعون الضرائب للفرنسيين تطبيقًا لتعليمات المتمردين والواقع أنه لا أحد من الناس يرغب في دفع الضرائب؛ خصوصا وأنهم كانوا يدفعون إتاوات ثقيلة للمتمردين. وكانت أقلية منهم تمتثل لتلك الأوامر عن قناعة وعن كُره تجاه فرنسا.

لم يكن خضوع الشاوية لسلطة المتمردين يُعدُّ بمثابة فضيحة للسلطات الفرنسية؛ ذلك أن أولوية الاهتمامات كانت منصبة على إلحاق الهزيمة بالمتمردين ولا جدال في أن تلك الهزيمة ستكون أسهل وأيسر منالا كلما تعاظم تذمُّر السكان من المتمردين بدل شكاواهم من القوات الفرنسية. ولقد تأكدَّت فعالية هذا الخيار.

كان موقف النمامشيين متجانسا إلى حد كبير: فلقد كان من بينهم أقليةٌ مؤيدة لجبهة التحرير الوطني وأقلية تتمنى البقاء فرنسية وأغلبية ذات موقف فضفاض وحريصة على اجتياز هذا النزاع بأقل ما يمكن من المعاناة بمجاملة كلا الطرفين معا. أما في الأوراس وبلاد القبائل فكانت الوضعية أكثر وضوحا وتمايزا حيث انحازت بعض العشائر إلى صف جبهة التحرير وانحاز بعضُها الآخر إلى جانب فرنسا مع حدوث انقلابات في التحالفات في بعض الأحيان.

كانت المعارك عصيبة جدا بسبب الظروف الفظيعة التي وقعت فيها: فالجنود الفرنسيون كانوا يدركون جيدا أن من الأفضل لمن يقع منهم بين أيدي المتمردين أن ينتحر ليتجنب الموت مذبوحا أو تحت وطأة التعذيب.

كل جريح لم يُعثر عليه قبل حلول الليل معرَّضٌ لخطر الافتراس من طرف الذئاب التي تبدأ بأكل الأرجل قبل بقية الأطراف. وحين يمر الجنود بأحد ميادين القتال يعثرون على جثث الموتى منقوصة الرجلين؛ فلا ينبغي التخلي عن أي جريح في ساحة المعركة حتى ولو انطوى نقلُه على مجازفة كبيرة أو تسبب في وقوع مزيد من الخسائر البشرية. كانت جثثُ أصدقائنا تُنقل أيضا.

كانت المياه مشبعة بمادة المغنيسيوم وبالتالي مسببة في الإسهال. كان عدد كبير من العسكر يشتكون من المغص والحمى.

أغلب الخسائر في صفوف السكان سببُها الذبح الذي يقترفه المتمردون ضد معارضيهم.

كانت المعارك دامية بين المتحاربين غير أنها كانت تقع، على العموم، في مناطق معزولة وخالية من المدنيين.

غالبا ما كان هؤلاء يهجرون القرى التي يتخندق فيها المتمردون. وحين يندس بعض المتمردين بين المدنيين ويطلقون النار فإن العسكر الفرنسيين كانوا يحافظون على رباطة الجأش فلا يردون عليهم بالمثل. ذلك أنهم جنودٌ محترفون وذوو خبرة طويلة تسمح لهم بالتمييز بسهولة بين المتمردين المسلحين وبين المدنيين فلا يطلقون النار إلا بعد التأكد.

كانت ظروف حياة العسكر الفرنسيين قاسية جدا. كان بعضهم يلتجئ إلى حُفر في أرضية المراكز العسكرية لينام فيها وقاية من البرد القارس ويلتحف أغطية مصنوعة من قماش الخيام الخشن.

بذلت مصالح العتاد والإمداد جهودا جبارة لتزويد المراكز بالصفائح والإسمنت والخشب وحجارة البناء والخيام الجماعية والمدفآت والأسرَّة المعدنية فتحسنت ظروف الإقامة شيئا فشيئا وأصبح العسكر يأوون إلى مخابئ تتوفر على التدفئة حين يتواجدون في المراكز.

كانوا يقضون ليالي عصيبة حين يخرجون في عمليات البحث عن المتمردين وحيث تنخفض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر.

أما أكياس الرقاد، الأمريكية الصنع، والتي تُقفل بواسطة أزرار فلم تكن مُحكمة الإغلاق ولا تحمي من البرد. كانت كمية الغذاء المحفوظة في العلب تفي بالحاجة من الوحدات الحرارية ولكنها مع مرور الوقت صارت مستهجنة. أما في المراكز القارة فكان الغذاء أحسن بكثير: كما تم إنشاء عدد من النوادي الخاصة بكل كتيبة فكانت مثل دكاكين البازارات حيث يقتني الجنود بعض الحاجيات وقليلا من المنتجات الغذائية الإضافية.

كانت قوافل السيارات العسكرية تقوم برحلات عديدة بين مدينتي بابار، مركز قيادة الكولونيل قائد الكتيبة الثالثة عشر، وخنشلة التي تعتبر قاعدتها الخلفية. ولا يوجد على طول الطريق سوى نقطة وحيدة صالحة لنصب الكمائن فكانت قافلة الحراسة تنزل فيها باستمرار.

ومن بابار كان يتم إرسال العتاد والمئونة إلى كل من تابردقة وسيار وجلاَّل وواد العرب وخنقة سيدي ناجي بواسطة قوافل ضخمة تنطلق شهريا.

في إحدى الليالي أُصيب أحد المرتزقة بالتهاب الصِّفاق في بابار فأمر الطبيب الملازم الأول بضرورة إجراء عملية جراحية في الحال لإنقاذه من الموت فأُرسلت قافلة إغاثة خلال نفس الليل مرفقة بفصيلتين امتطيتا شاحنتين لخفر سيارة الإسعاف. سارت القافلة بدون إنارة أضواء السيارات لتجنب إثارة انتباه المتمردين.

حادت إحدى الشاحنات عن الطريق ولكنها لم تنقلب فأُعيدت إلى الجادة ثم واصلت القافلة سيرها بفضل مهارة السائقين.

أُجريت للجندي المرتزق عملية جراحية في الوقت المناسب فنجا من الموت.

كثيرا ما يتم التركيز والاهتمام على المقاتلين في سرد قصص الحروب؛ ومن الطبيعي جدا أن يفكر الناس في ذلك؛ ولكن ما كان لهؤلاء أن يقوموا بشيء بدون مصالح الإمداد والأطباء والسائقين وكل من يزودهم بالكميات الهائلة من العتاد والمئونة الضرورية لهم.

8. الشقاق بين المتمردين (ديسمبر 1955 - فيفري 1956)

قُبض على بن بولعيد، قائد ولاية الأوراس والنمامشة، في فيفري 1955 من طرف السلطات الفرنسية وهو في طريقه إلى تونس لتنسيق عمليات التموين بالأسلحة انطلاقا من هذا البلد.

ولم يحظ مساعدُه، شيباني بشير، بالرضا من طرف لغرور عباس في منطقة النمامشة ولا من طرف عجول عجول في الأوراس.

بعد فرار بن بولعيد من سجن قسنطينة، في سنة 1955، حاول استعادة قيادة الولاية غير أن أشياء كثيرة كانت قد وقعت خلال الأشهر التسعة التي قضاها في السجن.

كان لغرور عباس قد أحرز عدة انتصارات في تافاسور وثنية العويجة وتمكن من

رفع عدد قواته وتعزيز سلطته وأصبح معتدا بنفسه أكثر من ذي قبل. لم يعد يتأثر كثيرا بشخصية بن بولعيد. في حين لم يعد عجول عجول، الذي تحصَّن مع عصابة قوية في معاقله، يقبل بتقديم حسابات لأي أحد.

لم يتمكن بن بولعيد من إعادة بسط سلطته عليهما إلى أن قُتل في مارس 1956. يقول البعض إنه مات بسبب انفجار جهاز راديو ملغم من طرف الفرنسيين وتقول مصادر أخرى إنه اغتيل بتحريض من طرف عجول عجول أو لغرور عباس أو كليهما معا.

مات شيباني بشير أيضا؛ ومن المرجح أنه اغتيل بأمر من أحد هذين القائدين التابعين لجبهة التحرير الوطني أو من كليهما معا.

شعر قادة جبهة التحرير بأن الفوضى ضربت أطنابها في صفوف المتمردين المتواجدين بمنطقتي الأوراس والنمامشة وهذا غير صحيح. كان لغرور عباس يتحكم في عصابات منطقة النمامشة وكان يحضر نفسه لتكثيف هجماته ضد القوات الفرنسية. وكان عجول عجول يتحكم في جبال بني ملول وفي قسم من منطقة الأوراس ويعمل على تعزيز صفوف عصابته وكان أقل هجومية من لغرور عباس؛ ويبدو أن نوعا من التفاهم كان يسود بين الرجلين ولم يكن أيٌّ منهما يصبو للتأثير على الآخر بل اكتفي كل منهما بمسك زمام الأمور في معاقله. لم تعد هناك قيادة موحدة في الأوراس والنمامشة وإنما وُجد نوعٌ من التنسيق الفعال؛ ولقد كانت وضعية المتمردين في هاتين المنطقتين أحسن بكثير من بقية الولايات التي توجد على رأسها قيادة موحدة.

بيد أنه كان يوجد هناك بعض الخلاف والشقاق على غرار ما كان يحدث في منطقة القبائل وفي غيرها من مناطق الجزائر. من ذلك مثلا أنَّ علي، وهو من بين مساعدي لغرور عباس، قد انشق عنه في 20 ديسمبر 1955 وسلَّم نفسه إلى القوات الفرنسية مع أربعة من رجاله ومعهم بندقية رشاشة وأربعة بنادق.

سيرا على الأقدام في مدة ستة أيام عبر مسارات وعرة في جبال الأوراس والنمامشة. ولقد ساءت الأحوال الصحية لعدد كبير منهم ممن نال منهم المقام الطويل في الهند الصينية. في حين كان بعضهم الآخر يتمتع بلياقة بدنية ممتازة مما سمح لهم بتنظيم مباراة في الكرة الطائرة بعد وصلوهم إلى قواعدهم. أما قائد الكتيبة فقد سبق له أن حارب في مدغشقر.

في يومي 29 و30 ديسمبر 1955 اشتبكت عصابةُ لغرور عباس، وكان بحوزتها بندقية رشاشة، مع السرية الواحدة والعشرين من القوات المرتزقة المحمولة في مكان يقع جنوبي جديدة. قُتل عدد كبير من المتمردين وأُصيبت طائرة استطلاع وجُرح طيارُها كما قُتل أحد المرتزقة برتبة عريف ومرتزقان برتبة ملازم أول.

في 17 و19 جانفي 1957؛ استغل قرابة 80 متمردا. مدججين بالسلاح، فرصة خروج السرية الواحدة والعشرين في جولة فهاجموا المركز العسكري بفركان مستعملين مدفع هاون من عيار 60 غير أن من بقي في عين المكان من المرتزقة المكلفين بحراسة المركز تمكنوا من صد المهاجمين.

وبادر عدد آخر من المتمردين الذين اتخذوا مواقع في أعالي شعبة بابار إلى إطلاق نيران بندقيتهم الرشاشة على الخيام التي نصبتها نصف الزمرة بجوار مبنى المدرسة فأصابوا أحد المرتزقة من السرية الثامنة برصاصة في بطنه.

نقل الكولونيل روسي مقر قيادته إلى مقر الدرك في تابِردقة وكان من المتحمسين لفكرة إنشاء كومندوس للصدام وذلك تجنبا لتفريغ صفوف السرايا من خيرة جنودها المرتزقة. غير أنه كلَّف ضابطين، في تابِردقة، بمهمة تشكيل فرقة كومندوس تعدادها ثلاثة فصائل انتزعها من كل سرية.

تم تجهيز المرتزقة بعدد من البغال لركوبها حين يرومون الخروج إلى الأطراف التي لا تتوفر فيها الطرق المعبدة على غرار ما كان يفعله المرتزقة في المغرب من قبل.

بادر لغرور عباس إلى زرع الألغام على طول الطرق غير المعبدة في نواحي تابردقة. وفي 3 فيفري 1956 انفجر لغم حين مرت فوقه سيارة تابعة للسرية الأولى فأُصيب أربعة مرتزقة بجروح.

شكل الرقيب الأول رومل، وهو مرتزق ألماني، كوكبة محمولة فوق سيارات مدرعة وعدد من سيارات الجيب وحرص على تدعيم الصفيحة الواقية أسفل المدرعات؛ ولقد أحسن صنعا بذلك: فبعد مرور إحدى تلك المدرعات المصفحة فوق لغم شبَّت كالحصان الحرون ثم سقطت ثانية على الطريق وواصلت سيرها وكأن شيئا لم يكن. رُقي "رومل" إثر ذلك إلى رتبة مساعد أول؛ وبعد مرور قرابة عشرين سنة شارك في حصة تلفزيونية تناولت موضوع المرتزقة وكان إلى جانبه الجنرال أندولانكو (Andolenko) وهو من أصل سلافي ومن الأصدقاء القدامى للأمير الكولونيل ديمتري أميلاكفاري الذي قُتل سنة 1942. أما الجنرال أندولانكو فسبق له أن عمل برتبة كولونيل قائد فرقة اللفيف الأجنبي الخامسة المتمركزة على الحدود المغربية أثناء حرب الجزائر.

في أوائل فيفري 1956 حاولت نصف الزمرة الثانية والثالثة مدعومة من طرف القومية المغاربة محاصرة عصابة عجول عجول في جبال بني ملول في ظروف مناخية صعبة انخفضت فيها درجة الحرارة إلى 15 تحت الصفر.

انسحبت عجول عجول مع قواته إلى قلب جبال الأوراس للإفلات من الحصار. فلقد كان هذا الأخير، على نقيض لغرور عباس، يتجنب خوض المعارك بصفة عامة. أما موريس لابان، الذي عمل لبعض الوقت في صفوف قوات لغرور عباس، فقد غادر منطقة الأوراس حسب ما أفادتنا المعلومات المتوفرة لدينا؛ وقام بتشكيل معقل يضم قرابة ثلاثين متمردا شيوعيا في نواحي أورليانفيل (الشلف) ثم تعزز صفه في ربيع سنة 1956 بعنصر شيوعي آخر هو الطالب الضابط مايو (Maillot). ولقد أُبيد هؤلاء عن آخرهم تقريبا على يد الحركى الموالين لفرنسا بقيادة الباش آغا بوعلام وهو نقيبٌ احتياطي في صفوف القناصة الجزائريين.

في مطلع سنة 1956: أسفرت الانتخابات الفرنسية عن وضع السلطة في يد الحكومة الاشتراكية برئاسة غي مولي (Guy Mollet) المؤيدة لفكرة تنظيم انتخابات حرة تسمح بتمثيل جميع الأطياف السياسية في الجزائر بغرض البحث عن حل يرضي جميع الأطراف. رفضت جبهة التحرير الوطني هذا المسار لعدم اقتناعها بنيل دعم انتخابي واسع. وكانت تصر على أنها الممثل الوحيد للشعب الجزائري وباعتبار أن استقلال الجزائر يتم تقريره من طرف السلطة وليس بواسطة الاقتراع.

أصر غي مولي على موقفه الداعي إلى أخذ جميع مكونات الشعب الجزائري بعين الاعتبار وأن الاستقلال لا ينبغي فرضُه من طرف فرنسا بل من حق الشعب الجزائري وحده أن يقرر، بكل ديمقراطية، ما إذا كانت أغلبيته راغبة في البقاء فرنسية أم أنها تفضل الاستقلال.

لم يكن الجنرال كاترو (Catroux)، الذي تم تعيينه خلفًا للحاكم العام سوستيل، يحظى بشعبية واسعة في صفوف الأوروبيين المقيمين بالجزائر وكانوا يعتقدون أنه سيكون أقل صرامة من سلفه في التعامل مع جبهة التحرير الوطني؛ وفي مطلع فيفري 1956 قاموا بمظاهرات مؤيد لسوستيل ضد غي مولي وكاترو.

تم تعيين أحد المناضلين الاشتراكيين في منصب وزير مقيم بالجزائر. وكان هذا الأخير يرغب في إنجاز إصلاحات سياسية واجتماعية لصالح المسلمين الجزائريين ورفض تسليم السلطة إلى جبهة التحرير الوطني بدون تنظيم انتخابات حرة.

الفصل الثالث

الهجوم الفرنسي المضاد

1. معركة عامرة . 14 فيفري 1956

في شهر فيفري 1956 وصلت أنباء تفيد بأن عصابة لغرور عباس متواجدة في منطقة تقع شمالي شرق سيار يُرجح أنها وادي غرغار؛ فتقرر القيام بعملية تمشيط في المنطقة انطلاقا من تابِردقة بمساعدة القوات القادمة من بابار.

غير أن لغرور عباس انتقل إلى منطقة تقع بين العامرة وزاوية الواقعة جنوب شرق تابِردقة.

أمر معظم قواته بالتمركز في المغارات ووسط الركام الصخري في المنحدرات الشرقية بالقرب من شعبة المذبوحين وكانت تلك القوات تتوفر على رشاشة من نوع هوتشكيس وأربعة بنادق رشاشة على الأقل. ثم نصب فرقة من الرماة على قمة تقع غربي واد بيدغر وفصيلة دفاعية على المنحدرات الغربية وكان يتوفر على قرابة 250 رجل في المنطقة الواقعة أعلى من تلك القمة.

قدمت الكتيبة الأولى والثانية من تابِردقة سيرا على الأقدام فوقع الاشتباك بين الطرفين في صبيحة يوم 14 فيفري 1956. بقيت الكتيبة الثانية تراوح مكانها في واد بيدغر ولم تتمكن من مواصلة تقدمها بسبب قوة النيران التي كان العدو يطلقها من أسلحته الأوتوماتيكية. اتضح بما لا يدع مجالا للشك أن لغرور عباس كان يتوفر على مخزون هام من الذخيرة بدليل أن قواته لم تكن تحاول اقتصاد الذخيرة.

تسلقت الكتيبة الأولى المنحدرات الشرقية متقدمة نحو مواقع المتمردين ولكنهم تصدوا لها فعرقلوا تقدُّمها حين وصلت إلى شعبة المذبوحين. تولى أحد الكورسيكيين برتبة مساعد أول، اشتهر بالحزم والعزم الإشراف على تنسيق تحركات الكتيبتين بعد مقتل قائدها النقيب جيني (Genet).

وصلت إلى تابِردقة كل من الكتيبة السادسة والسابعة والثامنة قادمة من بابار على متن الشاحنات فتحركت مع الكولونيل روسي باتجاه العامرة.

لو أن هذه المجموعة اتجهت إلى سيار بدون أن تسبقها القوات التي سارت مشيا على الأقدام وتمكنت من استشعار مواقع المتمردين لانقض لغرور عباس بقواته على المرتزقة المحمولين على متن الشاحنات ولأثخن صفوفهم بالقتلى والمجروحين.

كانت كتيبة المرتزقة تتألف من قرابة 80 رجلا بسبب نقصان عدد القوات أصلا ونظرا لعدد الجنود المرضى والمستفيدين من إجازات وعدد الذين بقوا لحراسة المراكز العسكرية. دخل قرابة 400 من المرتزقة مدعمين بحوالي 100 من قوات الجيش في اشتباك مع 250 متمردا متحصنين في مواقع منيعة ووراء الكتل الصخرية التي تحميهم وتسمح لهم بإطلاق النيران الكثيفة على المرتزقة.

بالرغم من أن عدد المرتزقة كان ضِعف عدد المتمردين وكانت أسلحتُهم الأوتوماتيكية تفوق خمس مرات ما يتوفر منها لدى المتمردين إلا أن القوات المهاجمة كانت تعاني صعوبة كبيرة في تصويب طلقاتها وإصابة أهدافها في صفوف المتمردين؛ وراحت طائرتان تطلقان نيران رشاشاتها على المنحدرات الشرقية ولكنها لم تتمكن من عرقلة تحركات المتمردين المعتصمين فيها.

توقف رتل الشاحنات قبل أن يلج إلى منطقة العمليات فنزل منها الجنود المرتزقة؛ واحتلت الكتيبة الثامنة مقدمة الهجوم. ولقد سبق لها أن فقدت 13 قتيلا وأُصيب 75 من عناصرها بجروح، أي ما يقارب مجموع أفرادها، حين كانت تقاتل في خليج طونكين خلال السداسي الأول من سنة 1954. أُصيب بعض المرتزقة

بجروح للمرة الثالثة أو الرابعة؛ وكان عدد كبير منهم في صفوف هذه الكتيبة منذ سنين؛ كما سبق للنقيب الذي كان يقودها أن شارك في المعارك التي دارت رحاها في إيطاليا سنة 1943 بصفته ضابطا للقناصة الجزائريين وشارك في حملة فرنسا قبل أن يحارب في الهند الصينية.

لكي تتمكن الكتيبة من نشر قواتها لمواجهة عصابات المتمردين فكان لزاما عليها أن تُسكت نيران رماة العدو المتمركزين على القمة الغربية وكانوا يطلقون النار من هناك صوب أرجاء الوادي؛ غير أن الاستيلاء على تلك القمة يستدعي مواصلة الزحف وسط القذائف المنطلقة من فوهات الأسلحة الأوتوماتيكية التي كانت بيد المتمردين. وللحد من الخسائر ينبغي الهجوم بعدد قليل من الرجال. أرسل النقيب مجموعة تتألف من عشرين جنديا مرتزقا كانوا معه في فصيلة المقدمة بقيادة مساعده الملازم الأول. قطعت المجموعة الوادي تحت نيران العدو الكثيفة ولكن لم تلحقها أية خسائر فتسلقت نحو القمة بكثير من الحذر. فرَّ المتمردون واصطحبوا معه مدفعهم الرشاش. احتل المرتزقة مكانهم على القمة المشرفة على جنبات الوادي ففرت مجموعة المتمردين المتواجدة على الجانب الغربي بدورها.

في تلك الأثناء تسلقت الكتيبة السابعة، متبوعة بالثامنة، منحدرات الجانب الشرقي وانتقلت إلى الجهة الغربية من الكتيبة الأولى ثم قطعت شعبة المذبوحين وتمركزت في رأس المنحدر بحيث صارت في موقع أعلى من موقع المتمردين. كانت الكتيبة السابعة تحت إمرة نقيب من قدماء المحاربين في الحرب العالمية الثانية وحرب الهند الصينية وهو أيضا من قدماء الضباط بالمدرسة العسكرية المتخصصة في سان سير. وكان أحد الطلاب الضباط الشباب يقوم بدور الضابط المساعد.

أما الكتيبة الكولونيالية فتقدمت من ناحية الجنوب عند سفح المنحدرات حيث اشتبكت مع قوات المتمردين المتحصنين هناك. وكانت الرياح الباردة تعصف بقوة وتثير زوابع صغيرة من الثلج.

تلك هي أهم معارك حرب الجزائر حتى ذلك الحين: احتل لغرور عباس، مرة أخرى، مكان الصدارة بالنسبة لبقية القادة المتمردين.

تقدمت الكتيبة السادسة صوب المتمردين متسللة بين الصخور وتحت الرصاص الكثيف. كانت بقيادة ملازم أول شاب في الخامسة والعشرين وهو الضابط الوحيد في كتيبته. تكبدت الكتيبة السادسة 5 قتلى و8 جرحى أي ما يعادل 20٪ من مجموع أفرادها.

حلَّ الوزير المقيم، روبير لاكوست، بالمنطقة على متن طائرة هيلوكبتر رفقة الجنرالين بارلانج وفانوكسيم.

صمد المتمردون في مواقعهم إلى غاية حلول الليل ثم تسربوا بين صفوف القوات التي كانت تحاصرهم ونقلوا جرحاهم معهم ومعظم ما كان لديهم من أسلحة. وتركوا على أرضية المعركة 45 قتيلا وعددا كبيرا من الرشاشات من نوع تومسون (Thompson) وبعض البنادق الأمريكية يعود تاريخ صنعها إلى الحرب العالمية الثانية. وبلغت حصيلة الخسائر في الجانب الفرنسي 8 قتلى و23 جريحا.

لقد برهن لغرور عباس، مرة أخرى، أنه لا يتردد عن مجابهة القوات الفرنسية النظامية. ولقد ناور بكفاءة فائقة وكان في إمكانه إلحاق خسائر فادحة في صفوف المرتزقة كما تمكن من الإفلات بمهارة كبيرة من وضعية حرجة. كانت خسائره البشرية مرتفعة ولكنه احتفظ بمعظم ما كان بحوزته من أسلحة وكان في مقدوره إعادة تشكيل قواته.

تكبدت فرقة نصف الزمرة الثالثة عشر خسائر محدودة وبذلت ما في وسعها للصمود أمام عدو لدود وحازم في أمره ومزود بكثير من الأسلحة ومتحصن في مواقع منيعة. لكن تلك الزمرة لم تحرز سوى على نصف انتصار. ثم تواصلت ملاحقة المتمردين في غد ذلك اليوم في البرد القارص.

انسحب لغرور عباس نحو الشرق. وبالرغم من أن حركة الانسحاب كانت بطيئة بسبب نقل الجرحى إلا أن القوات الفرنسية لم تتمكن من اللحاق به. في الواقع يحق له أن يعتبر بأنه أنقذ نفسه على أحسن ما يرام من المجابهة التي جازف بالدخول فيها. ومن المرجح أنه أمر رجاله بالتراجع عبر الأنفاق التي تقع مداخلها في

المنحدرات الصخرية وتؤدي مخارجها إلى ما وراء خط الحصار المضروب من طرف القوات الفرنسية؛ ويُعتقد أيضا أنه ترك قسما من الجرحى، ليعود إليهم من بعد، في المغارات التي لم تكتشف القوات الفرنسية مواقعها.

2. أول عملية عسكرية للقوات المحمولة بالهيلوكبتر في منطقة النمامشة (واد غرغار، 9 مارس، 1956)

الظروف الحقيقية لمقتل النقيب كروطوف (Krotof) مع أحد الضباط السامين في صفوف الكتيبة 11 من فرقة الصدام

مع بداية مارس 1956؛ ذكر السكان أن لغرور عباس قد حشد 500 من المتمردين في واد غرغار شرقي تابردقة؛ ولكن يُحتمل أن يكون هذا الرقم مبالغا فيه. مهما يكن فلقد تمكن لغرور عباس من رأب الصدع الذي أصاب قواته يوم 14 فيفري حيث جنَّد مزيدا من المقاتلين واستدعى بعض العصابات الصغيرة المعزولة ورفع عدد قواته. من المرجح أنه كان بحوزته حوالي 300 رجل على الأقل.

كان من المستحيل مباغتته من طرف الجنود الفرنسيين الذين كانوا يتقدمون سيرا على الأقدام؛ ذلك أنه نصب فوق القمم عددا من الحراس لمراقبة تحركاتهم والتبليغ عنها فورا.

روى إيروان بيرغو (Erwan Bergot)، في كتاب له عن قوات الكومندوس بالجزائر، أن الكتيبة الثالثة التابعة لنصف الزمرة الثالثة عشر من القوات المرتزقة قد اشتبكت يوم 8 مارس مع قرابة مائة من المتمردين كان بحوزتهم بندقيتان رشاشتان.[8] ومن الجدير بالذكر أن إيروان بيرغو (1930 – 1993) كان قائدا لفرقة المدفعية الثقيلة التابعة لقوات المرتزقة المظلية في ديان بيان فو؛ ونشير إلى أنه

8. Erwan Bergot. Commandos de choc en Algérie. Ed Grasset 1976

أُصيب بجروح بالغة الخطورة في حرب الجزائر ثم أصبح رئيسا لجمعية الكُتاب المحاربين.

كانت خسائر الكتيبة كما يلي: 5 قتلى وقرابة 10 جرحى وفرار 6 جنود مرتزقة كانوا يأملون أن تتولى جبهة التحرير الوطني إرجاعهم إلى بلدانهم عبر تونس.

أما فرقة التدخل السريع التي كانت تحت إمرة النقيب كروطوف، في منطقة الأوراس، فقد أُرسلت إلى تابِردقة ومعها 5 طائرات هليكوبتر من نوع سيكورسكي غير مدرعة وغير مجهزة بالرشاشات وفي مقدورها حمل 6 أشخاص على متن كل واحدة منها أي ثلاثين جنديا في كل طلعة جوية.

لأول مرة يتم تزويد القوات المتمركزة في جبال النمامشة بطائرات هليكوبتر.

كانت فرقة الصدام الحادية عشرة متخصصة في الهجوم المباغت على المتمردين. كان النقيب كروطوف وجها بارزا من وجوه هذه الفرقة بفضل هدوءه وشجاعته وحيويته وبساطة التعامل معه.

لا مناص من تصحيح ما أورده إيف كوريير في كتابه، حول حرب الجزائر،[9] حيث سرد كما يلي (باختصار) وقائع معركة 9 مارس 1956:

" في صبيحة يوم 9 مارس تحركت دورية تتألف من جنود مرتزقة كانوا مصممين على القضاء نهائيا على المتمردين فباغتت مجموعة منهم تعد قرابة 50 من الفلاقة وطلبت، بواسطة الراديو، من فرقة النقيب كروطوف الإسراع لنجدتها. غير أن فرقة كروطوف ظلت قابعة في مكانها عاجزة عن الحركة بسبب النيران الكثيفة التي كان يطلقها الفلاقة المتحصنون في إحدى المغارات. بادر أحد المظليين برتبة ملازم أول يُدعى بلوا (Blois) إلى رمي القنابل اليدوية على المغارة فقضى على الفلاقة عن آخرهم. ومن الجهة الأخرى من المنحدر كان المرتزقة يطلقون نيران رشاشاتهم بدون انقطاع. وبعد قرابة عشرين دقيقة سكت دوي الرصاص فأصدر الملازم أول

9. انظر الجزء الثاني من كتابه: Le temps des Léopards.

بلوا إشارة للكف عن إطلاق النار. تقدم كل من كروطوف مع جندي برتبة عريف نحو الأمام لملاقاة الدورية فأصيب كروطوف برصاصة في قلبه أطلقها عليه أحد الرماة المنعزلين. أما العريف فأُصيب من الخلف برصاصة طائشة أطلقها أحد المرتزقة. ثم تراجع المرتزقة، على جناح السرعة، إلى مركزهم في تابِردقة. "

هذه الرواية تستدعي تصحيح بعض ما ورد فيها من أقوال غير دقيقة وهي كما يلي:

1 - لم ترسل دورية المرتزقة أي نداء استغاثة بواسطة الراديو.

2 - لم تكن مصممة على إبادة المتمردين، في هذه المرة، وإنما إضعاف شوكتهم إلى أقصى حد في كل مرة تشتبك معهم.

3 - لم توجد في تلك المنطقة أية مغارة.

4 - لم يقم أي ملازم أول برمي القنابل اليدوية بل من المرجح عدم وجود أي ملازم هناك.

5 - توقفت دورية المرتزقة عن إطلاق النار بمجرد القضاء على مجموعة المتمردين بمشاركة فرقة المظليين.

6 - لم يتقدم لا نقيب ولا عريف قوات المظليين باتجاه المرتزقة بعد توقف القتال وهذا لسببين رئيسيين هما:

أ - لقد أُصيب كلاهما إصابات قاتلة أثناء الهجوم على المتمردين.

ب - كان المرتزقة يحاربون معهم جنبا إلى جنب وبالتالي فلا داعي للتحرك لملاقاتهم.

لم يسرع المرتزقة بالعودة إلى مواقعهم في تابِردقة بل ذهبوا لاستعادة الخوذات والحقائب التي تخلى عنها الجنود على بُعد أربعة كلم شمالي موقع الاشتباك بغرض تخفيف حمولتهم حين هاجموا فرقة المتمردين.

لا مراء في أن هذه الرواية منقولة عن شخص لم يكن شاهد عيان فهي تحتوي كثيرا من التشويه وعدم الدقة والتناقض. تلك بعض مساوئ الكتب التي تم تأليفُها مدة قصيرة بعد وقوع الأحداث وبناء على شهادات مغرضة أو منحازة ومتفاوتة القيمة. يطرح هذا الأمر، بصفة عامة، قضية تتعلق بمصداقية التاريخ الذي يصبو لأن يرتقي إلى مصاف العلوم الدقيقة انطلاقا من شهادات ومذكرات ووثائق ناقصة أو مغلوطة. وحتى عمليات التنقيب الأثرية لا تُظهر الحقيقة كاملة حين تكشف عن أنقاض القصور والمباني والطرق المرصوفة ولكنها لا تكشف الأكواخ القذرة التي لا تصمد في وجه الزمان وهذا ما يُضفي على الحقيقة مسحة من الجمال والرونق الكاذب. إن كتابة التاريخ أقرب إلى فنون الاستخبارات والتحقيقات القضائية التي تحاول المطابقة والمقارنة بين المعطيات للتأكد من مصداقية المعلومات المتوفرة. وهذا ما يضفي عليها مسحة من الإثارة. ثم إن العثور بعد مدة على أرشيف لم يكن معروفا من قبل يسمح بمراجعة الاستنتاجات التي كانت مقبولة حتى ذلك الحين. التاريخ علمٌ دائم التجدد ولا شيء مفصول فيه بصورة نهائية.

من المستحسن إدخال التعديلات الضرورية على هذه الرواية:

وفاء لروح الجنديين من قوات المظليين الذين قُتلا وهما يواجهان المتمردين وليس بصورة عرَضية بعد عشرين دقيقة من نهاية الاشتباك؛

واحتراما لمشاعر عائلاتهم؛

ومن أجل إحقاق الحقيقة حول هذه النقطة التاريخية؛

ووفاء للمرتزقة الذين قاتلوا إلى جانب النقيب كروطوف والذين ورد ذكرهم في هذه الرواية بصورة لا تفي بما هم أهل له من التقدير.

أما الرواية المطابقة للواقع فهي كما يلي:

في صبيحة 9 مارس 1956 أقلعت 5 طائرات هليكوبتر من تابِردقة وعلى متنها 30 مرتزقا من الكتيبة الثامنة التابعة لنصف زمرة اللفيف الأجنبي والذين أُحضروا من بابار تحسبا لهذه العملية.

يتميز هؤلاء العسكر بالهدوء وبرودة الطبع ولقد تلقوا أحسن تدريب وكانوا رماة ماهرين. ولقد شارك أكثر من نصف عددهم في القتال بالهند الصينية. وفي آخر معركة خاضوها في خليج طونكين تمكنوا من صد كتيبة من قوات فيات منه (vietminh) المدججة بالسلاح والمدعومة بقوات المدفعية الثقيلة. خسروا 5 قتلى وأُصيب 25 منهم بجروح أي ما يعادل ثلث عددهم الإجمالي وكبدوا قوات فيات منه 300 قتيل.

لقد اكتسب هؤلاء المحاربون القدامى خبرة طويلة في الحرب في مثل المناطق الصخرية المتواجدة في بلاد النمامشة. وكانوا يفيدون بتجربتهم الثرية زملاءهم من المرتزقة الشباب القادمين من الفرقة الأولى للفيف الأجنبي بعد أن تلقوا تكوينا مكثفا.

كانوا تحت إمرة ملازم أول في الرابعة والعشرين وهو خريج مدرسة سان سير ضمن دفعة 1951 - 1953 ولقد سبق له أن جاب معظم أرجاء منطقة النمامشة بصفته ضابط استخبارات ومدرب كومندوس وعمل دليلا ميدانيا للدورية التي شاركت في معركة العامرة في فيفري 1956 واستولى، بدون أن يتكبد أية خسارة بشرية، على قمة اعتصمت فيها فرقةٌ من الرماة التابعين لمجموعة لغرور عباس كانت تعرقل تقدم القوات الفرنسية المهاجمة.

تم إنزال المظليين بواسطة طائرات الهليكوبتر فوق إحدى القمم لمواجهة قرابة 70 متمردا كانوا يطلقون عليهم النار بكثافة قبل أن يفروا باتجاه واد غرغار. حينئذ تخلص معظم المرتزقة الثلاثون من خوذاتهم وحقائبهم ليتمكنوا من التنقل بسرعة وخفة مثلما يفعل المتمردون فاجتاحوا الوادي بسرعة ولم يتوقفوا لحظة لإرسال نداء استغاثة بواسطة الراديو.

كانوا يحسنون التصويب أكثر من المتمردين وبحوزتهم ذخيرة أكثر وأشد فتكا بالإضافة إلى دعمهم من طرف طائرتين من طراز T6.

في أثناء هذه المعركة وما تلاها من ملاحقة المتمردين على مسافة أربعة كيلومترات لم يُصب أي جندي من المرتزقة في حين تم القضاء على 33 متمردا واستعادة 23 قطعة سلاح ما بين مسدسات رشاشة وبنادق ومسدسات.

تفرق الناجون من المتمردين ولم يأمر لغرور عباس قواته التي كانت معه بالتدخل في المعركة ربما لخشيته من تدخل الطائرات.

تم إنزال النقيب كروطوف جنوبي موقع المتمردين وتمكن من تحديد أماكن 5 منهم كانوا متحصنين خلف صخرة في أحد منعطفات واد غرغار.

انتصب واقفا فوق قمة تبعد عنهم 35م تقريبا وبرهن عن بسالة منقطعة النظير في استخفافه بخطر الموت؛ وكانت معه مجموعة من المرتزقة على يساره ومجموعة أخرى على يمينه تقف على المنحدر الغربي الوعر المشرف على واد غرغار؛ فزحف أحدُ ضباطه على بطنه نحو موقع المتمردين في أسفل الوادي الجاف إلى أن صار على بُعد حوالي 30 مترا منهم.

توقف المرتزقة في أحد منعطفات الواد وأخذوا مواقع دفاعية في كل جهة لحماية مؤخرة مجموعة المظليين من أي هجوم محتمل من طرف المتمردين الذين كان من بينهم اثنان من أحسن الرماة بواسطة البندقة القاذفة للقنابل اليدوية ولكنهم لم يتمكنوا من استعمالها لأن المظليين كانوا قريبين جدا منهم مما قد يعرض الرماة إلى شظايا القذائف.

اتخذ الملازم أول، قائد المرتزقة، موقعَه إلى جانب النقيب، قائد المظليين، ولما انتصب هذا الأخير واقفا على بُعد مسافة قصيرة من المتمردين أصابته رصاصةٌ أسقطته أرضا فأسرع ممرضُ فرقة المظليين لإسعافه تحت أزيز رصاص المتمردين.

أُصيب الضابط الذي كان يتقدم زحفا إلى أسفل الوادي برصاصة من الخلف ولم يكن بد من أن يُصاب إما في ظهره أو رأسه أو أحد أطرافه نظرا إلى أنه كان يزحف على بطنه باتجاه المتمردين.

أسرع أحد المرتزقة الألمان لإسعافه تحت وابل رصاص المتمردين وانتصب مساعدُه وهو رقيبٌ ألماني من قدماء المحاربين في الهند الصينية أمام الجريحين لحمايتهما بمسدسه.

تسلق أحد الرماة المرتزقة السفح الغربي لواد غرغار ليتمركز فوق أرضية صخرية تُشرف على الواد فشرع يطلق بعض العيارات النارية صوب الصخرة التي كان المتمردون يحتمون خلفها لإجبارهم على وقف إطلاق النار.

أشعل أحد المرتزقة، برتبة ملازم أول، فتيل قنبلة يدوية فانبرى العريفُ، رئيس فرقة المرتزقة المشاة، لحماية الملازم بواسطة بندقيته الرشاشة حين همَّ برمي القنبلة. أصابته رصاصة في الكتف وجُرح اثنان من المرتزقة كانا خلفه.

انفجرت القنبلة اليدوية وسط مجموعة المتمردين الخمسة فهجم عليهم الملازم أول على يمينهم وثلاثة مرتزقة على يسارهم. قُتل أربعة متمردين وأُسر واحد.

هبطت طائرة هليكوبتر في قعر الواد لنقل اثنين من المظليين كانا يلفظان أنفاسهما وبجانبهما ثلاثة من المرتزقة الجرحى.

خسر المتمردون 38 قتيلا و28 قطعة سلاح أي ما يساوي حجم الخسائر البشرية وثلاثة أضعاف قطع السلاح التي فقدوها يوم 14 فيفري مقابل خسائر أصدقائنا التي هي أخف من ذلك ستة مرات.

كان رجال لغرور عباس يقاتلون بنسبة رجل واحد مقابل اثنين، في فيفري، أما في مارس فلقد تسبب 30 مرتزقا في جل خسائرهم حين هاجموهم بنسبة رجل واحد ضد رجلين ومن طرف ربابنة طائرات الهليكوبتر الذين تكفلوا بنقلهم ومن طرف طيارين اثنين قاما بتدعيمهم ومن طرف المراقب الجوي الذي أشرف على توجيههم.

لم يتلق المرتزقة تدريبا خاصا لإنجاز مثل هذه المهمات الخاصة حيث لا يمكن الاستغناء عن فِرق الصدام التي لا بديل عنها.

بيد أن المرتزقة يعرفون جيدا هذا النوع من الميادين القتالية ولقد تم ترويضهم على إلحاق أقصى ما يكمن من الخسائر بالمتمردين مع تكبُّد أقل ما يمكن من القتلى في صفوفهم.

لم يُوفَّق النقيب كروطوف في القضاء على لغرور عباس ولا أحد غيرُه تمكن من ذلك (باستثناء منافسيه في صفوف جبهة التحرير الوطني الذين يُحتمل جدا أنهم اغتالوه بعد سنة من ذلك التاريخ) وبعد ثلاثة شهور من موت النقيب كروطوف تمكن الكولونيل بيجار من إلحاق خسائر فادحة بهذه العصابة ولكنه لم يقتل لغرور عباس. أُصيب الكولونيل بيجار برصاصة فوق قلبه ولكنه نجا بأعجوبة مثلما نجا من الموت في معارك ديان بيان فو.

إثر هذه المعركة صرَّح اثنان من المظليين أن قد يكون صديقُهم قد قُتل برصاص البندقية الرشاشة التي كانت لدى المرتزقة. لا شك أن هذا الاحتمال الذي تعرَّض للتشويه مع مرور الوقت هو مصدر تلك الرواية التي تم نشرُها بعد ذلك.

لقد ثبت بعد التحريات أن الرامي واحدٌ من قدماء المحاربين في الهند الصينية المشهور برباطة جأشه وخبرته ومهارته في التسديد ولهذا السبب تم تحميلُه مسئولية تلك البندقية الرشاشة لأن سلامة رفاقه مرتبطة بحسن استعمالها إلى حد بعيد. لم يتواجد أيُ ضابط في منظور مرماه ويبدو أنه لم يضغط على الزناد إلا بعد أن أُصيب هذا الأخير وكان الرامي قبل ذلك يبحث عن المكان الأنسب للتموقع فيه.

ولقد خلُص التقرير إلى أن المرتزقة ساهموا بصورة فعالة في القضاء على تلك المجموعة المعادية فور وصولهم إلى ميدان المعركة بالإضافة إلى مساهمتهم في حماية مؤخرة القوات من أي هجوم محتمل من طرف المتمردين.

بدأ نوعٌ من الضجر يرتسم على ملامح بعض المرتزقة؛ ذلك أنهم بالرغم من حماسهم واندفاعهم في القتال كانوا يشعرون بالسأم من المُقام في تلك التخوم الصحراوية مقارنة بما ألِفوه في الهند الصينية حيث ينشب عدد أكبر من المعارك

وحيث جمال المناظر الطبيعية ولطف أحوال الطقس وفُرص المغامرات الغرامية. لقد تطوع بعضُهم للخدمة في صفوف الجيش بالهند الصينية لمدة خمس سنوات أو تزيد والحال أن مدة المقام الإجباري لا تتعدى ثمانية وعشرين شهرا. أما في الجزائر فإن الكثير من المرتوقة الذين تنتهي مدة تعاقُدهم مع الجيش لا يسعون إلى تجديد تعاقدهم مما كان يتسبب في تناقص عدد القوات الإجمالي وتقلص عدد أعضاء كل فصيلة إلى 20 رجلا بالإضافة إلى بعض حالات فرار المرتزقة الذين كانوا يأملون أن تُعيدهم جبهة التحرير الوطني إلى بلدانهم عبر التراب التونسي.

حاول اثنان من المرتزقة الفرار في شهر ديسمبر ولكن المحاولة آلت إلى ما لا تحمد عقباه؛ ذلك أن القائد الذي عينته جبهة التحرير الوطني أجبرهما، بالقوة، على الانخراط في صفوفه بدل أن يعيدهما إلى بلدهما؛ ولقد أمر بإعدام أحدهما لأن الألغام التي كُلِّف بصناعتها لم تكن تنفجر؛ ويبدو أن الثاني قُتل أثناء عراك نشب بين المتمردين في حادثة من حوادث تصفية حسابات بينهم وما أكثرها.

ولقد فرَّ عدد كبير من المرتزقة من صفوف الكتيبة الأولى في بداية مارس 1956 لأنهم صدَّقوا دعايات جبهة التحرير الوطني التي كانت تعِدُهم بإرجاعهم إلى بلدانهم. يتعلق الأمر، على وجه الخصوص، ببعض المرتزقة الشباب ذوي الخبرة القليلة مقارنة بقدماء المحاربين والذين وهنت عزائمهم بسبب قسوة الأحوال المناخية والمعيشية وخشونة الظروف الطبيعية.

لم تكن فرق المرتزقة تعتبر حالات الفرار تلك ظاهرة مأساوية؛ بل كانت تُنسب عموما إلى مشاعر الحنين لأرض الوطن وللإحساس بالسأم والملل وكان يُعاقب عليها بالحبس لمدة ثلاثين يوما؛ وغالبا ما يستعيد الفار بعدها مكانه بين رفاقه الذي يضربون صفحا عما حدث. وغالبا ما يعود هؤلاء إلى القتال بضراوة مثيرة للانتباه فيحصلون على النياشين والأوسمة؛ وأما الفارون الذين يشاركون في القتال إلى جانب العدو فكانوا يُحاكمون من طرف محكمة عسكرية إذا ما أُلقي عليهم القبض.

تسمح دراسة سجلات الميدان بأخذ فكرة عن التوزيع التقريبي للمرتزقة حسب جنسياتهم: يمثل الألمان والناطقون باللغة الجرمانية 44٪ ويمثل الفرنسيون والناطقون باللغة الفرنسية 21٪ ويمثل الإيطاليون 13٪ ويمثل السلاف 10٪ (خصوصا منهم البولونيون والتشيك) ويمثل الأسبان 5٪ ويمثل المجريون 3٪ والباقي من جنسيات مختلفة أو غير محددة ولقد قاتل بعضُ هؤلاء في صفوف الجيوش التي خاضت غمار الحرب العالمية الثانية غير أن أكبر نسبة منهم حاربت في الهند الصينية. ثم أضحى عددُهم في تناقص مستمر بسبب عدم تجديد عقود الانخراط؛ وبموازاة ذلك أخذت نسبة المرتزقة الشباب، القادمين من مراكز التدريب، ترتفع باستمرار وحين يلتحقون بالجيش يجدون أنفسهم وسط قدماء المحاربين الذين لا يبخلون عليهم بتجاربهم وخبراتهم السابقة. ينتمي هؤلاء المرتزقة إلى فئات اجتماعية متباينة غير أن معظمهم عُمّالٌ قدامى.

بالرغم من تلك الاختلافات من حيث الجنسية واللغة والطبقة الاجتماعية والديانة إلا أن هذه الفرقة كانت متناسقة بشكل رائع وتتميز بروح عالية من التضامن بينها وبين ضباطها مع تمتعها بنوع من حرية التعبير وروح الفكاهة والدعابة والاستعداد الكبير لإنجاز الأعمال الخارجة عن نطاق المهام العسكرية (معالجة المرضى تعليم الأطفال أداء شتى الأعمال الخ..) كانوا يتمتعون برباطة الجأش وكانوا رماة مرهوبي الجانب.

يعود تواجد هؤلاء الرجال في صفوف المرتزقة إلى عدد من الأسباب: البطالة؛ خيبة الأمل في الحياة العاطفية؛ سوء العلاقات الأسرية؛ حب المغامرة؛ الانجذاب نحو المهنة العسكرية؛ وبالنسبة لبعض الفرق المتميزة تأتي في مقدمة الأسباب بعض المشاكل مع الشرطة ومع القضاء بالنسبة للبعض الآخر؛ كما كان الكثير منهم لاجئين سياسيين هاربين من الأنظمة الديكتاتورية الشيوعية.

03. تشرذم عصابة لغرور عباس ومعارك الربيع سنة 1956

خسر لغرور عباس 83 قتيلا و40 قطعة سلاح في أقل من شهر ولا شك أن العديد من الجرحى الذين سقطوا يوم 14 فيفري يكونون قد ماتوا؛ ومهما يكن فلقد بقي أنصارُه على قدر عال من الحزم والعزم.

اكتشف المرتزقة المواقع التي كان لغرور عباس يأوِي إليها في كل من جديدة وواد غرغار وبدأت الشبهات تحوم حول مواقعه في بويقظان. ولا غرو أنه يكون قد انسحب إلى واد الهلايل حيث تتوفر المياه والمغارات الحصينة. ولكنه لم يكن مطمئن البال هناك مما جعله يتمادى في التنقل باستمرار بين واد قنطيس وواد العرب باعتبارهما من المعاقل المفضلة لديه بالرغم من ضيق مساحتها واكتشاف أمرها من طرف المرتزقة.

نشر عددا من المقاتلين بين واد غرغار وواد قنطيس ثم قفل راجعا، رفقة حوالي 150 من رجاله، إلى المنطقة الصخرية في بويقظان.

اعترفت الحكومة الفرنسية باستقلال كل من تونس والمغرب فتحول كلا البلدين إلى قواعد خلفية للقوات النظامية التي جنَّدتها جبهة التحرير الوطني.

أُرسلت وحدات القوات المسلحة الفرنسية إلى الجزائر وتم استدعاء عدد كبير من ضباط الاحتياط للإشراف على تدريبهم.

استُخدمت هذه القوات لتأمين سلامة المزارع والجسور ومحطات القطارات والتجمعات السكنية وشتى المواقع الحساسة وتطويق بعض المناطق وشن المعارك ضد قوات جبهة التحرير الوطني. وعمَّت موجةٌ من الاحتجاجات في جميع أرجاء فرنسا حيث كان قسمٌ من الرأي العام يؤيد نضال جبهة التحرير الوطني.

تلقَّت عصابات المتمردين المتمركزة في واد الهلايل تعزيزات بشرية وإمدادات بالسلاح والذخيرة انطلاقا من الأراضي التونسية وكانت تلك القوات تعمل بالتنسيق مع لغرور عباس.

فهاجمت، في مطلع أفريل، كتيبة من القوات الكولونيالية في نواحي الجُرف. أُعلن عن سقوط 32 قتيلا في الجانب الفرنسي من بينهم ملازم أول وطالب ضابط. تحركت فصيلتان تابعتان للكتيبة 23 من قوات المرتزقة المحمولة، كانت متمركزة في بئر العاتر، لملاحقة المتمردين فخسرت اثنين من رجالها أحدهما ضابط صف.

بعد ذلك نشبت المعارك في الجزء الغربي من جبال النمامشة. وفي منتصف أفريل؛ قامت الكتيبة الثالثة التابعة لنصف الزمرة من القوات المرتزقة المحمولة بعملية إنزال بواسطة طائرات الهليكوبتر فوق منطقة رأس عائشة وهي عبارة عن مضيق جبلي قرب بويقظان حيث سبق لعباس لغرور، في مطلع ديسمبر 1954، أن ضيَّق الخناق على فصيلة من القناصة الجزائريين كانت تحت إمرة المقدم ميكال. خسر المتمردون 12 قتيلا و8 بنادق.

في 26 أفريل هاجم المتمردون الكتيبة الثامنة المتمركزة في سيار فأصابوا جريحا واحدا في صفوفها؛ ثم لاحقتهم بمساعدة مجوعة من الحركى بقيادة ملازم أول مسئول عن المصالح الأهلية ومعه طبيبٌ مرشح لرتبة ضابط احتياطي.

وفي 28 أفريل وقع، في منخفض بويقظان، اشتباكٌ بين الكتيبة الثالثة القادمة من جلال وبين مجموعة من المتمردين قوامها 150 رجلا من رجال لغرور عباس. حطت 5 طائرات هليكوبتر في سيار لنقل 29 من الجنود المرتزقة رفقة الملازم أول المساعد الذي أشرف على قيادة الفصيلة المحمولة جوا يوم 9 مارس في واد غرغار. أُصيبت طائرات الهليكوبتر بوابل من رصاص المتمردين ولكن لم تشب النيران في أية واحدة منها ولم يُصب أيٌّ من ركابها بأذى ونزل المرتزقة في نقطة تقع أسفل موقع المتمردين ولكن لم يتمكنوا من الزحف نحوهم؛ فسارعت أربع كتائب لنجدتهم. صمد لغرور عباس في موقعه إلى غاية حلول الليل فتمكن من الإفلات مرة أخرى تاركا 6 قتلى ومسدسا واحدا فوق أرض المعركة. تكبد المرتزقة 3 قتلى وجريحين اثنين وأُصيبت طائرات الهليكوبتر بأضرار.

في 30 أفريل شنَّ لغرور عباس مناوشات ضد المركز العسكري في سيار.

تولى الكولونيل روسي قيادة كتائب المرتزقة المتمركزة بالهضبة شبه الصحراوية في زريبة الواد وبئر العاتر. ثم خلفه في ذلك المنصب كل من الكولونيل مارغي (Marguet) والكولونيل سينييس (Segnés).

أُدخلت تعديلات على هيكلة القوات الفرنسية في منطقة النمامشة؛ فأُرسلت نصف الزمرة الثالثة من هناك إلى ساحل منطقة القبائل وتم تعويضها بكتيبة كولونيالية تتألف في معظمها من الزنوج تمركزت في واد العرب وتكفلت أيضا بمركز جلاَّل في حين مكث نصف الزمرة الأولى في مواقعه بتبردغة.

تجمعت عناصر نصف الزمرة الثانية في سيار وعوَّضتها القوات الكولونيالية التابعة للكتيبة المتمركزة في زوي.

قتلت فرقة المظليين الكولونياليين الثانية، التابعة للكولونيل شاطو جوبير، ما يقرب من 15 متمردا في نواحي قنطيس في شهر ماي 1956 واستولت على أسلحتهم.

في شهر جوان رجعت الكتيبة الثالثة من بلاد القبائل وحلت محل الكتيبة الثانية في سيار فانتقلت هذه الأخيرة إلى بلاد القبائل بغرض الاستراحة هناك نظريا؛ وتم تكليف الكتيبة الثانية بحراسة بعض المراكز العسكرية وخفر قوافل العسكر في منطقة كثيرة الأشجار تختلف عن التخوم الصحراوية التي اعتادت العمل فيها.

في شهر أوت كانت فصيلةٌ من الكتيبة الخامسة محمولة على متن شاحنتين في طريقها عبر ممر سالمة الجبلي بالقرب من زيامة منصورية فتعرضت لهجوم من طرف مجموعة متمردين قوامها قرابة 100 رجل مزودين ببندقيتين رشاشتين. قُتل 15 من المرتزقة من أصل 26 الذين تتألف منهم الفصيلة وكان من بينهم الملازم هيرفيو (Hervieux) مع مساعده الرقيب أول وجُرح 9. قبل أن يسلم المرتزقة أرواحهم بادروا إلى نزع إبر القدح من بنادقهم لكيلا يتمكن المتمردون من استعمالها.

ظل الجرحى يقاومون إلى غاية وصول الكتيبة السابعة التي ألجأت المتمردين إلى الفرار. ولقد ترك هؤلاء على أرض المعركة 13 قتيلا.

في شهر أوت 1956 اشتبكت الكتيبة الثامنة مرتين مع المتمردين وأصيب ثلاثة من عناصرها بجروح. في تلك الأثناء لم يبق في جبال النمامشة سوى كتيبتين وكان لغرور عباس قد أعاد تشكيل عصابته وعوَّض الخسائر البشرية التي تكبدها خلال الربيع.

في جوان 1956 عاد من جديد ليتمركز في مغارات العامرة قرب تابِردقة أي في نفس المنطقة التي خاض فيها معركة كبيرة ضد القوات الفرنسية في فيفري؛ ولقد ظل كعادته تحدوه نفس العزيمة والإصرار بل صار من الواضح أنه يبحث عن المواجهة المباشرة.

أُرسلت كتيبة المظليين الكولونيالية بقيادة الكولونيل بيجار إلى منطقة النمامشة. وكانت كتيبة ممتازة وهي وريثة الكتيبة الثالثة من قوات المظليين الكولونياليين التي تم إنزالها، في سنة 1950، على الطريق رقم 4 لمحاولة إنقاذ ما تبقى من فلول الكتائب الفرنسية التي دمَّرها الجيش الشيوعي الفيتنامي.

يعتبر بيجار من الوجوه البارزة في الجيش الفرنسي وكان على رأس الكتيبة السادسة من المظليين الكولونياليين في الهند الصينية وحارب الفيات منه (Vietminh) في تايلاند. ولقد استمات في القتال على رأس كتيبته التي تم إنزالها في ديان بيان فو سنة 1954.

وفي بلاد القبائل تمكن، على رأس فرقة المظليين الكولونيالية، من القبض على سرية تتألف من 150 عنصرا من القناصة الجزائريين فرُّوا من الجيش الفرنسي فأبادهم عن آخرهم.

كان بيجار خصما لدودا لعباس لغرور والعكس صحيح أيضا.

4. هزيمة لغرور عباس، جوان - سبتمبر 1956

لغرور عباس يواجه بيجار

تطور الوضعية العامة

هزيمة لغرور عباس

في بداية شهر جوان 1956 شنَّ الجنرال فانوكسيم (Vanuxim) عملية هجومية واسعة النطاق ضد عصابات لغرور عباس.

ولقد أشاد بيجار، في مذكراته، بشجاعة الجنرال فانوكسيم وكفاءته في الهند الصينية ووصفه كرجل متصلب خشن الطبع غير متسامح لا يعير للمشاعر أدنى قيمة. غير أنه في أعماقه شخصٌ حسّاس عكس مظهره المتشدد.

أما كلوسترمان (Clostermann) فأطلق عليه، في كتابه sur l'oued Hallail Appui feu، كنية أوكسيفنت (Uxevent) باعتباره من قدماء خريجي مدرسة المعلمين ووصفه بالرجل السمح ذي النظرة الفولاذية والشخصية الحديدية وقال عنه إنه تولى المسئولية في منطقة جهنمية حيث كان يواجه أحسن العصابات المتمردة تنظيما وأقواها تسليحا في طول الجزائر وعرضها وهي متمركزة في منطقة مرعبة أحرقت الشمس أديمها.

كان الجنرال فانوكسيم يشارك بصورة فعلية حين اندلاع المعارك.

ذات مرة أدَّت إحدى فرق الكومندوس استعراضا أمام الجنرال حاولت أثناءه تمثيل حالة هجوم على أحد الحراس؛ وتضمن الاستعراض لقطة يتظاهر فيها الجندي المهاجم بأنه غرز خنجرا في ظهر الحارس الضحية (وكان هذا الأخير قد ثبَّت في ظهره قطعة خشبية ثخينة ليُغرز فيها الخنجر دون إصابته في ظهره) قام الكومندوس بتمارين تطبيقية عديدة ولم يحدث في أية مرة أن اخترق الخنجر الخشبة مما جعل رئيس الفوج يوافق، ولو على مضض، بإجراء الاستعراض. امتقع

وجه الجنرال حين خُيِّل إليه بأن المرتزق قد تلقى طعنة خنجر حقيقية ثم انفرجت أساريره بعد أن علم بأنه كان ضحية مزحة مقصودة. وكانت ملامح الجنرال توحي بأنه شخص حسّاس ومثالي.

لم تكن فرق المرتزقة تبادر بالهجوم حين يكون المتمردون متحصنين جيدا لتجنب وقوع خسائر في صفوفها تفوق حجم خسائر خصمها الذي يروم تحقيق هذا الهدف بالذات.

كان المرتزقة يتقدمون حين يتولى أحد العناصر إطلاق الرصاص لتغطية تقدم رفاقه وهكذا دواليك. هذا التكتيك يُلحق بالمتمردين خسائر تفوق ما تُلحقه القوات النظامية. لم يُصدر الجنرال فانوكسيم أبدا أمرا بالهجوم حين تكون القوات المتحاربة قريبة جدا من بعضها وحين يشعر بأن الهجوم سيكلف ثمنا باهظا مقابل نتائج ضئيلة.

ذات يوم عادت طائرة هليكوبتر إلى تابِردقة بعد أن حققت مهمتها بنجاح فبادر الجنرال إلى تقبيل الملازم أول إثر وصوله ثم وضع على خد المرتزق الذي يليه في الصف قبلة أخرى غير أن هذا الأخير مرتزق ألماني شاب سبق له أن فرَّ من الصفوف على أمل أن تُرسله جبهة التحرير الوطني إلى تونس ومنها إلى ألمانيا. حاول المتمردون تجنيده في صفوفهم بالقوة وكم كانت فرحة الجندي الفار عظيمة حين عثر عليه زملاؤه بعد القضاء على تلك العصابة عن آخرها.

ارتبك الجنرال فانوكسيم حين علِم بأنه وضع قبلة على خد أحد الفارين ثم بادره الملازم أول بالقول: " إذا قبَّلتَ الفارين قبلة واحدة فلا بد من تقبيل المقاتلين البواسل مرتين".

تذكر الجنرال مزحة الجندي المطعون بالخنجر فتيقن بأن هذه مزحة جديدة تعمَّد فيها الجنود وضع الجندي الفار في المقدمة لكي يتلقى قبلة الجنرال. ففضَّل الجنرال الضحك على الوضعية ولم يعاتبه على شيء من ذلك.

أفلح الجنرال في القضاء على جزء كبير من عصابات المتمردين في جبال الأوراس والنمامشة وهي أقوى وأخطر قلاع جبهة التحرير الوطني في الفترة ما بين سنة 1954 و1957 قبل أن تتقهر إلى المرتبة الثانية بعد منطقة القبائل. وفي سنة 1958 انتصر الجنرال في معركة الحاجز (المكهرب) ضد القوات النظامية التابعة لجبهة التحرير الوطني المتمركزة في الأراضي التونسية وكبّد هذه الأخيرة خسائر فادحة. كان الجنرال فانوكسيم من معارضي فكرة التخلي عن الجزائر لصالح جبهة التحرير الوطني من غير تنظيم انتخابات حرة فوقف ضد الجنرال ديغول وبهذا حطّم مساره العسكري عن وعي ودراية لكي لا يضطر إلى التنكر لقناعاته الشخصية فأُدخل السجن.

حين غادرت قوات المجندين وقوات الاحتياط الأراضي الفرنسية إلى الجزائر أُصيب الجنود ببعض الذهول بسبب المظاهرات المناهضة لحرب الجزائر في البلد الأم. ومهما يكن فلقد أُرسل قسم من تلك القوات إلى منطقة الأوراس والنمامشة.

اتُهم الجنرال فانوكسيم بأنه صرَّح لأولئك المجندين أنه سوف يضعهم في مقدمة صفوف المرتزقة والمظليين؛ والحقيقة أنه قال لهم سوف يضع فيهم نفس القدر من الثقة الذي وضعه في المرتزقة والمظليين وهذا أكثر انسجاما مع أسلوبه المعهود وأكثر تطابقا مع طبعه.

تدعي بعض الكتابات أن المجندين وقوات الاحتياط كان يعوزها التكوين والتأطير وهذا غير صحيح إطلاقا. ففي مراكز تدريب المجندين الفرنسيين والجزائريين، بالبلد الأم، كان معظم الإطارات ضباطا في قوات القناصة والمرتزقة ولقد كان هؤلاء في حالة نقاهة بفرنسا بعد إصابتهم بجروح أو أمراض في الجزائر، حيث كانوا يقاتلون، ثم أصبحوا يقدمون للمجندين تكوينا عسكريا مكثفا لا ينقصه شيء مما يتلقاه القناصة الجزائريون والمرتزقة.

ضربت وحدات المجندين أروع الأمثلة طيلة مقامها في منطقة الأوراس والنمامشة بالرغم من أن بعضها عرف بعض الاضطراب حين مغادرتها فرنسا. لكن

أفلح الجنرال في القضاء على جزء كبير من عصابات المتمردين في جبال الأوراس والنمامشة وهي أقوى وأخطر قلاع جبهة التحرير الوطني في الفترة ما بين سنة 1954 و1957 قبل أن تتقهر إلى المرتبة الثانية بعد منطقة القبائل. وفي سنة 1958 انتصر الجنرال في معركة الحاجز (المكهرب) ضد القوات النظامية التابعة لجبهة التحرير الوطني المتمركزة في الأراضي التونسية وكبَّد هذه الأخيرة خسائر فادحة. كان الجنرال فانوكسيم من معارضي فكرة التخلي عن الجزائر لصالح جبهة التحرير الوطني من غير تنظيم انتخابات حرة فوقف ضد الجنرال ديغول وبهذا حطَّم مساره العسكري عن وعي ودراية لكي لا يضطر إلى التنكر لقناعاته الشخصية فأُدخل السجن.

حين غادرت قوات المجندين وقوات الاحتياط الأراضي الفرنسية إلى الجزائر أُصيب الجنود ببعض الذهول بسبب المظاهرات المناهضة لحرب الجزائر في البلد الأم. ومهما يكن فلقد أُرسل قسم من تلك القوات إلى منطقة الأوراس والنمامشة.

اتُهم الجنرال فانوكسيم بأنه صرَّح لأولئك المجندين أنه سوف يضعهم في مقدمة صفوف المرتزقة والمظليين؛ والحقيقة أنه قال لهم سوف يضع فيهم نفس القدر من الثقة الذي وضعه في المرتزقة والمظليين وهذا أكثر انسجاما مع أسلوبه المعهود وأكثر تطابقا مع طبعه.

تدعي بعض الكتابات أن المجندين وقوات الاحتياط كان يعوزها التكوين والتأطير وهذا غير صحيح إطلاقا. ففي مراكز تدريب المجندين الفرنسيين والجزائريين، بالبلد الأم، كان معظم الإطارات ضباطا في قوات القناصة والمرتزقة ولقد كان هؤلاء في حالة نقاهة بفرنسا بعد إصابتهم بجروح أو أمراض في الجزائر، حيث كانوا يقاتلون، ثم أصبحوا يقدمون للمجندين تكوينا عسكريا مكثفا لا ينقصه شيء مما يتلقاه القناصة الجزائريون والمرتزقة.

ضربت وحدات المجندين أروع الأمثلة طيلة مقامها في منطقة الأوراس والنمامشة بالرغم من أن بعضها عرف بعض الاضطراب حين مغادرتها فرنسا. لكن

بعد الوصول إلى الجزائر سرعان ما تبيَّن للمجندين أن جبهة التحرير الوطني لم تكن بمثل تلك الطيبة التي حدَّثهم عنها البعض في فرنسا فشرعوا يتصرفون كما يتصرف العسكر المحترفون. وكانت إطاراتهم في المستوى المطلوب ذلك أن الإشراف على قيادة قوات قليلة الخبرة والتجربة أصعب بكثير من قيادة جنود محترفين. كثيرا ما تم انتداب بعض الضباط من قوات المظليين لقيادة فرق المجندين بغرض تمرير خبراتهم إلى بعض الإطارات التي لم تُشارك في الحرب من قبل.

شارك كثيرٌ من القناصة الجزائريين في القتال الضاري ضد جبهة التحرير الوطني التي كانوا يمقتونها؛ ولقد تطوع عدد كبيرٌ من المجندين المسلمين للعمل في صفوف المظليين وقوات الكومندوس.

هكذا لم تكن حقائق الميدان تتوافق مع ادعاءات المعلقين الذين يدافعون عن بعض الأطروحات التي لا تمت بصلة إلى الواقع الذي يجهلونه.

كان المجندون الشباب، في حالة وقوع خسائر في صفوفهم، أكثر تأثُّرا وانفعالا من الجنود المحترفين الذين كانوا أكثر استعدادا لقبول الأمر الواقع حين يُقتل بعضُ رفاقهم في الحرب؛ وهذا ما يفسر وقوع بعض التجاوزات من طرف المجندين أكثر مما تقع على يد العسكر المحترفين وهو عكس ما يعتقد الناس عادة.

على الساعة الواحدة من صباح يوم 8 جوان 1956 غادر الكولونيل بيجار مدينة قنطيس على رأس قوة تتألف من 800 مرتزقة للتوغل في مكان شبيه بيوم القيامة حسب ما أورده في مذكراته فأمضى يومه في تفتيش المناطق الصخرية الممتدة في اتجاه واد غرغار.

وفي الليلة الموالية شنَّ لغرور عباس هجوما ضد قوات المظليين. أُصيب 3 منهم بجروح وتم العثور على جثث 3 من المتمردين فوق الميدان. وفي الصباح الباكر واصل المظليون تقدمهم. كان لغرور عباس في انتظارهم على رأس 200 من

أُصيب الكولونيل بيجار برصاصة على بعد بضع سنتمترات من قلبه فنُقل على جناح السرعة بواسطة الهليكوبتر. خلفه مساعدُه، المقدم لونوار (Lenoir)، على رأس كتيبة المظليين الثالثة بصورة مؤقتة.

انسحب لغرور عباس خلال ليلة 16 إلى 17 جوان 1956 بعد المعركة التي وقعت في نواحي العامرة تاركا 31 قتيلا وكمية قليلة من الأسلحة. وكانت الخسائر، في صفوف المظليين، قتيلان اثنان وثمانية جرحى.

كان في إمكان لغرور عباس حشد أكثر من 500 رجل تحت إمرته ولكنه فضَّل المناورة بالاعتماد على مجموعة صغيرة من رجاله يتراوح عددها بين 150 و250 رجلا.

في يوم 21 جويلية شرعت الكتيبة الكولونيالية المتمركزة في جلاَّل في تفتيش منخفض بويقظان فاشتبكت هناك بقرابة مائة من المتمردين وسقط عدة قتلى في صفوف الكتيبة الفرنسية من بينهم ملازم أول.

تواصلت المعركة طوال يومين؛ غير أن رياحا رملية عاتية حالت دون تدخل الطائرات فتمكنت عصابة المتمردين من الانسحاب. ثم عادت بعد بضعة أيام إلى بويقظان آملة في أن يتم البحث عنها في مكان آخر غير أن القوات الفرنسية اكتشفت أمرها.

في يوم 31 جويلية 1956؛ شنت نصف الزمرة الأولى من اللفيف الأجنبي والكتيبة الثالثة من المظليين الكولونياليين هجوما مشتركا على منطقة بويقظان فقتلت 44 متمردا وأسرت 6 منهم واستولت على 32 مسدسا رشاشا وبندقية.

في فاتح أوت اكتشفت الطائرات مجموعة تتكون من 90 متمردا في أولحاج. وفي صبيحة اليوم الموالي حاصرها المظليون والمرتزقة فقضوا عليهم يوم 3 أوت بعد أن صمدوا ببسالة وسقط منهم 64 قتيلا وأُسر 8 وخسروا 39 مسدسا رشاشا وبندقية. سقط من الجانب الفرنسي 12 قتيلا و17 جريحا.

ومن جهتها كانت الكتيبة الثالثة تطوف في نواحي سيار باتجاه الوندورة وبويقظان وواد غريان وواد غرغار فاشتبكت مع مجموعة من المتمردين وتكبدت بعض الخسائر البشرية من بينها الملازم كولان (Colin) الذي قُتل يوم 13 أوت.

أعلن الكولونيل بيجار أن كتيبته تمكنت خلال بضعة أشهر من قتل 685 متمردا واستولت على 296 قطعة حربية وتكبدت 18 قتيلا و120 جريحا.

واصل لغرور عباس القتال في منطقة النمامشة ولم توهن الخسائر عزيمته. كان يتنقل خلال الليل بين بويقظان وواد غرغار ويستريح خلال النهار ويحرص على تقسيم عصابته إلى مجموعات صغيرة؛ وحين يُكتشف موقعُه يبذل وسعه للصمود في عين المكان حتى حلول الليل فينسحب تحت جناح الظلام.

في يوم 29 أوت 1956 تعرضت إحدى مجموعاته المتكونة من قرابة مائة رجل لهجوم مباغت في بويقظان. صمد المتمردون الذين كانوا في غاية التحصين في وجه المرتزقة إلى غاية الليل وتمكنوا من قتل 4 مرتزقة وإصابة 11 بجروح. فتوجهت بقية الكتيبة إلى عين المكان بأقصى سرعة ممكنة. فرَّ المتمردون خلال الليل تاركين على أرض المعركة 6 من قتلاهم و8 قطع من السلاح.

لقد تمكنوا من الخروج سالمين مرة أخرى غير أن زمام المبادرة ضاع من أيديهم ولم يعودوا قادرين على البدء بالهجوم قط بل أصبحوا في وضعية المطلوبين باستمرار واضطروا إلى الاكتفاء بالحرب الدفاعية التي صاروا متفوقين فيها. وحتى في حالة الدفاع كانوا يخسرون عددا كبير من الرجال يفوق خسائر القوات الفرنسية: ففي مدة أقل من ثلاثة شهور خسر لغرور عباس ما يربو عن 250 رجلا بالإضافة إلى ما تكبد من خسائر ثقيلة خلال شهري فيفري ومارس.

لقد مات قدماء المحاربين في صفوفه وأكثرهم خبرة ولم يكن المجندون الجدد على نفس المستوى من الحنكة كما أنهم خسروا قرابة 100 قطعة من السلاح.

كان لغرور عباس يتزود بالرجال والسلاح والذخيرة، قدر المستطاع، انطلاقا من الأراضي التونسية فتمكن من تعويض جزء من خسائره البشرية. لكن أعداءه صاروا الآن يتحكمون في الميدان مثله ولا يتركون له أدنى فرصة للإفلات.

لم يعد في مستطاع لغرور عباس حشد 300 رجل كما كان يفعل قبل شهر مارس 1956 ولا حتى مائة رجل، خلال صيف العام نفسه، ذلك أن أي تجمُّعات بهذه الضخامة كان يتم التبليغ عنها فور اكتشاف أمرها.

كما أن الميدان المناسب لمثل هذه التجمعات الهامة، بفضل وفرة مياهه وكثرة مغاراته ووعورة مسالكه، كان ضيقا جدا في واد غرغار وفي بويقظان مرورا بالعامرة فضلا عن أنه أصبح معروفا لدى القوات الفرنسية.

ثم إن شمال منطقة النمامشة الذي لا يتوفر على تكوينات صخرية شديدة الانكسار لم يكن بالمكان الملائم لإيواء عصابات كبيرة العدد.

اضطر لغرور عباس إلى تغيير تكتيكه فبادر إلى تقسيم قواته إلى مجموعة عصابات تضم كل واحدة منها قرابة خمسين رجل مع إمكانية انشطارها إلى مجموعات أصغر تتكون من خمسة عشر رجلا بحيث يصعب تحديد مواقعها. غير أن هذه المجموعات الصغيرة لم تعد قادرة على شنِّ هجمات واسعة النطاق بل آل أمرُها إلى البحث دوما على إخفاء نفسها حرصا على البقاء على قيد الحياة أطول مدة ممكنة.

أما القوات الفرنسية فلم تعد تتحرك في ميدان مجهول ولا تحت تهديد عدو تعلم أنه يتربص بها ولا تستطيع إمساكه. أصبحت هي المتحكمة في الميدان وراحت تتعقب خطى خصمها بعد أن تفتت مجموعاتُه وبدأت قوته تؤول إلى ضُعف. ولقد أدرك السكان ما استجد من انقلاب على الأوضاع. ولم يعد مناهضو جبهة التحرير يخشونها كما في السابق بل صاروا يتجرؤون على البوح بمكنون مشاعرهم. وتحولت المعارك الكبرى إلى اشتباكات محدودة الأهمية وأسفرت عن خسائر ثقيلة

الفصل الرابع

انتصاراتٌ فرنسيةٍ على الصعيد العسكري؛ ثم تورطٌ سياسي فانسحاب

معارك الحدود

بعد أن أُخذت جميع الخسائر في الحسبان تقرر إعادة توزيع قوات المرتزقة الأجانب مما أدى إلى التحركات التالية:

نُقلت السرايا المحمولة الثلاث من الهضبة الواقعة جنوب جبال النمامشة للالتحاق بفيلقها المرابط في جنوب القطاع الوهراني.

استُدعى فيلق اللفيف الأجنبي الرابع من المغرب وتقليصه إلى ست سرايا محمولة فانتدب سريتاه الرابعة والخامسة إلى موريتانيا وأقام السرايا الأربع الأخرى في الجزء الجنوبي والجنوبي الشرقي من جبال النمامشة.

تمركزت السرية الأولى في زريبة الواد والثانية في ليشانة ثم أولاد جلاّل؛ وراحت تجوب في طول وعرض منطقة مساحتها 2.500 كلم^2 محصورة بين الأوراس النمامشة وبين الشطوط ذات الأراضي الشديد الوعورة وشبه الصحراوية تغطي الرمال بعض أجزائها والحجارة بعضها الآخر وتقطعها وديان تفيض مياهها خلال فصلي الربيع والخريف. اكتشفت القوات الفرنسية بالقرب من شط ملغيغ قاعدة تموين كبيرة من قواعد جبهة التحرير حيث تم تخزين 15 طن من المؤن والألبسة. قتلت القوات الفرنسية قرابة 20 متمرد.

أما السرية السادسة فأُرسلت إلى نقرين حيث قضت على حوالي 20 متمرد في جبل ماردرا وجبل لبيض وكانت لبعض الوقت تحت قيادة النقيب أرنو ديفوارد (Arnaud de Foiard) الذي ترقى فيما بعد إلى رتبة كولونيل على رأس السرية الثانية من قوات اللفيف الأجنبي من سنة 1965 إلى 1967.

أما السرية الخامسة فتمركزت في بئر العاتر وشنت خمسة معارك ضد المتمردين المعتصمين بجبل فوا، ما بين أفريل وجوان، وكذلك في كل من جبل الكيفان ولبيض وأم الكماكم وغيفوف وخاصرة الجبل رقم 1008. قضت على ما يقرب من 60 متمردا وانتزعت منهم 5 مسدسات رشاشة وقرابة 40 بندقية. وخلال شهر ماي شنت السرية الثانية من قوات المظليين الأجانب بمعية السرية السادسة من قوات السبايس والسرية السادسة المدرعة هجوما على جبل الكماكم (1.217م) فقتلت 200 متمردا وأسرت 30 واستحوذت على كمية معتبرة من الأسلحة.

كانت السرية الرابعة من قوات اللفيف الأجنبي بقيادة الكولونيل لومونيي (Lemeunier) سبق له أن نُصِّب، في مارس 1954، على رأس نصف زمرة اللفيف الأجنبي الثالثة عشر، إثر موت الكولونيل غوشي (Gaucher) وأُرسل إلى ديان بيان فو لتولي قيادة ما بقى من فلول نصف زمرة اللفيف الأجنبي هناك.

في 13 جوان 1957؛ تمكنت السرية الثامنة من قوات المظليين الكولونياليين من إلحاق الهزيمة بعصابة من المتمردين كبيرة العدد وذلك بدعم من طرف السرية المدرعة السادسة والسرية السادسة من قوات السبايس المغاربة.

تكبد المتمردون 135 قتيلا و24 وخسروا 133 قطعة سلاح. وسقط من الجانب الفرنسي 14 قتيلا، من بينهم الملازم لوترفينغ (Lauterging)، و24 جريحا.

في شهر جوان 1957 استقالت حكومة غي مولي وتم تعويضها بحكومة راديكالية برئاسة بورجيس مونوري (Bourgès-Maunoury) مع الاشتراكي لاكوست (Lacoste) حاكما عاما في الجزائر ولوجون (Lejeune) على منطقة الصحراء والراديكالي أندري موريس (André Morice) على رأس وزارة الدفاع.

شُرع، في تلك الأثناء، في إقامة حاجز من الأسلاك الشائكة على الحدود التونسية للحد من تسرب قوات جبهة التحرير من الأراضي التونسية نحو الأراضي الجزائرية. وهي فكرة مقتبسة عن الماريشال ديلاتر ديتاسيني (de Lattre de Tassigny) في الهند الصينية: فبعد هزيمة كاو بنغ هناك أنشأ تحصينات من الخرسانة حول دلتا طونكين لصد القوات النظامية الفيتنامية عن مهاجمته. ولئن تمكن من دحر هجماتها إلا أنه لم ينجح للقضاء على قوات فيات منه التي كانت تقاتل داخل الدلتا.

كان الجنرال فانوكسيم، الذي سبق أن كان على رأس الفرق المتنقلة في دلتا طونكين، يودُّ تكرار نفس التكتيك في الجزائر ولكن بواسطة الأسلاك الشائكة بدل الخرسانة. وكان يحظى بتأييد ومساندة ماكس لوجون (Max Lejeune) والجنرال سالان (Salan) وأندري موريس.

تمت كهربة ذلك السد المصنوع من الأسلاك الشائكة وزُرعت الألغام في ثناياه وتم رصدُ النقاط التي يمرُّ المتمردون عبرها. وكلما تم التبليغ عن أي تحرك من طرفهم تتحرك القوات المدرعة والمشاة في أعقابهم فتقع مجموعات المتمردين فيما يشبه الصعقة حين تصطدم بالحاجز الثاني الذي نُصب أمامها على بُعد حوالي خمسين كلم غربا.

يبلغ طول هذا السد 300 كلم من شاطئ البحر إلى غاية نقرين. وكانت الرادارات، في جزئه الجنوبي، تترصد أدنى حركة وخصوصا أثناء الليل. كما شُيد خطٌّ مكهرب شبيه بهذا على الحدود المغربية.

في شهر جويلية 1957 خلف الكولونيل لوموني (Lemeunier) قيادة القطاع العسكري في تبسة خلافا للجنرال دي بويي (de Pouilly). ولقد تولى هذا الأخير، فيما بعد، قيادة الجيش المرابط بوهران سنة 1961.[17]

17. كان الكولونيل فوركاد (Fourcade)، قائد السرية الثامنة من قوات المظليين الكولونياليين، قد حل بالهند الصينية سنة 1937 وشارك في مقاومة الهجوم الياباني في شهر مارس 1945 ضد القوات الفرنسية. كما شارك في تراجع القوات إلى الصين ثم رجع إلى طونكين على رأس كومندوس لمحاربة اليابانيين. وابتداء من سنة 1951 تولى قيادة سرية من المظليين الكولونياليين وشكّل قوات كومندوس فيتنامية لمحاربة الشيوعيين الفيتناميين. وفي نوفمبر 1953، خلال احتلال ديان بيان فو. كان على رأس الفوج الأول من القوات المحمولة جوا.

خلال صيف 1957؛ شنَّ شريف محمود هجوما في جنوب تبسة تكبد فيه سلسلة من الهزائم وخصوصا في نواحي واد الهلايل وفي مغارة اليهودي. قُتل من رجاله ما يربو من 250 رجل وخسر كدفع هاون من عيار 81 وآخر من عيار 50 ورشاشة و7 بنادق رشاشة ومسدسين رشاشين و192 بندقية حربية. ولقد بدا واضحا أن الأسلحة صارت وفيرة لديه أكثر من ذي قبل.

تم تكليف المقدم سورليي (Sourlier) بالإشراف على أشغال كهربة الجزء الجنوبي من حاجز الأسلاك الشائكة (على الحدود).

كان المقدم مقاتلا متميزا وقائدا لجوقة الشرف. وفي الواقع إن مساره العسكري مثال رمزي يجسد مسار كثير من أقرانه الضباط.[18]

كما أن مساعده، على رأس السرية الأولى والثانية من قوات اللفيف الأجنبي المرابطة جنوب جبال الأوراس والنمامشة، سبق له أن أُصيب بجروح خطيرة في إقليم كوشنشين في أواخر 1946 وتم إنقاذه من طرف أحد المرتزقة وأرجعه إلى الفيلق تحت وابل رصاص العدو.

أما مساعده الثاني، درموزي (Darmuzi)، فبقي على رأس الكتيبتين الرابعة والخامسة من قوات اللفيف الأجنبي التي كانت ترابط في موريتانيا: ولقد سبق له، في سنة 1951، أن تولى قيادة الفيلق الأول من المظليين في الهند الصينية. رُقي إلى رتبة كولونيل على رأس الفيلق الثاني من قوات المظليين في الليف الأجنبي سن 1961.

أما في معسكر جبهة التحرير الوطني فلقد فر كل من كريم وبن طوبال من الجزائر والتحقا بكل من أوعمران وشريف محمود في تونس. وفي نهاية شهر أوت 1957 عقد قادة جبهة التحرير الوطني اجتماعا بغرض إعادة هيكلة لجنة التنسيق

18. من مواليد سنة 1908؛ دخل مدرسة سان سير وعمره تسع عشرة عاما؛ وإثر تخرجه اختار العمل في صفوف اللفيف الأجنبي وعمره اثنان وعشرون عاما. عمل بالجزائر في صفوف الفيلق الأجنبي الأول من سنة 1929 إلى 1935 ثم في صفوف الفيلق الخامس في خليج طونكين. من سنة 1935 إلى 1938؛ وتم نقلُه بعد ذلك إلى سوريا ضمن صفوف الفيلق السادس من اللفيف الأجنبي.

والتنفيذ التي أصبحت تضم فضلا عن أبناء منطقة القبائل، كريم وعبان وأوعمران، كلا من بن طوبال بوصوف شريف محمود فرحات عباس ولمين دباغين.

ولقد تم اغتيال عبان، بعد مدة، من طرف خصومه في جبهة التحرير الوطني.

وتم تكليف كريم، بصورة خاصة، بمسائل العمل العسكري وكُلف أوعمران بشؤون التموين بالأسلحة والذخيرة وكُلف كل من فرحات عباس ولمين دباغين بالشؤون الدبلوماسية.

تم تعيين شريف محمود خلفا للعموري محمد على رأس الولاية الأولى بالأوراس والنمامشة؛ وتم تعيين علي كافي خلفا لبن طوبال على رأس الولاية الثانية (الشمال القسنطيني) ولقد حلَّ عميروش، فيما بعد، محل محمدي السعيد على رأس الولاية الثالثة (بلاد القبائل) وخلف كل من الكولونيل صادق ثم سي محمَّد مكان أوعمران على رأس الولاية الرابعة (القطاع الأوسط) ولكنه قُتل على يد القوات الفرنسية فتم تعويضه من طرف بومدين. وبعد مدة أُسندت إلى سي الحواس قيادة الولاية السادسة (الصحراء) وقُتل على يد القوات الفرنسية، مثل عميروش، في سنة 1959.

عمليات التهدئة في القسم الغربي من جبال النمامشة

في حين كانت قوات جبهة التحرير تحاول عبثًا التسلل من الأراضي التونسية إلى جبال النمامشة فإن عمليات التهدئة استمرت في قلب تلك المنطقة من أفريل إلى أوت 1957.

واصلت القوات الفرنسية تفتيش كل زاوية وركن في جبل النمامشة بحثا عن بقايا عصابات المتمردين كما واصلت مراقبة القرى والتجمعات السكانية وتوسيع الطرق غير المعبدة ومطاردة الأطفال (التائهين) وتقديم العلاج للمرضى والانتشار بين صفوف العشائر.

وخلال بعض المناوشات الصغيرة تكبدت عصابات المتمردين أفدح الخسائر.

جرت أهم المعارك وأبرزها يوم 23 ماي 1957 قرب واد غريان، أحد روافد واد غرغار بين سيار وقنطيس، وجرت معركة أخرى يوم 31 جوان في رأس الكاف حيث أُسر أحد القادة يدعى الباريسي وكان يحاول إعادة تشكيل عصابات لغرور عباس في هذه المنطقة. وفي تلك الظروف قُتل الملازم أول كاستيكس (Castex) من الكتيبة الخامسة التابعة لنصف زمرة اللفيف الأجنبي؛ وهو ثاني الضباط الذين قُتلوا في صفوف هذه الكتيبة خلال شهور.

واندلعت معركة أخرى بالقرب من زوي قُتل خلالها رقيبٌ في صفوف الكتيبة الثانية ثم معركة أخرى في شهر أوت في منطقة الوندورة على الطريق الرابط بين العامرة وسيار؛ وفي شهر سبتمبر قُتل الملازم أول برودوم (Prudhomme) وهو ضابط استعلامات في صفوف الكتيبة الخامسة.

وأُصيب الملازم أول ج خلال جولة ليلية حين التقت دوريته بقرابة أربعين متمرد ولكنها لم تتمكن من إلقاء القبض عليهم.

تعددت المعارك في تلك المرحلة الحساسة ولإعطاء صورة تقريبية عن أهمية العمليات نشير إلى أن الكتيبة التي كان مؤلف هذه السطور في صفوفها قد خسرت عددا من الرجال، خلال بضعة شهور قضتها في البحث عن فلول المتمردين، يساوي ما تكبدت من خسائر بشرية خلال ثمانية عشر شهرا من المعارك السابقة. ولكن لم يُصب أحد بجروح والحال أنها أحصت ما لا يقل عن عشرين جريحا في معارك الفترة السابقة؛ وتفسير ذلك في غاية البساطة: فعندما نعثر على أحد المتمردين مختبئا في أحد الأكواخ أو في مخيم فإن رصاصاته تقتل البعض منا إذا ما بدأ هو بإطلاق النار.

كان ضباط فرقة المرتزقة يعرفون أسماء كثير من المتمردين الذين ما زالوا على قيد الحياة. وكانت عمليات المراقبة تتمثل في مباغتة قرية أو تجمع سكني وتطويقه بواسطة السيارات الخفيفة من نوع دودج (6X6 Dodge) التي كانت تسير بسهولة كبيرة فوق الأماكن الوعرة؛ وتستطيع كل سيارة حمل عشرة جنود يصطفون على جانبيها مصوبين أسلحتهم إلى الجهتين ليتمكنوا من إطلاق النار بسرعة أو النزول إلى الأرض إذا اقتضى الأمر مع الاحتفاظ ببندقية رشاشة على ظهر السيارة.

هذه القوات كانت تخفرها، في بعض الأحيان، مدرعات خفيفة تابعة لقوات الدرك المتنقلة التي كانت تحمل معها قوائم اسمية لدافعي الضرائب وقد أُشّر فيها على أسماء المتمردين المطلوب إلقاء القبض عليهم.

بناء على العرف الساري لدى السكان العرب والبربر يتم تعريف أي شخص بلقبه العائلي واسمه الشخصي واسم أبيه وفي بعض الحالات اسم جده لأبيه: فمثلا إن رمضاني مسعود بن براهيم بن سليمان يعني أن الشخص من عائلة رمضاني ويسمى مسعود وهو ابن براهيم وحفيد سليمان.

تتمثل مراقبة السكان في التعرف على الاسم العائلي والشخصي لساكني المشتى أو المخيم وكذا الاسم الشخصي للأب والجد. بذلك يمكن التعرف على شجرة العائلة وفي حالة ما إذا اندس بينهم أحد المتمردين فإنه يُكشف بمقارنة المعلومات المقدمة مع المعطيات المتوفرة أو كان يُبلّغ عنه من طرف خفي من أحد الشاوية الذين ضجروا من جبهة التحرير الوطني.

وهناك طريقة أخرى تتمثل في فرض حصار خلال الليل على أحدى المشاتي أو المداشر ثم الشروع في تفتيشها مع بزوغ الشمس: فإذا صادف أن قضى بعض المتمردين ليلته هناك وقع في القبض صباحا. تلك الطريقة جعلت الكثير من المتمردين يحجمون، شيئا فشيئا، عن طلب الإيواء لدى السكان وصاروا يفضلون الاختباء في المغارات مجازفين بأنفسهم فربما وقعوا في الأسر خلال عمليات التفتيش الدقيقة والشاملة. وهكذا ما فتئت أوضاعهم تزداد حرجا مما دفعهم إلى التنقل تحت ظلام الليل مع خطر الوقع في الكمائن الليلية التي كانت قواتنا تنصبها في النقاط التي يُفترض أنهم يعبرون منها.

قد يتساءل البعض عن عمليات التمشيط ما هي؟ إنها عبارة عن رصف أفراد المجموعة العسكرية على خط واحد للقيام بتفتيش مكان ما: تماما مثلما يفعل رجال الدرك، في البلد الأم، أثناء البحث عن المشبوهين أو بعض الأدلة المادية. يتعرض جميع الشاوية الذين يصادفهم العسكر في طريقهم للتفتيش بغرض التأكد

عما إذا كانوا مسلحين أم لا. ولم تكن النساء يخضعن للتفتيش حرصا على عدم خدش مشاعر المسلمين الشديدة الحساسية في هذا الشأن. وبالتالي كان بعض المتمردين يتنكرون في ثياب نسائية.

كان تفتيش المشاتي والتجمعات السكنية يتم بدون عنف. ولم يكن انتهاك الأعراض ممكنا بتاتا باعتبار أن العسكر كانوا يتحركون جماعيا ويخضعون لتأطير دائم ولم يكن في مقدور أي جندي الابتعاد عن المجموعة بدون تعريض نفسه للخطر لأن المتمردين المسلحين كانوا يختبئون في المشاتي وغالبا ما يلجؤون إلى حُفرٍ مطمورة ليس من اليسير اكتشافها.

في بعض الأحيان تعمد القيادة الفرنسية إلى مزج كتائب المدعوين لخدمة العلم مع كتائب اللفيف الأجنبي سعيا إلى المزاوجة بين العسكر المحترفين وبين المدعوين إلى الخدمة العسكرية غير المتمرسين مثل ما حدث في سنة 1793 بفرنسا.

عندما يصبح المجندون الجدد متمرِّسين كفاية يحلون حينئذ محل المرتزقة الذين يُرسلون إلى المناطق التي تندلع فيها الاضطرابات والقلاقل.

ولقد سمح تناقصُ عدد المتمردين بتوزيع القوات الفرنسية بصورة أحسن في المناطق التي يتواجد السكان فيها وبالتالي إعطاء أهمية أكبر للممارسات المرتبطة بالتهدئة بدل الاستمرار في تطبيق التقنيات العسكرية المحضة.

نُذكِّر القارئ بأن هذا الكتاب مخصص لدراسة حالة نموذجية من حرب العصابات والحرب المضادة لها في حيِّز جغرافي محدد هو جبال النمامشة القاحلة والوعرة.

ولقد سبق أن رأينا كيف استطاع أحد القادة الموهوبين، العاملين تحت إمرة جبهة التحرير الوطني، السيطرة على قرابة مائة ألف من السكان البربر وتمكن من مهاجمة القوات الفرنسية وكيف أمكن تضييق الخناق عليه، على الصعيد العسكري، بفضل عمليات التفتيش الدقيقة وبفضل تكتيك حربي يُعرف باسم "تكتيك الببغاء"

مما اضطره إلى القتال في وضعية دفاعية والاختباء وراء التراكمات الصخرية في الشعاب الجبلية وحيث تتوفر المغارات والسراديب التي تتيح له إمكانية الانسحاب. تتمثل تكتيك الببغاء في تقدم الجنود بصورة متدرجة في اتجاه مكمن المتمردين حيث يزحف أحد الجنود للاقتراب منهم مما يضطرهم إلى أن يطلوا برؤوسهم من فوق الصخور إذا ما أرادوا صدَّ المهاجمين؛ وحينئذ يتولى جندي آخر، متحفز في مكمنه، إطلاق النار عليهم. ثم يكف الجندي الزاحف عن الحركة فيبدأ الجندي المتحفز في الزحف محاولا الاحتماء بمنحيات الطريق قدر الإمكان إلى أن يصير أمام الجندي الأول وهكذا دواليك.

كان أحسنُ الرماة يحققون نتائج باهرة في هذا النمط من المقاتلة. وكانت تصوبيات الرماة بالبنادق الرشاشة دقيقة جدا كتصويبات الرماة بالبنادق المزودة بالمنظار المقرب. وحين يقترب الجنود إلى مسافة حوالي 200 م من المتمردين يصبح في إمكان الرماة الماهرين إصابة المتمردين الذين يطلون برؤوسهم من أعلى الصخور. كما كان بإمكان الرماة بواسطة البنادق قاذفات القنابل إصابة أهدافهم بدقة كبيرة ولو من مسافة بعيدة؛ هذه التقنيات التي يتحكم فيها العسكر المحترفون كانت تُسفر عن حصيلة تتراوح بين سبعة إلى عشرة قتلى في صفوف المتمردين مقابل قتيل واحد في صفوف القوات الفرنسية. وبالتالي فإن هذا النمط من القتال كان يُسفر عن عدد قليل من الجرحى في صفوف المتمردين باعتبار أن الرصاصات وشظايا القنابل كانت تُصيبهم في رؤوسهم فترديهم قتلى.

مهما كانت فعالية هذه العمليات ضد المتمردين المحليين فإنها غير كافية ما لم يتم عزلُهم عن السكان وقطع مصادر تموينهم بالأسلحة والذخائر ووقف الإمدادات الآتية من خارج المنطقة.

هذا هو السبب الذي جعل كل مرحلة من مراحل الحرب في جبال النمامشة تتميز عن غيرها بخصائص معينة وإن كانت متزامنة وشهدت ثلاثة أنماط من العمليات مع تفاوتٍ في أهمية كل منها حسب الأوضاع المستجدة:

مما اضطره إلى القتال في وضعية دفاعية والاختباء وراء التراكمات الصخرية في الشعاب الجبلية وحيث تتوفر المغارات والسراديب التي تتيح له إمكانية الانسحاب. تتمثل تكتيك الببغاء في تقدم الجنود بصورة متدرجة في اتجاه مكمن المتمردين حيث يزحف أحد الجنود للاقتراب منهم مما يضطرهم إلى أن يطلوا برؤوسهم من فوق الصخور إذا ما أرادوا صدَّ المهاجمين؛ وحينئذ يتولى جندي آخر، متحفز في مكمنه، إطلاق النار عليهم. ثم يكف الجندي الزاحف عن الحركة فيبدأ الجندي المتحفز في الزحف محاولا الاحتماء بمنحيات الطريق قدر الإمكان إلى أن يصير أمام الجندي الأول وهكذا دواليك.

كان أحسنُ الرماة يحققون نتائج باهرة في هذا النمط من المقاتلة. وكانت تصويبات الرماة بالبنادق الرشاشة دقيقة جدا كتصويبات الرماة بالبنادق المزودة بالمنظار المقرب. وحين يقترب الجنود إلى مسافة حوالي 200 م من المتمردين يصبح في إمكان الرماة الماهرين إصابة المتمردين الذين يطلون برؤوسهم من أعلى الصخور. كما كان بإمكان الرماة بواسطة البنادق قاذفات القنابل إصابة أهدافهم بدقة كبيرة ولو من مسافة بعيدة؛ هذه التقنيات التي يتحكم فيها العسكر المحترفون كانت تُسفر عن حصيلة تتراوح بين سبعة إلى عشرة قتلى في صفوف المتمردين مقابل قتيل واحد في صفوف القوات الفرنسية. وبالتالي فإن هذا النمط من القتال كان يُسفر عن عدد قليل من الجرحى في صفوف المتمردين باعتبار أن الرصاصات وشظايا القنابل كانت تُصيبهم في رؤوسهم فترديهم قتلى.

مهما كانت فعالية هذه العمليات ضد المتمردين المحليين فإنها غير كافية ما لم يتم عزلُهم عن السكان وقطع مصادر تموينهم بالأسلحة والذخائر ووقف الإمدادات الآتية من خارج المنطقة.

هذا هو السبب الذي جعل كل مرحلة من مراحل الحرب في جبال النمامشة تتميز عن غيرها بخصائص معينة وإن كانت متزامنة وشهدت ثلاثة أنماط من العمليات مع تفاوتٍ في أهمية كل منها حسب الأوضاع المستجدة:

1 - كانت المعارك، في هذه المنطقة، مستعرة في أول الأمر واستمرت على تلك الحال إلى غاية شهر سبتمبر 1956. ثم بدأت تتراجع وتخف ضراوتها شيئا فشيئا إلى أن آل أمر المتمردين إلى التشرذم ثم الاختناق فالانقراض.

2 - احتدمت المعارك على التخوم الشرقية والغربية لجبال النمامشة ابتداء من خريف سنة 1956 على مقربة من الحدود التونسية بعد إقدام جبهة التحرير الوطني على تشكيل جيش نظامي مدجج بالسلاح في الأراضي التونسية فقام بعدة محاولات لتعزيز صفوف المتمردين التي بدأت تفقد عنفوانها في جبال النمامشة. جرت هذه المعارك، خلال سنتي 1957 و1958، بين جيشين نظاميين تكبدا خسائر أفدح من خسائر المتمردين في قلب المنطقة الجبلية. ولقد سبق أن أشرنا إلى معارك الحدود باقتضاب شديد لأن موضوع هذا الكتاب هو، كما أسلفنا، تقديم دراسة عن حالة نموذجية محددة في الزمان والمكان؛ فموضوعنا لا يتعلق إذن بالمعارك التي دارت رحاها على جانبي الخطوط المكهربة في منطقة الحدود وحيث استُعملت تقنيات مغايرة. ومهما يكن فلا مناص من الإشارة إلى هذه المعارك الحدودية باعتبار أنها جرت في القسم الشرقي من جبال النمامشة وكانت لها تأثيرات مباشرة على التهدئة في عمق هذه المنطقة الجبلية. ما كان لهذه التهدئة أن تتحقق لولا أن القوات الفرنسية العاملة في منطقة الحدود تمكنت من منع تسرب الإمداد إلى صفوف المتمردين في دواخل المنطقة الجبلية.

وابتداء من سنة 1959 تخلت قوات جبهة التحرير النظامية المرابطة في الأراضي التونسية عن اختراق الحاجز الحدودي؛ وفي الواقع أنه ابتداء من سنة 1958 تمت محاولات تدعيم قوات المتمردين انطلاقا من جبال الأوراس لأن أشجارها الكثيفة كانت ملائمة أكثر لإيواء عصابات المتمردين التي كانت أكثر عددا من عصابات النمامشة.

3 - ومن جهة أخرى فإن الوضعية العامة على الصعيدين السياسي والعسكري قد كان لها تأثيرٌ مهم نسبيا على مجريات الأمور في جبال النمامشة فلا مناص أيضا من الإشارة إليها في هذا الباب.

فبعد اختفاء لغرور عباس لم يعد في مستطاع عصاباته المتفككة أن تتلقى المدد من تونس بعد أن تحسنت قتالية وفعالية القوات الفرنسية المرابطة على طول الحاجز الحدودي.

ولقد أصبح في الإمكان تطبيق شتى التقنيات المتعلقة بالتهدئة، باعتبارها الهدف الأسمى للحرب ضد الحركات التمردية، ولقد تم تطوير تلك التقنيات وتحسين فعاليتها داخل المنطقة الجبلية بصورة موازية للمعارك التي لم تتوقف ضد آخر العصابات المتمردة خلال فصلي الربيع والصيف سنة 1957.

ليس هدف الحرب المضادة لحرب العصابات هو خوض معارك كبرى، مهما كانت روعتها، وإنما هدفها هو إعادة الأوضاع إلى حالتها الطبيعية؛ وهذه غاية لا يمكن بلوغها إلا باتخاذ إجراءات في القطاعات الإدارية والاجتماعية والتعليمية والصحية والاقتصادية والنفسية أي أنها، بكلمة وجيزة، إجراءات شاملة؛ وأما العمليات العسكرية، رغم ضرورتها ما لم تنقرض جميع العصابات المتمردة، فإنها تكتسي أهمية ثانوية.

فمن المفيد إذن أن نشير إلى بعض ما تحقق من إجراءات في هذا المجال الذي يغطي القطاعات المذكورة في الفقرة السابقة وهي إجراءاتٌ شُرع في تجسيدها أولا بأول كلما سمحت الوضعية العسكرية بذلك.

المصالح الإدارية المتخصصة في الشؤون الأهلية (SAS)

سبقت الإشارة إلى أنه، ابتداء من خريف 1955، تم تنصيب عدد من ضباط المصالح الإدارية المتخصصة (SAS) في شتى أنحاء النمامشة مثل: سيار وجلاّل وخنقة سيدي ناجي وغيرها... لمساعدة الحكام المدنيين في تسيير مناطق شاسعة وذات عدد كبير من السكان.

كان هؤلاء الضباط يقومون بالمهام الإدارية وما ينتج عنها من نشاطات في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والصحية؛ وربما كان من الأمثل لو أُسندت تلك

المناطق التي تخلو من المعلمين فقد تم استعمال المعلمين المجندين في إطار الخدمة العسكرية الإجبارية.

قوات الحركى

كانت بعض فرق الحركى تحت إمرة ضباط المصالح الإدارية المتخصصة (SAS) وكان بعضها الآخر تابعا للوحدات القتالية.

وكان في صفوف الحركى عدد من قدماء المحاربين الذين يعتبرون أنفسهم فرنسيين وأحيانا أكثر من بعض الفرنسيين المتواجدين في البلد الأم. وكانت طائفة أخرى من الحركى من بين الفارّين من صفوف العصابات المتمردة لأنهم جُنِّدوا في صفوفها رغم إرادتهم أو لأنهم أصيبوا بالإحباط بسبب الأساليب التي يمارسها العدو أو ممن وقعت بينهم وبين قادتهم بعض الخصومات الشخصية.

ولقد سئم الكثير منهم من الطغيان والظلم الذي لاقوه على يد أعدائنا أو ضجروا من تحمُّل الضرائب الثقيلة المفروضة عليهم من طرف المتمردين.

ولقد استولت على قلوب بعضهم مشاعر السخط بسبب إقدام المتمردين على الزواج منهم عنوة وكانوا يعتبرون ذلك الزواج المفروض بالقوة نوعا من أنواع الاغتصاب الشرعي.

كان الحركى على دراية تامة بخبايا الميدان وكان الكثير منهم على علم تام بعادات وتحركات المتمردين والأماكن التي يختبئون فيها؛ وكان البعض يتميز بمهارة فائقة في اقتفاء الأثر مثل الهنود الحمر في القارة الأمريكية.

لم يفتأ دورهم يزداد أهمية مع مرور الوقت ولقد نجحوا في منع المتمردين من إعادة تشكيل مجموعات مسلحة جديدة في جبال النمامشة بعد أن تم استئصال من كان موجودا منهم. كان قسم كبير من الحركى ينتقلون على ظهور الخيل وهو أمر بالغ الأهمية في تلك الربوع.

نشر القوات الفرنسية بين صفوف السكان

مرَّ بنا، في الفصل الثاني، أنه تقرر في سنة 1955 تجنُّب فتح مراكز عسكرية يقل عدد جنودها عن سرية كاملة (بعض السرايا كانت تتألف من حوالي 80 أو 90 رجل) وتجنُّب الخروج في دوريات يقل عدد أفرادها عن فصيلتين على الأقل (تقلصت كثير من الفصائل إلى 20 أو 25 رجل). وفي ربيع سنة 1957 لم يعد في مقدور المتمردين حشد فرق كبيرة تتألف من 150 أو 300 مسلح في دواخل جبال النمامشة مما دبع السلطات إلى المجازفة بفتح عدد من المراكز العسكرية تضم فصيلة واحدة لم يكن عدد أفرادها يتجاوز في بعض الحالات 15 رجل بالإضافة إلى بضعة دوريات صغيرة بجوار المركز العسكري.

تحققت تجربة من هذا القبيل منذ شهر أفريل 1957 في مكان يقع بين خيران وجلاّل حيث تقطن عدة مئات من البربر البدو والذين كانوا، في بداية الأمر، يناصرون المتمردين ثم انقلبوا ضدهم فيما بعد.

تم انتداب ملازم أول على رأس فصيلة تتألف من 14 مرتزقا، من بينهم ممرض واحد، للعمل في تلك المنطقة أساسا ولما تبين نجاح التجربة تقرر تعميمها بعد ذلك.

في بداية الحرب كان المتمردون يعيشون بين السكان كما تعيش الأسماك في الماء، حسب مقولة ماو تسي تونغ، أما القوات الفرنسية المتمركزة في المنطقة أو المكلفة بتفتيشها فلم تكن حينذاك تفقه شيئا مما يحدث حولها.

وابتداء من ربيع سنة 1957 انقلبت الأوضاع فأصبح المتمردون هم الذين يختبئون في أماكن بعيدة عن السكان أو يعيشون مبعثرين عبر الضِّياع أو التجمعات السكنية التي ترعرعوا في أحضانها. وأصبحت القوات الفرنسية تعيش بين المواطنين كما تعيش الأسماك في الماء.

كانت القوات الفرنسية المنتشرة بهذه الصورة تقدم يد العون لضباط المصالح الإدارية المتخصصة (SAS) وكانت تلك القوات مدعمة بصورة مؤقتة من طرف فرق

الحركي وكانت في بعض الأحيان تستعين بحركي واحد فقط لتستفيد من نصائحه لكي تتجنب المساس بالعادات والتقاليد المحلية. كانت تلك القوات تتصل بواسطة الراديو مع قادة السرية والفيلق الذي تنتمي إليه وكانت تطلب بواسطة الراديو أيضا نصائح وتوجيهات الأطباء العاملين في تلك السرايا والفيالق حين يشعر الممرض الذي بحوزتها بالحاجة إلى ذلك حين يتولى علاج البربر المصابين بالتهابات أخطر من الجروح العادية.

كان بعض العسكر يطاردون الأطفال (التائهين) وكان بعض النسوة يطلبن العلاج من رئيس المركز العسكري ومن الممرضين العسكريين دون أن يصطحبن أزواجهن أو إخوانهن وكان ذلك التصرف دليلا على ثقتهن التامة.

كان بعض الرعاة يترصدون تحركات المتمردين للتبليغ عنهم حين يقتربون من المراكز؛ وكان العسكر ينامون نهارا ليتمكنوا، عند حلول الليل، من التنقل لنصب الكمائن في طريق مجموعات المتمردين.

ولقد تمكن العسكر من ضبط قوائم بأسماء البربر الذين التحقوا بصفوف المتمردين طوعا أو كرها وكان العسكر على علم بصورة تقريبية بأسماء الذي قُتلوا منهم. كما كانت نساء المتمردين اللائي مكثن في مساكنهن يتلقين العلاج من طرف الفرنسيين مثل غيرهن من النساء والأطفال وكان أطفالهن يذهبون إلى المدرسة كبقية أقرانهم.

وكان العسكر على علم تقريبا بجميع بأسماء المسئولين السياسيين الذين نصبتهم جبهة التحرير الوطني. ولقد تم تعيين البعض منهم في تلك المناصب رغم إرادتهم؛ وكان البعض الآخر من المتطوعين في أول الأمر ولكن خاب ظنهم في جبهة التحرير الوطني بعد ذلك. هؤلاء أبقت عليهم القوات الفرنسية في مناصبهم بصفة عامة ذلك أن الضباط الفرنسيين كانوا يفضلون التعامل مع أعداء معروفين أحسن من التعامل مع العناصر المجهولة التي تبادر جبهة التحرير إلى تنصيبهم خلفا لمن أُلقي عليه القبض.

كان عدد كبير من البربر يرغبون في المصالحة بين المعسكرين المتحاربين؛ وكانت أقلية منهم تؤيد جبهة التحرير الوطني وكانت الأقلية الأخرى تؤيد فرنسا؛ وبين هؤلاء وهؤلاء توجد أغلبية متقلبة الرأي وكل ما تتمناه هو انتهاء هذه الحرب دون أن ينالها سوء كبير؛ وهذه الفئة مستعدة لقبول انتصار أيٍّ من الطرفين المتصارعين على الآخر لكي تتخلص من الإحساس بأنها أسيرة بينهما.

الاستعلام

لا جدال في أن الاستعلام أساس كل عملية عسكرية ولكن الملاحظ أنه قامت، ابتداء من سنة 1957 على وجه الخصوص، حملةٌ صحفية واسعة حاولت إقناع الرأي العام بأن القوات الفرنسية كانت تستقي المعلومات بممارسة التعذيب على نطاق واسع وخصوصا استنطاق المستجوَبين بتعريض بعض الأماكن الحساسة في أجسادهم لشحنات كهربائية صاعقة. وغنيٌّ عن البيان أن العساكر الفرنسيين كانوا يلجئون إلى الاستنطاق بغرض جمع المعلومات التي تمكنهم من تفكيك شبكات المتمردين مع العلم بأن هؤلاء أيضا لم يكونوا يتورعون عن تعذيب وذبح خصومهم الجزائريين وأسراهم الفرنسيين.

كانت ممارسة التعذيب مبادرة شخصية من بعض المرؤوسين أما القيادة فلم تكن تأمر باستعمال هذه الأساليب في منطقة النمامشة ولا حتى في كثير من المناطق الأخرى. وفي الواقع إن المعلومات المتعلقة بالمتمردين كانت تُستقى أساسا من تصريحات الفارين من صفوفهم ومن الذين يلتحقون منهم بصفوف الجيش الفرنسي ومن طرف شريحة من السكان الذين لم كفُّوا عن مناصرة جبهة التحرير. حين يتعرض الأسير للاستنطاق العنيف فإنه يبوح بأي شيء ولكن إذا وُضع في جو تسوده الثقة وتمت معاملتُه بتوددٍ سيكولوجي مدروس وبالمحاورة والدردشة اللطيفة ويحن تحصل لديه القناعة بأن العسكر على علم بكثير من الأمور فإنه يبوح، من حيث لا يدري، ببعض التفاصيل أو التعليقات المفيدة في الوصول إلى حقائق على جانب كبير من الدقة.

وفي الجانب الآخر كان بعض المتمردين يلجئون إلى تعذيب أسراهم واستنطاقهم بطرق أشنع من الكي بالكهرباء بل هي أقرب إلى الممارسات التي كانت سائدة في العصور الوسطى ومن ذلك مثلا: الذبح وبقر البطون والتنكيل بالأجساد وخصي الرجال وما إلى ذلك من الأساليب التي لم يكن الغرض منها انتزاع المعلومات بقدر ما هو ترهيب الخصوم.

ولهذا السبب كان جنودنا يفضلون الانتحار على الوقوع في الأسر.

الأوضاع الصحية

كانت الظروف المناخية قاسية جدا؛ وكانت المياه مشبعة بالمغنيسيوم وتتسبب في أنواع من الإسهال يسبب للمصابين قرابة أربعين نوبة في اليوم الواحد مع ما يتبعها من حالات المغص وتناقص الوزن بشكل ملحوظ؛ وكانت الفروق الحرارية الكبيرة بين الليل والنهار وبرودة الشتاء الشديدة تصيب الجنود الذين ينامون في العراء بنزلات رئوية حادة.

وكانت أنواع الحمى الفتاكة تصيب العسكر فتتسبب في ارتفاع مفاجئ لدرجة حرارة الجسم؛ وكانت الدمامل والجمرة تغزو الأجسام فتخرج منها ديدان خضراء اللون. وكان داء الجمرة الخبيثة يستغرق أسبوعا كاملا ويتسبب في أوجاع فظيعة؛ وفي حالة ما لم تلتئم البثور الجلدية من تلقاء نفسها وجب نقل المصابين إلى المستشفى لتنظيف جراحهم بعد تخديرهم. وقد تستمر النوبات سنتين أو ثلاثا وتظهر أثناءها الدمامل، بمعدل مرة في الشهر، على رقبة المصاب أو خده أو ذقنه أو أذنه أو ظهره أو يديه أو تحت إبطه. أما إذا أصابت الأنف فربما تؤدي إلى موت المصاب.

إذا تضافرت نوبات الإسهال والحمى والجمرة على المرضى أنهكتهم وإذا تم إجلاؤهم بواسطة طائرات الهليكوبتر أُصيبوا بإعياء شديد. كان المريض المنقول جوا يُشدُّ بإحكام إلى نقالة مثبتة خارج قمرة الهليكوبتر. وكانت ذلك النوع من الطائرات يعاني صعوبة كبيرة في الطيران فتضطر إلى التحليق على ارتفاع

منخفض وتكاد تلامس رؤوس المرتفعات مما يعرضها لخطر السقوط بنيران المتمردين الذين لم يكونوا يلتزمون باتفاقية جنيف مطلقا. كان المريض المنقول يود أن يحمل معه مسدسا ليتمكن من إطلاق النار على المتمردين في حالة اعتراض سبيله ثم ينتحر بعد ذلك؛ ولكن هذا معناه وضع مسدس جديد بين أيدي الأعداء. ولهذا السبب لم يكن ربابنة طائرات الهليكوبتر يحملون معهم أي سلاح وكان المرضى المنقولون يفعلون مثلهم رغم ما يحيق بهم من خطر الموت تحت التعذيب الشديد من طرف المتمردين. ولكن هيهات؛ فإن أدعياء الأخلاق لم يكونوا يشيرون في كتابتهم إلى هذه الأساليب الشنيعة رغم إدانتهم المستمرة لأشكال أخرى من التعذيب أقل بشاعة وعنفا.

الموت بسبب الحوادث

تمثل نسبة الوفيات جراء الحوادث قرابة 30٪ من الخسائر البشرية التي تكبدها الجيش الفرنسي في الجزائر. وهذه ظاهرة مثيرة للدهشة. وكان هذا النمط من الحوادث المؤدية إلى الوفاة تبدو أقل أهمية في منطقة النمامشة بالرغم من وعورة التكوينات الطبيعية. يعود سبب هذا إلى مهارة سائقي الشاحنات والسيارات. والحقيقة أن قيادة الشاحنات عبر الطرق والمسالك المتهرئة والمحاذية للشعاب والوهاد العميقة أبعد ما تكون عن رحلات نزهة جميلة. حين تشاهد سيارة من نوع دودج 6X6 أثناء صعودها عبر مسالك ضيقة أو محصورة بين سفح منحدر خطير وبين هوة عميقة فإنك لا تتمالك عن تصور أن السيارة ستتدحرج نحو قاع الهاوية وتتسبب، في لحظة واحدة، في مقتل ثلاثة أضعاف عدد الجنود الذين يُقتلون في المعارك خلال سنتين اثنتين.

الظروف المعيشية اليومية

كانت ظروف الحياة اليومية قاسية وصارمة وسط طبيعة قاحلة فتصيب الجنود أحيانا بحالات الانهيار العصبي أو تدفع ببعضهم الآخر إلى الفرار من الصفوف. تكاد الأجساد تلتهب من شدة الحرارة، صيفا، وتكاد الدماء تتجمد في العروق، شتاء،

وفي الربيع والخريف تهطل أمطارٌ طوفانية. كانت مصالح التموين والإمداد تبذل جهودا جبارة لإضفاء بعض العذوبة على الحياة اليومية وتخفيف وطأتها بتوفير ما يكفي من الخيام الجماعية والأسرة المعدنية والسكنات الاصطناعية. وكانت تُلحق بالسرايا بعض النوادي الخاصة لتمكين الجنود من اقتناء بعض المواد البسيطة مثل قارورات المياه المعدنية وما إلى ذلك.

أما خارج المخيمات والمراكز فكان لا بد من اغتراف المياه الراكدة في بعض البرك التي يرتوي منها الجِمال ويتبولون فيها مما يؤدي إلى مشاكل صحية جمة. بيد أننا كنا مزودين بأقراص خاصة بتطهير المياه الآسنة.

كانت الحياة اليومية أقرب إلى حياة التقشف والرهبنة. أما الذين كانوا يتصورون أن العساكر الفرنسيين يمضون أوقاتهم في اغتصاب النساء فلا شك أنهم يجهلون مدى حرص المسلمين على صون عفة زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم وأمهاتهم.

ففي بعض المناطق يتم حبس النساء داخل البيوت ويُمنعن من مقابلة الضيوف؛ ولكن يخرجن، في بعض الأحيان، مرتديات حجابا ساترا لا يُترك فيه سوى ثقب واحد أمام إحدى العينين لتمكينهن من رؤية الطريق أمام أقدامهن؛ أما في المناطق التي يقطنها البربر فكانت النساء يتمتعن بحرية أوسع ولم يكن، على العموم، يرتدين الحجاب ورغم ذلك فإن المسلمين، بما فيهم الأكثر تحررا، كانوا يرفضون أن يشاهد المارة شعر زوجاتهم أو أرجلهن وهذا هو سبب تغطية رؤوسهن بوشاح وارتدائهن فساتين طويلة تشبه في بعض الأحيان البزة الرسمية.

كان قرابة ثلث الجيش الفرنسي يتكون من المسلمين الجزائريين بما فيهم القوات المساعدة أي ما يقارب 200.000 جندي؛ وإذا أخذنا بعين الاعتبار جميع دورات الأفواج أمكن القول بأن قرابة 400.000 من المسلمين الجزائريين قاتلوا في صفوف الجيش الفرنسي، خلال هذه الحرب، من بين مجموع السكان الجزائريين البالغ تعدادهم 9 ملايين نسمة فلو أن الجيش الفرنسي كان يغتصب النساء لما تمكن من حشد هذا العدد الهائل من الجزائريين في صفوفه.

خلال الحصص التلفزيونية التي تحاول التأكيد على أن القوات الفرنسية في الجزائر قد اغتصبت كثيرا من النساء الجزائريات كثيرا ما تُعرض صورة امرأة، ذات ملامح شرقية، تقف عارية بين عسكريين فرنسيين.

ربما تعلق الأمر ببعض العاهرات ومع ذلك فلقد تم نشر هذه الصورة على نطاق واسع في صفوف القوات الفرنسية لمحاولة التعرف على هوية ذينك العسكريين ومطالبتهما بتقديم الشروح لتبرير موقفهما. فلئن تم تطبيق هذا الإجراء، بالرغم مما يعتري هذه الحالة من شكوك، فما بالك إذن بحجم العقوبات التي سيتم تسليطها على الذين مارسوا الاغتصاب فعلا.

لا مراء في وقوع بعض حالات الاغتصاب، مثلما يحدث في جميع الحروب، ولكنها حالات قليلة جدا؛ وفي المقابل كان عدد حالات الزواج المؤقت المفروضة بالقوة من طرف المتمردين أكثر عددا مما دفع عددا كبيرا من المسلمين إلى الانخراط في صفوف الجيش الفرنسي بسبب سخطهم ونقمتهم على تصرفات المتمردين.

كان العسكر الفرنسيون مرغمين على التزام حياة العفة. وكانت زوجات الإطارات على استعداد للعيش مع أزواجهن حتى في المراكز العسكرية المعزولة حيث يكون في إمكانهن الإسهام في المساعدة الصحية والتعليمية لصالح النساء البربريات؛ ولكن لو حدث هذا لأصيب الجنود البسطاء بالإحباط وخصوصا أن معظمهم كانوا عُزابا مع العلم بأن مناطق المعارك كانت ممنوعة، مبدئيا، عن زوجات العسكر.

نشاطات العسكر

كان العسكر يقومون بنشاطات كثيرة وهم يذرعون البلد جيئة وذهابا بحثا عن بقايا عصابات المتمردين وينصبون الكمائن ليلا في النقاط التي يُحتمل أنهم يعبرون منها.

إنه لمن قبيل المبالغة اعتبارُ حرب الجزائر مجرد عملية من عمليات الشرطة: ذلك أنه نادرا ما تستغرق عملية الشرطة مدة ثمان سنوات وتُسفر عن مقتل 25.000

رجل في صفوف قوات حفظ الأمن؛ ولكنها لم تكن حربا بمعنى الكلمة اللهم إلا بعض الوقائع التي جرت قرب الحواجز الحدودية.

بلغ عدد العسكر الفرنسيين الذين قُتلوا ثلاثة مرات أقل من مجموع عدد قتلى حوادث المرور التي وقعت على الطرقات الفرنسية في نهاية القرن العشرين.

ومن العسكر الفرنسيين من مكثوا في الجزائر أكثر من سنتين ولم يشاهدوا مجموعة من المتمردين قط؛ وقد يحدث، في المناطق التي تشهد نشاطا حثيثا للمتمردين أن تصادفهم الكتيبة المقاتلة بمعدل مرة واحدة أو أقل من ذلك خلال شهر كامل. كما يقع العثور على البعض منهم أثناء مداهمة بعض المشاتي أو التجمعات السكنية؛ ففي هذه الحالة فقط إذا كان المتمردون هم البادئون بإطلاق النار يلقى العسكري الذي اكتشفهم مصرعه.

وفي حالة وقوع اشتباك داخل أحد التجمعات السكنية فإن كلا من المتمردين والمرتزقة يتبادلون إطلاق النار بتسديد محكم فلا يوقعون إصابات في صفوف المدنيين إلا نادرا.

بعد أن كان منخفض بويقظان ميدانا للمعارك العاتية أصبح من الممكن تفتيشه من قبل فصيلة من الحركى والمرتزقة لا يتجاوز عددها ثلاثين فردا؛ علمًا بأنه قبل بضعة شهور فقط كان من المستحيل الدخول إليها بأقل من سريتين اثنتين.

عمدت القوات الفرنسية إلى كتابة أرقام بخط غليظ فوق رؤوس الجبال التي كان المتمردون يتخذونها مخابئ لأسلحتهم الأوتوماتيكية خلال المعارك السابقة؛ فلقد أصبحوا يُحجمون عن الرجوع إلى تلك المعاقل بعد أن غدت أهدافا جلية بالنسبة للطائرات الحربية.

كما بادرت السلطات إلى توسيع وترميم الطرق غير المعبدة المؤدية إلى بويقظان لتتمكن من إرسال المدفعية إلى هناك حين يقتضي الأمر وخصوصا إلى ناحية المزرعة النموذجية في زاوية، التي أضرم المتمردون فيها النيران بعد أن انتقدوا

فرنسا على عدم بذلها جهودا لتوفير ما يكفي من المقاعد الدراسية، كما رممت المنعرج الخطير المؤدي إلى تافاسور الواقعة في قاع مجرى مائي ضيق والذي لا يزال يحتفظ بحطام سيارة إسعاف تابعة للكتيبة الثالثة كانت قد وقعت في كمين نصبه المتمردون في طريقها في شهر جويلية 1955.

كان الكثير من البربر البدو يقضون فصل الشتاء في الصحراء. وكانوا ينتقلون عبر السبل المتوفرة في بلاد النمامشة وراء قطعان تضم آلاف الجمال. وكانت القوات الفرنسية تُراقب تلك القوافل الضخمة لمنعها من نقل الأسلحة المسربة من ليبيا ومن الجنوب التونسي.

كان العسكر الفرنسيون الذي يقومون بمآثر حربية مشهودة يُكافئون بالأوسمة ولكن السلطات السامية قررت عدم تسليم أكثر من وسام واحد في السنة، خلال عامي 1956 و1957، وهي الفترة التي وقعت فيها أكبر المعارك على الإطلاق؛ وهكذا فإن العسكر الذين كانوا أهلا لأربعة أوسمة أو خمسة أصبحوا محرومين من نيل الوسام الثالث وما بعده. ثم أُلغي هذا الإجراء العبثي وتم تسليم المزيد من الأوسمة إثر معارك أقل ضراوة من الأولى ولكن بدون أثر رجعي بالنسبة لسابقاتها. كانت هذه القرارات ذات آثار سلبية على معنويات العسكر.

بعض الاعتبارات السيكولوجية

تلعب الاعتبارات السيكولوجية دورا شديد الأهمية في الحروب المضادة لحرب العصابات. ذلك لأن القوات التي تتمتع بمعنويات عالية تقاتل أحسن من غيرها.

عندما اندلعت حرب الجزائر لم يكن الرأي العام الفرنسي يؤيد مطالب جبهة التحرير الوطني. ثم تطورت مواقفه، بعد سنة 1957، فأصبح الشيوعيون واليساريون والمسيحيون التقدميون والمثقفون اليساريون يناهضون هذه الحرب. وبعد ذلك انحاز عدد كبير من أعضاء الحزب الاشتراكي إلى هذا التيار المناهض.

أصبح العسكر الفرنسيون، في بعض الحالات، يُنعتون بأنهم شرذمة من مغتصبي النساء أو جماعة جلادين واستعماريين عنصريين ومحتلين في حين كانت جبهة التحرير الوطني تُعتبر صنوا لحركة المقاومة الفرنسية ضد النازية. وذلك ما ملأ نفوس العسكر مرارة.

كانوا يقاتلون حزبا ديكتاتوريا يرتكب أبشع أعمال العنف وما كانوا إلا منفذي أوامر صادرة عن حكومات شرعية في ظل الجمهورية الفرنسية؛ وكانوا يؤدون واجبهم إلى جانب عدد كبير من المسلمين الجزائريين ويبذلون جهدهم لتقديم العلاج للسكان الجزائريين والتعليم لأطفالهم وكانوا يجازفون بحياتهم أو يعرضون أنفسهم للإصابة بجراح فظيعة قد تجعلهم عميانا أو مشلولين مدى الحياة. وكانوا يعيشون ظروفا قاسية بعيدا عن عائلاتهم... ثم هاهم يُجازون بالشتائم.

وكان بعض المجندين المناهضين لهذه الحرب مرغمين على خوض غمارها؛ ولقد تبين للبعض منهم أن تصرفات جبهة التحرير الوطني بعيدة كل البعد عن السلوك الإنساني وعن الديمقراطية فكان هؤلاء العسكر مقسمين بين قناعاتهم السياسية وبين الحقيقة كما رأوها.

لم يكن المسلمون الفرنسيون يفقهون لماذا يُنظر إليهم "كعُملاء" متعاونين مع قوة أجنبية وكل ما في الأمر أنهم يفضلون البقاء فرنسيين في ظل قوانين الجمهورية الفرنسية.

كما كان يُنظر إلى الفرنسيين القاطنين بالجزائر على أنهم من كبار المعمرين والحال أن مستوى معيشة معظمهم دون مستوى معيشة عموم الفرنسيين في البلد الأم. وما نسوا أن آباءهم قد جُنِّدوا في صفوف الجيش الفرنسي بكثافة لم يسبق لها مثيل وأنهم قدموا تضحيات جسيمة من أجل تحرير الأراضي الفرنسية من الاحتلال النازي.

ولقد اتُّهم الجنود المرتزقة بأنهم تصرفوا مع الجزائريين كما يتصرف النازيون والحقيقة أنهم استماتوا في مقاتلة النازية بكل ضراوة. مهما يكن فلقد وُجِّهت إليهم

نفس الانتقادات خلال المعارك التي خاضتوها في الهند الصينية إلى جانب عدد كبير من أبناء الهند الصينية الذين كانوا يجابهون القوات الهند الصينية ذات التوجهات الستالينية.

بعد أن أُسقط في يد جبهة التحرير الوطني بمدينة الجزائر انكفأت نحو الأرياف حيث قُتِّلت وذُبِّحت مئات القرويين المؤيدين لحزب الحركة الوطنية بزعامة مصالي الحاج. وقع ذلك في قرية ملوزة خلال شهر ماي سنة 1957. إن ما أحدث نوعا من البلبلة والحيرة في عقول العسكر الفرنسيين هو أنهم كانوا يحاربون تحت إمرة حكومات فرنسية تتمتع بالأغلبية الانتخابية فهي بالتالي تمثل أغلبية الشعب الفرنسي ولكن نفس العسكر كانوا معرضين لانتقادات لاذعة من طرف نسبة كبيرة من الرأي العام الفرنسي الذي ما انفك يتزايد كل يوم. هذا ما جعل العسكر في وضعية متناقضة وغير مريحة؛ وبالفعل فإن جبهة التحرير المهزومة على الصعيد العسكري بدت منتصرة من الناحية النفسية والمعنوية وذلك بفضل الفرنسيين الناطقين باسمها. لا غرو أن الانتصار النفسي قد ينجم عنه نصرٌ سياسي.

بعض تنظيمات المتمردين

كانت تنظيمات المتمردين معروفة إلى حد ما حين كانت مهيكلة تحت إمرة لغرور عباس؛ ولكن تنظيمها أصبح أكثر غموضا بعد أن أُصيبت صفوفهم بالتفكك والتشرذم.

كان الفرنسيون، بفضل تغلغلهم في صفوف السكان، يعرفون إلى حد كبير من هم الأشخاص الذين ما زالوا في صفوف المتمردين؛ ولكن لا يعرفون المجموعة التي ينتمون إليها ولا مكان تواجدهم ولا من يتولى قيادة عصاباتهم الصغيرة؛ خصوصا وأن أولئك القادة كانوا يُستبدلون إثر أي نزاع أو تصفية حسابات بينهم أو إثر مقتلهم. وفضلا عن هذا فإن قادة المتمردين يتخذون أسماء مستعارة مما يجعل التعرف عليهم أمرا في غاية الصعوبة.

نفس الانتقادات خلال المعارك التي خاضوها في الهند الصينية إلى جانب عدد كبير من أبناء الهند الصينية الذين كانوا يجابهون القوات الهند الصينية ذات التوجهات الستالينية.

بعد أن أُسقط في يد جبهة التحرير الوطني بمدينة الجزائر انكفأت نحو الأرياف حيث قتّلت وذبّحت مئات القرويين المؤيدين لحزب الحركة الوطنية بزعامة مصالي الحاج. وقع ذلك في قرية ملوزة خلال شهر ماي سنة 1957. إن ما أحدث نوعا من البلبلة والحيرة في عقول العسكر الفرنسيين هو أنهم كانوا يحاربون تحت إمرة حكومات فرنسية تتمتع بالأغلبية الانتخابية فهي بالتالي تمثل أغلبية الشعب الفرنسي ولكن نفس العسكر كانوا معرضين لانتقادات لاذعة من طرف نسبة كبيرة من الرأي العام الفرنسي الذي ما انفك يتزايد كل يوم. هذا ما جعل العسكر في وضعية متناقضة وغير مريحة؛ وبالفعل فإن جبهة التحرير المهزومة على الصعيد العسكري بدت منتصرة من الناحية النفسية والمعنوية وذلك بفضل الفرنسيين الناطقين باسمها. لا غرو أن الانتصار النفسي قد ينجم عنه نصرٌ سياسي.

بعض تنظيمات المتمردين

كانت تنظيمات المتمردين معروفة إلى حد ما حين كانت مهيكلة تحت إمرة لغرور عباس؛ ولكن تنظيمها أصبح أكثر غموضا بعد أن أُصيبت صفوفهم بالتفكك والتشرذم.

كان الفرنسيون، بفضل تغلغلهم في صفوف السكان، يعرفون إلى حد كبير من هم الأشخاص الذين ما زالوا في صفوف المتمردين؛ ولكن لا يعرفون المجموعة التي ينتمون إليها ولا مكان تواجدهم ولا من يتولى قيادة عصاباتهم الصغيرة؛ خصوصا وأن أولئك القادة كانوا يُستبدلون إثر أي نزاع أو تصفية حسابات بينهم أو إثر مقتلهم. وفضلا عن هذا فإن قادة المتمردين يتخذون أسماء مستعارة مما يجعل التعرف عليهم أمرا في غاية الصعوبة.

استمرت تلك العصابات تتلقى المئونة والعتاد مثلما كان الشأن في عهد لغرور عباس؛ فالأسلحة والذخيرة كانت تُسرَّب إليهم عبر ليبيا وتونس وأما ما تعلق بالتموين الغذائي فكان على عاتق السكان.

ولقد لعبت الحواجز المقامة على الحدود دورا كبير الأهمية في صدٍّ الكثير من قوافل الإمداد بالأسلحة والذخيرة ولكن بما أن أعدادهم كانت في تناقص مستمر فإن الكميات القليلة التي كانت تصل إليهم كانت تكفي لتسليح الجميع. وكان جزءٌ من هذه الأسلحة يصل إليهم عبر التخوم الصحراوية الشاسعة التي تصعب مراقبتُها. وبالإضافة إلى كل هذا كان المتمردون يقتصدون في استعمال ما يتوفر لديهم من ذخيرة.

آخذت كميات المئونة تتناقص بدورها بسبب إحجام السكان عن مواصلة تزويدهم منها وكذلك بسبب انتشار القوات الفرنسية وتغلغلها في صفوف هؤلاء؛ ومهما يكن فإن ما توفر لديهم من مئونة كان كافيا لتلبية حاجات أعدادهم المتناقصة.

وفي بعض الحالات كان مسئولو المشاتي والتجمعات السكانية الخارجة عن نطاق مراقبة القوات الفرنسية يتلقون أوامر بتجميع كميات الزاد وتسليمها إلى المتمردين بناء على تعليمات دقيقة لتجنُّب وقوعها بين أيدي القوات الفرنسية في حالة ما بلغتها المعلومات عنها.

وفي حالات أخرى كانت عصابات المتمردين تظهر فجأة وسط التجمعات السكانية أو القرى لتتسلم كل ما تحتاجه وهذا ما كان يسئ إلى سمعتها في الأوساط الشعبية من جهة ويتسبب في ملاحقتها من طرف القوات الفرنسية حين تُبلَّغ بذلك.

كان معظم المتمردين يعيشون في مغارات معزولة عن بعضها غير أنها مريحة أكثر من الخيام التي يأوي إليها الجنود الفرنسيون؛ فلقد كانت جوُّها أكثر دفئا في فصل الشتاء وألطف في فصل الصيف. كانت النواة الصلبة في صفوف المتمردين

عازمة على مواصلة القتال إلى آخر رمق. وكانت عزيمة البعض الآخر تصاب بالوهن أو يتملكهم اليأس فيلتحقون بصفوف القوات الفرنسية أو يسلمون أنفسهم إليها أو يفرون من الصفوف ويعودون للعيش مع ذويهم.

2 - المعارك على تخوم بلاد النمامشة: سبتمبر - ديسمبر 1957

في شهر سبتمبر 1957 بلغت عمليات التهدئة في جبال النمامشة مستوى متقدما مما سمح بسحب الكتيبة الثالثة عشر من اللفيف الأجنبي.

لم تعد تلك المنطقة الجبلية معقلا هاما من معاقل التمرد مثلما كان عليه من سنة 1954 إلى 156 تحت قيادة لغرور عباس. ولقد تم استئصال معظم العصابات التي كانت تعيش فيها. أما البقية الباقية من العناصر المتمردة فما كان لها أن تمثل أدنى خطورة بحد ذاتها لولا الإمدادات التي تصل إليها من خارج المنطقة.

ظل الموقع الجغرافي للمنطقة هو الورقة الرابحة الوحيدة بين أيدي المتمردين؛ فهي تتوسط بين الأراضي التونسية، حيث ترابط القوات النظامية التابعة لجبهة التحرير الوطني، وبين جبال الأوراس الكثيفة الأشجار والتي كانت مخبأ تلتجئ إليه العصابات التي تضم أعدادا كبيرة من المتمردين.

وهكذا اضطرت القوات الفرنسية إلى شن المعارك على الجبهتين للحيلولة دون إعادة تشكيل العصابات المعادية في جبال النمامشة: فعلى الجبهة الشرقية كانت القوات الفرنسية تبذل كلما في وسعها للحيلولة دون اختراق الحاجز المكهرب المشيد على طول الحدود التونسية؛ وعلى الجبهة الغربية كانت تشن هجماتها ضد العصابات المتمردة المتحصنة على سفوح الأوراس الكثيفة الأشجار.

وفي هذه النقطة بالذات كانت منطقة النمامشة تمثل نموذجا مصغرا للمراحل الكبرى التي ميزت حرب الجزائر: تشكيل عصابات متمردة كثيرة العدد؛ إبادة عناصرها من طرف القوات الفرنسية المحترفة؛ بعثرة العناصر التي نجت من القتل

ودفعُها إلى التشرذم لتسهيل ملاحقتها والقضاء عليها؛ شن المعارك الكبرى على تخوم المنطقة لصد القوات المتمردة المتواجدة في المناطق المجاورة.

المعارك على الحدود التونسية

من الناحية الشرقية واصل المتمردون، المتمركزون في الأراضي التونسية، شن هجماتهم على المناطق الواقعة بين تبسة ونقرين محاولة منها التسلل إلى جبال النمامشة. لكن تلك المحاولات باءت بالفشل.

اعترضت السرية الثانية من قوات اللفيف الأجنبي، التي كانت تجوب جنوب الأوراس، سبيل بعض العصابات المتمردة التي كانت تحاول التسلل. أُصيب الطالب الضابط شيرير (Scherrer) بجروح في سبتمبر 1957 ثم أُصيب بجروح قاتلة في السنة الموالية.

كانت هذه السرية تحت إمرة أحد الضباط المتميِّزين ويبدو أنه من أقرباء بومبيدو الذي سيصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية؛ إلا أن هذا الرقيب انضم إلى صف الجنرال شال، في سنة 1961، مما وضع حدا لمساره العسكري الواعد.

أما السرية السادسة من قوات اللفيف الأجنبي المتمركزة في نقرين، والمدعومة من طرف قوات الحركى الجزائريين، فقد خاضت المعارك ضد جبل غيفوف القريب من الحدود التونسية.

كان كل من جبل غيفوف (780م) وجبل ماردرا (875م) مستهدفين من طرف قوات جبهة التحرير الوطني المرابطة في الأراضي التونسية. وفي شهر أكتوبر 1957 وصلت كتيبتان من قوات جبهة التحرير الوطني قادمة من تونس فانهزمت على يد الكتيبة السادسة من قوات السبايس المغاربية المدعومة من طرف الكتيبة الثامنة والعشرين من قوات المدفعية والكتيبة الثانية من قوات المشاة والكتيبة الرابعة من قوات اللفيف الأجنبي. أُصيب الكولونيل قائد كتيبة السبايس المغاربية بجروح؛ وسقط في صفوف المتمردين 57 قتيلا و4 جرحى من مجموع قوة تعدادها 400

رجل: وتم نقل الجرحى إلى مدينة رديف على متن الشاحنات التونسية التي كانت تنتظر قرب الحدود.[19]

تمكن قرابة 15 متمردا من الوصول إلى غاية جبل درمون (1058م) الواقع شرقي جبل الجرف ولكن القوات الفرنسية حاصرتها فأجبرتها على الاستسلام. وتمكنت كل من الكتيبة السادسة والعشرون المتنقلة وكتيبة المشاة الرابعة من قتل 45 متمردا في جبل زورة في مطلع شهر نوفمبر.

ومن جهتها شاركت الكتيبة الثانية من قوات المظليين الأجانب في المعارك التي وقعت في جبل غيفوف. ففي أول ديسمبر 1957 هاجمت عصابة متمردين في جبل بوجلال جنوبي تبسة يبلغ ارتفاع قمته 1.477م وتتوفر فيه وهاد وشعاب وبعض أشجار الصنوبر وأعشاب قليلة. كان هؤلاء المتمردون من بين الذين جندتهم جبهة التحرير الوطني في نواحي المدية، جنوب مدينة الجزائر، وكانوا في طريقهم للتدريب في تونس. أسفرت المعركة عن سقوط 119 قتيل و7 أسرى في صفوف المتمردين وخسائر طفيفة في صفوف المرتزقة.

في 9 ديسمبر اكتُشفت عصابة متمردين على جبل فجوج الذي يبلغ ارتفاع قمته 1.267م ويقع في شمال غرب خنشلة وبالقرب من بحيرة فراح عنق الجمال وفراح قلّيل وفراح الطارف.

نُقلت الكتيبتان الثنية والثالثة من قوات المظليين على متن طائرات الهليكوبتر وحين بادرت بالهجوم قُتل جنديان برتبة نقيب ورقيب وجُرح ثلاثة مرتزقة كما قُتل 69 من جانب المتمردين واستُرجعت جميع أسلحتهم.

في 18 ديسمبر 1957 اكتشفت الكتيبة الثانية من قوات المظليين المرتزقة عصابة أخرى غربي واد الهلايل وقرب جبل زورة؛ واشتبكت الكتيبة المحمولة على متن سيارات من طراز جيب بفريق يتكون من 12 متمردا قتلتهم جميعا واستعادت 12 قطعة سلاح التي كانت بحوزتهم كما جُرح اثنان من المرتزقة.

19. انظر كتاب P. Montagnon. بعنوان La Guerre d'Algérie.

كما هاجمت الكتيبتان الأولى والرابعة المدعومة بالطائرات حشدا من المتمردين المزودين بأسلحة كثيرة في جبل الحميمة قرة. خسر المتمردون 61 قتيلا و6 بنادق رشاشة و19 مسدسا رشاشا و25 بندقية. بلغت الخسائر في صفوف المرتزقة 3 قتلى و15 جريحا.

تتمثل هذه التقنية القتالية في نقل القوات بواسطة طائرات الهليكوبتر وإنزالها في الأماكن التي يُرجح أن يحتلها المتمردون فيشرع الجنود في تفتيش المنطقة مستفيدين من الحماية الجوية وإذا لم يكتشفوا شيئا يتم نقلهم من جديد وإنزالهم في مكان آخر. لو أن هذا التكتيك استُعمل في النمامشة منذ سنة 1955 لما تمكن لغرور عباس من الصمود أكثر من سنة واحدة. ولكن لم تكن طائرات الهليكوبتر تتوفر بالعدد الكافي آنذاك.

حققت الكتيبة الثالثة عشر من نصف الزمرة التابعة للفيف الأجنبي النتائج التالية: قتلت 465 متمردا وأسرت 28 منهم واستولت على مدفع هاون من عيار 81 و10 رشاشات وبندقيتين رشاشتين و55 مسدس رشاش و294 بندقية حربية و36 مسدس. وفي المقابل تكبدت الكتيبة قرابة 30 قتيلا من بينهم 3 ضباط برتبة ملازم أول.

أسقط البرلمان الفرنسي حكومة بورجيس مونوري. وباشر الراديكالي فليكس غايار (Félix Gaillard) تشكيل حكومة جديدة عيَّن فيها لاكوست وزيرا مقيما بالجزائر وبورجيس مونوري وزيرا للشؤون الداخلية والديغولي شابان دلماس (Chaban Delmas) وزيرا للدفاع.

ألمَّت بصفوف جبهة التحرير الوطني ضائقة سياسية حيث حامت الشكوك حول آلاف المحاربين والمناضلين الذين ظُنَّ أنهم يؤيدون التوصل إلى حلٍّ وسط مع فرنسا فتعرضوا للتعذيب والتنكيل بأمر من بعض كولونيلات جبهة التحرير منهم عميروش في بلاد القبائل.

كما ساد نوع من التوتر والقلق في صفوف الجزائريين العاملين في الجيش الفرنسي: فلقد التحق قرابة خمسين ضابط وضابط صف منهم بصفوف جبهة التحرير الوطني حيث وجدوا استقبالا حسنا من طرف كريم بلقاسم وأسند إليهم

بعض المسؤوليات؛ وكان فريق آخر من قادة جبهة التحرير الوطني ينظرون إليهم بعين الشك والريبة.

لم تمس عملية الفرار سوى فئة محدودة من الضباط الجزائريين العاملين في صفوف الجيش الفرنسي بل ظل عدد كبير منهم أوفياء لفرنسا حتى النهاية. نذكر من هؤلاء الكولونيل رافع (Rafa) من الكتيبة السادسة للقناصة الجزائريين الذي رُقي فيما بعد إلى رتبة جنرال في الجيش الفرنسي.

أبرز وقائع سنة 1958

تميزت سنة 1958 بوقوع أحداث بالغة الأهمية. ففي شهر جانفي قامت البحرية الفرنسية بتفتيش باخرة بضائع يوغسلافية عُثر على متنها على كمية من الأسلحة الموجهة لجبهة التحرير الوطني كانت كما يلي: 15 مدفع هاون من عيار 81 و40 قاذفة صواريخ مضادة للدبابات و200 رشاشة و1.500 مسدس رشاش و4.000 بندقية حربية.

وبالرغم من المراقبة الصارمة كانت كميات كبيرة من الأسلحة تصل إلى الجزائر بحيث أصبحت قوات جبهة التحرير الوطني مزودة بأنواع الأسلحة الثقيلة.

وفي نفس الشهر من سنة 1958 شنّت قوات جبهة التحرير المرابطة في ساقية سيدي يوسف التونسية، غير بعيد مدينة عن سوق أهراس، هجوما على سرية مشاة تتكون من المجندين الفرنسيين الذين كانوا يؤدون واجب الخدمة العسكرية فقُتل منهم 14 عسكريا وأُسر 4 اقتيدوا إلى الأراضي التونسية. كانت الحكومة الفرنسية تحظر على قواتها ملاحقة قوات جبهة التحرير الوطني فوق الأراضي التونسية وربما كان ذلك بسبب خشيتها من حدوث مقاطعة بترولية من طرف الدول العربية.

في نهاية شهر جانفي تمكنت المدافع التي نصبتها جبهة التحرير في ساقية سيدي يوسف من إسقاط طائرة حربية فرنسية كانت تراقب المنطقة الحدودية. ثم أعطبوا طائرة أخرى في بداية شهر فيفري. شنّ الطيران الفرنسي هجوما انتقاميا قصف أثناءه القاعدة العسكرية التي أقامتها جبهة التحرير في الساقية وسط

السكان المدنيين التونسيين واللاجئين الجزائريين فأسفر الهجوم عن سقوط عدد من القتلى في صفوف المدنيين.

اضطُر الجيش الفرنسي على التزام الحذر والترقب؛ فأصدر قائد قوات جبهة التحرير الوطني أمرا إلى الآلاف من رجاله المدججين بالسلاح بمهاجمة المواقع الفرنسية الواقعة بين سوق أهراس وساحل البحر. وهكذا تحرك خط المعارك شمالا أي إلى المناطق التي تتوفر فيها غابات كثيفة ملائمة جدا لشن هجمات المتمردين ولقد سبق، سنة 1957، أن شهدت نواحي جنوب تبسة التابعة لمنطقة النمامشة معارك عنيفة حول الحاجز الحدودي المكهرب.

كان الجنرال فانوكسيم على رأس القوات الفرنسية المرابطة شرق القطاع القسنطيني فتولى مقاومة العملية الهجومية التي شنتها جبهة التحرير الوطني؛ مع العلم بأن هذا الجنرال نفسه سبق له أن كان على رأس القوات المحاربة في منطقة الأوراس والنمامشة وأنه ألحق بالمتمردين خسائر كبيرة حين كانت هذه المنطقة تعتبر المعقل الرئيسي للمتمردين.

كان الجنرال يتولى قيادة القوات الفرنسية المرابطة على الحدود التونسية وكانت تتألف من كتائب المشاة رقم 151 و152 و153 وعدد كبير من كتائب المظليين والمرتزقة (الكتيبة الأولى من قوات المرتزقة والثالثة من قوات اللفيف الأجنبي والتاسعة والرابعة عشر من قوات المظليين القناصة) وكان معظمهم من المجندين في الخدمة العسكرية الإجبارية بما فيهم المسلمين الجزائريين الذين تطوعوا للخدمة في صفوف هذه الوحدات.

كانت المعركة حامية الوطيس خاضت كتيبة المظليين، بقيادة الكولونيل جان بيير، والكتيبة التاسعة بقيادة الكولونيل بوشود (Bouchoud) أهم مجابهات الصدام فيها.[20]

---

[20] [illegible] في أحداث سنة 1961 من مؤيدي الجنرال شال فتم تقديمه للعدالة ثم تمت تبرئة ساحته [illegible] العسكري الواعد. أما الكولونيل جان بيير فهو من قدماء المحاربين في سوريا ومن [illegible] ومن قدماء المحاربين في قناة السويس. شارك في معركة الجزائر وأصيب بجروح أثناء [illegible] في حي القصبة.

كانت الكتيبة الأولى من قوات المظليين مدعومة من طرف كومندوس يتألف من الجنود الهند الصينيين الذي فروا من بلادهم بسبب معارضتهم للنظام الشيوعي فيها؛ وكذلك من طرف فرقة من الخيالة الجزائريين من ناحية قالمة. سقط 111 قتيلا و278 جريحا في نواحي قالمة. وقُتل الكولونيل جان بيير بإصابة في رأسه. وقتلت الكتيبة الأولى1.193 متمردا خلال هذه المعركة وأسرت 82 منهم وانتزعت منهم 92 بندقية رشاشة و209 مسدس رشاش و657 بندقية.

في يوم 29 أفريل؛ تكبدت الكتيبة الثالثة من قوات المظليين قرابة 30 قتيلا بالقرب من سوق أهراس من بينهم النقيب بومون (Beaumont).[21] كما أُسقطت بعض الطائرات الفرنسية في هذه المعركة.

تُقدر الخسائر البشرية والمادية في صفوف جبهة التحرير الوطني بعدة آلاف من القتلى وعدة مئات من الأسرى وكمية معتبرة من الأسلحة: وبلغت خسائر الجانب الفرنسي 279 قتيل و758 جريح. معنى ذلك أن جبهة التحرير الوطني خسرت معركة الحدود. ولو كان في مقدور الجيش الفرنسي ملاحقة فلولهنا في الأراضي التونسية لما بقي لها جيشٌ نظامي.

صار اختراق الحاجز الحدودي أمرا في غاية الصعوبة وتوصلت الهجمات ضده من طرف جبهة التحرير الوطني محاولة منها شل حركة 80.000 من الجنود الفرنسيين بغرض تخفيف الحصار المضروب حول مقاتليها في داخل الجزائر؛ ولكنها لم تعد تحلم باختراق ذلك الحاجز وكانت تتكبد هناك خسائر فادحة. ولتقريب صورة تلك الخسائر نشير إلى أنه في سنة 1959 لم ينج سوى 30 من أصل 900 من مقاتلي جبهة التحرير أثناء إحدى الهجمات في حين راح عدد الخسائر يتناقص في الجانب الفرنسي.

---

21. انظر كتاب P. Montagnon السابق ذكره.

تجدد المعارك على تخوم النمامشة والأراضي التونسية

تواصلت هجمات جبهة التحرير الوطني على الجزء الجنوبي من الحاجز الحدودي بينما كانت المعركة الرئيسية تدور في الشمال.

تولى الجنرال سوفانياك (Sauvagnac) قيادة القوات المرابطة في قطاع تبسة؛ وهو من قدماء المظليين في الحرب العالمية الثانية وكان على رأس كتيبة المظليين في الهند الصينية قبل أن يتم تنصيبه على رأس الفيلق الخامس والعشرين في الجزء الشرقي من الجزائر الوسطى.

كان تحت إمرته عدد هام من كتائب المدرعات والمظليين وفرق المشاة والمدفعية والطيران في نواحي كل من تبسة ومسكيانة وعين بيضاء ونقرين الخ...

في يوم 3 جانفي 1958؛ شنت الكتيبة الثامنة من قوات المظليين، بقيادة الكولونيل فوركاد، هجوما في أعماق جبل تروبيا غربي تبسة فألحقت بعصابة المتمردين 34 قتيلا وانتزعت منهم 28 قطعة سلاح.

وفي 11 جانفي، في جبل طارف (1.163م) غربي عين البيضاء قتلت الكتيبة 117 متمردا واسترجعت 60 قطعة سلاح. قُتل النقيب رومر (Romer) على رأس الكتيبة الرابعة.

في يوم 5 فيفري وفي جبل طارف نفسه؛ اعترضت القوات الفرنسية سبيل قافلة محملة بالأسلحة لفائدة قوات جبهة التحرير الوطني وأسفر الهجوم عن مقتل 21 متمردا والاستيلاء على 42 قطعة سلاح.

كما قتلت القوات الفرنسية 200 متمرد في نواحي عين البيضاء وأسرت 50 منهم واستولت على مدفع هاون من عيار 81 و14 رشاشة و22 بندقية رشاشة و180 قطعة ما بين مسدسات رشاشة وبنادق.

وصلت الكتيبة الثالثة من قوات المظليين، بقيادة الكولونيل بيجار، لتقديم الدعم وتمركزت في يوكس لي بان (Youks- les- Bains)* غربي تبسة. وبينما حين كانت

---

* حمامات معدنية.

الكتيبتان الثالثة والسادسة من القوات المحمولة تراقبان النواحي القريبة من بئر العاتر ونقرين راحت الكتيبتان الأولى والثانية تجوب في طول وعرض الهضبة الواقعة بين الأوراس النمامشة والشطوط وهي منطقة شبه قاحلة يبلغ طولها 200 كلم وعرضها حوالي 50 كلم. وكانت الكتيبة الأولى تجوب نواحي زريبة الواد والكتيبة الثانية في نواحي شط ملغيغ بين بسكرة وتقرت.

في يوم 7 فيفري 1958 قُتل الملازم أول بورجوا (Bourgeois) حين كان يهمّ بمهاجمة عصابة متمردين في ناحية رويجل.

وفي 25 و26 من الشهر نفسه؛ تمت مهاجمة عصابة متمردين في جبل مزوزية (1.376م) شمال غربي تبسة؛ قتل هناك 31 متمردا وتم الاستيلاء على 14 قطعة سلاح. وسقط في صفوف القوات الفرنسية 7 قتلى و11 جريحا.

في 28 من ذات الشهر؛ حاولت قوة معتبرة من المتمردين التسرب عبر القسم الجنوبي من الحاجز الحدودي فهاجمتها الكتيبة الثالثة والثامنة من قوات المظليين والكتيبة الرابعة عشر من القناصة المظليين فقتلت 112 متمردا وأسرت 10 واستولت على مدفعي هاون و4 رشاشات ووبندقيتين رشاشتين و80 قطعة أخرى ما بين مسدس رشاش وبندقية.

صرّح بيجار بأن كتيبته فقدت، خلال شهر واحد، 8 قتلى و10 جرحى في قطاع تبسة ولكنها قتلت 350 متمردا وأسرت 25 واستولت على 200 قطعة سلاح. ثم صرح بأن كتيبته قتلت، خلال ثمانية شهور، 1.600 متمرد وأسرت 1.600 آخرين واستولت على 950 قطعة سلاح حربي و970 بندقية صيد.

وحين استُدعي بيجار للإشراف على مركز للتدريب على تقنيات الحرب المضادة للتمرد، في نواحي فيليب فيل، سلّم قيادة الكتيبة الثالثة من قوات المظليين إلى الكولونيل ترانكيي (Trinquier) الذي سبق له أن حارب في الهند الصينية على رأس عدة مئات من الجبليين المناهضين للشيوعيين في خليج طونكين؛ كما شارك إلى

جنب الباش أغا بوعلام والقس أفريل في عمليات إيواء الحركى بفرنسا بعد سنة 1962.

في يوم 24 مارس 1958؛ قضت قوات ترانكيي على قرابة مائة متمرد وانتزعت منهم 98 قطعة سلاح. وفي يوم 2 أفريل؛ في جبل العنق وغيفوف، بنواحي نقرين، قتلت الكتيبتان الثالثة والثامنة 90 متمردا وأسرت 39 واستولت على 3 رشاشات و5 بنادق رشاشة و90 قطعة أخرى بين مسدس رشاش وبندقية.

غيَّر المتمردون تكتيكهم محاولين العبور إلى الارضي الجزائرية في مجموعات صغيرة العدد؛ ولكن الكتيبة الأولى من الخيالة المظليين والكتيبة الأولى من قوات المشاة كانت بالمرصاد فخسر المتمردون، مرة أخرى، 147 قتيلا و29 أسيرا و5 بنادق رشاشة و5 رشاشات و122 قطعة بين مسدس رشاش وبندقية.

في شهر أفريل 1958؛ وصلت الكتيبتان الرابعة والخامسة من القوات المحمولة التابعة لقوات المظليين قادمة من موريتانيا، حيث كانت ترابط، فتمركزت الكتيبة الرابعة في فركان (غربي نقرين) وتمركزت الخامسة في ليانا (جنوبي خنقة سيدي ناجي). ثم وصل الكولونيل أوجيي دي بولني (Ogier de Baulny) إلى نقرين على رأس المظليين الخيالة وتولى قيادة هذا القطاع الفرعي. كان هذا الأخير أرستقراطيا وفارسا، بالمعنى النبيل لهذه العبارة، وكان ذي مزاج طيب ومحبب وكان، في سنة 1954، مكلفا بتدريب الجنود في الكتيبة الأولى من قوات المظليين. صرَّح، في سنة 1961، عن تأييده للجنرال شال فوُضع بسبب ذلك حدٌّ لمساره العسكري المتميز.

كان تكتيك القيادة العسكرية الفرنسية العاملة في شرق منطقة النمامشة وقبالة الأراضي التونسية تتحدد تبعًا للتكتيك المتبع من طرف القوات النظامية التابعة لجبهة التحرير الوطني في الأراضي التونسية: وبما أن الفرنسيين لم يكن يحق لهم مهاجمة حرمة جبهة التحرير في تونس فإنهم كانوا مضطرين للركون إلى موقف دفاعي محض؛ ولم يكن ذلك الموقف سهلا ولا مريحا: إذ لا مناص لهم من ترقُّب هجمات الأعداء دون أن يعلموا شيئا عن مكانها ولا عن توقيتها.

ثمة محوران اثنان يمكن لقوات جبهة التحرير الوطني أن تهاجم عبرهما وهما: منطقة تبسة وما جاورها من جبال ذات أشجار كثيفة نسبيا أو المنطقة الواقعة جنوب بئر العاثر إلى غاية الشطوط القاحلة.

قررت القيادة الفرنسية تركيز قواتها الرئيسية في ناحية تبسة وفي العمق إلى غاية عين البيضاء تحسُّبا للمواجهة السريعة إذا ما شنَّت القوات المعادية هجوما مباغتا.

عُهد بمراقبة المناطق الجنوبية إلى القوات المدرعة التابعة لكتيبة السبايس المغاربة والمظليين الخيالة ولكتائب المحمولة.

كانت المعارك تنشب بغتة في الأماكن التي يختار المتمردون التسرب عبرها والتي يحققون فيها تقدما معتبرا قبل أن تكتشفهم القوات الفرنسية فتهاجمهم.

كانت الهجمات المضادة تتم بصورة خاطفة وفعَّالة وغالبا ما يتم تدمير قوات العدو قرب المنطقة الحدودية قبل أن يتمكن من التوغل داخل الأراضي الجزائرية.

في يوم 17 ماي 1958؛ تمكنت عصابة المتمردين من الوصول إلى جبل بوجلال جنوبي تبسة فهاجمتها كتيبة المظليين الثامنة وقتلت 23 متمردا واستحوذت على 9 قطع أسلحة.

وتمكنت كتيبة المظليين الثالثة التي أُرسلت إلى جنوب المنطقة لإفشال محاولة تسرب من طرف قوات جبهة التحرير الوطني فأبادت منها كتيبتين كاملتين في ناحية نقرين.

بعد تحسُّن الوضع العسكري في منطقة الهضاب الوسطى تم تعزيز قوات المدرعات المرابطة في نواحي تبسة حيث أُرسلت إلى هناك الكتيبة الأولى من المظليين الخيالة بعد أن أُسند قيادتُها إلى الكولونيل دي بلانيير (de Blingnéres) خلال صيف تلك السنة.[22]

22. أعلن عن معارضته للجنرال ديغول. في سنة 1962، فحُكم عليه بالسجن لعدة سنوات.

وفي شهر أوت تقدمت العناصر المتمردة شمالا إلى غاية واد الهلايل حيث هُزمت على يد العناصر التي مكثت هناك من كتيبة المظليين الرابعة.

مهما يكن فلقد أسفرت هذه المعارك الحدودية التي وقعت، سنة 1958، على تخوم بلاد النمامشة عن مقتل وأسر ما لا يقل عن 1.600 متمرد والاستحواذ على أزيد من 1.200 قطعة سلاح من بينها عدد من مدافع الهاون وعشرات الرشاشات والبنادق الرشاشة.

بدأت قوات التمرد المتمركزة في الأراضي التونسية ترفض مهاجمة الحاجز الحدودي وأشارت المعلومات إلى وقوع عصيان في صفوف المتمردين.

المعارك في عمق جبال النمامشة وعلى تخوم الأوراس في مطلع سنة 1958

بقيت الأوضاع هادئة في أعماق بلاد النمامشة خلال سنة 1958. فلم تعد تلك الكتلة الجبلية تُعتبر قاعدة عتيدة للمتمردين بالرغم من الأخطار المحدقة فيها بسبب وصول بعض عصابات المتمردين من الأراضي التونسية ومن طرف العصابات التي ظلت صامدة في الأوراس.

أمكن تخفيف الإجراءات العسكرية في النمامشة بعد أن أصبح ضباط المصالح الإدارية المتخصصة (SAS) يتوفرون على عدد من الحركى لحماية التجمعات السكنية الرئيسية ومنع تشكيل جماعات متمردة جديدة.

كانت الكتيبة الثامنة عشر من قوات القناصة تراقب وادي العرب لمنع المتمردين الأوراسيين من مغادرة جبل بني ملول نحو جبال النمامشة.

أرسلت القيادة العسكرية، لبعض الوقت، كتيبة من القوات الكولونيالية إلى سيار وآخرى إلى خنشلة. وكان المجندون لخدمة العلم وفرق الحركى تلعب دورا مهما جدا في حماية القسم الأوسط من هذه الكتلة الجبلية.

وتمركزت الكتيبة التابعة لنصف زمرة المرتزقة الثالثة عشر في القسم الشمالي الشرقي من جبال الأوراس حيث كانت عصابة عمراني تهدد منطقة شمال النمامشة.

أما المنطقة الوسطى من جبال النمامشة مع جبال الأوراس فكانت تابعة لقطاع الجنوب القسنطيني والتي كانت، من سنة 1955 إلى 1957، تحت قيادة الجنرال فانوكسيم المقيم في باتنة ثم أصبحت، في سنة 1958، تحت قيادة الجنرال دي. كريفكور (de Crévecœur) الذي أبلى بلاء حسنا في الهند الصينية.

كانت بعض عصابات المتمردين تختبئ في أقسام المنطقة الجبلية الأكثر وعورة حيث تشكلت عصابة جديدة قوامها 200 رجل في جبل بني ملول.

كانت العصابة الرئيسية في جبال النمامشة تعُد في صفوفها 250 عنصرا من الشاوية الذين كانوا يقاومون ضد فرنسا بدون الاعتراف بجبهة التحرير الوطني. كان هؤلاء يُحسبون على حزب الحركة الوطنية المؤيد لمصالي الحاج ولكنهم لم يكونوا كذلك مطلقا.

في يوم 8 جانفي 1958؛ قامت الكتيبة الأولى بدورية ليلية باغتت خلالها إحدى العصابات المتواجدة في إحدى الغابات المحاذية لواد أدفي جنوبي بوحمامة. يتعلق الأمر بمجوعة متمردين قادمين من الأراضي التونسية ومتوجهين إلى نواحي بالسترو (الأخضرية) في جنوب شرقي مدينة الجزائر. فرُّوا مخلفين قرابة 20 قتيلا في ميدان المعركة.

في 13 جانفي جاءت إحدى كتائب المرتزقة من عين ڤيڤل في دورية ليلية فأبادت عصابة متمردة أخرى وانتزعت منها أسلحتها ومن ضمنها رشاشة وبندقية رشاشة. كانت تلك المنطقة الوعرة كثيرة الأشجار وتتساقط فيها الثلوج وكان المتمردون يتمركزون فيها منذ سنة 1954 وهاجمتهم، في شهر مارس 1956، كتيبة المظليين الأولى سقط في صفوفها ملازم أول في ناحية عين ڤيڤل.

ضجر السكان من فظاعة أعمال جبهة التحرير الوطني فبدءوا يطالبون بالحماية من طرف القوات الفرنسية ونزحت 800 عائلة بربرية إلى بوحمامة للاحتماء بقوات المرتزقة.

بعد أن أصبح المقدم لاكوت (Lacote) قائدا لأركان نصف زمرة اللفيف الأجنبي سلَّم القيادة إلى رئيس الفوج، فيوليس (Vieulés) أحد قدماء المحاربين في الحملة العسكرية بتونس ضد القوات الألمانية، سنة 1943، وكان أيضا مساعد المقدم قائد الكتيبة الأولى من قوات اللفيف الأجنبي في ديان بيان فو. ولقد جُرح هذا الأخير سبع مرات وعُلقت النياشين على صدره سبعة عشر مرة.

تشكلت فرقة قوية من الحركى المحليين أي من الشاوية الذين لم يعودوا يطيقون صبرا بدكتاتورية جبهة التحرير الوطني وراحت تقاتل المتمردين بضراوة كبيرة؛ ولقد سمحت المعلومات التي قدمها بعض المتمردين الفارين من الصفوف بقصف أوكار جبهة التحرير الوطني في غابة بني ملول.

في 10 فيفري 1958: قامت نصف الزمرة الثالثة عشر من قوات اللفيف الأجنبي بمحاصرة إحدى العصابات في جبل جحفة (1.719م) جنوبي خنشلة فقتلت قرابة 40 متمردا واستولت على مدفع هاون من عيار 81 وآخر من عيار 50 و5 رشاشات و4 مسدسات رشاشة و15 بندقية حربية.

في شهر مارس 1958؛ تم تكليف الكتيبة الثامنة عشر من المظليين الخيالة بمراقبة بابار وزوي وخيران. وفي 7 ماي تم القضاء على عمراني وبقايا عصابته في جبل أكار من طرف نصف زمرة المرتزقة الثالثة عشر ثم أبادت لعد ذلك، يوم 6 جوان، 24 متمردا في جبل فورحال (1.700م) جنوب غربي إدغار كيني (Edgar Quinet)*.

سلَّم قرابة 100 متمرد نمامشي أنفسهم إلى النقيب قائد مصلحة المصالح الإدارية المتخصصة (SAS) في بابار؛ ولكن قرابة 100 متمرد آخر واصلوا القتال تحت إمرة نصراوي عمار الملقب عمار رافال (rafale) لأنه يملك بندقية نصف أوتوماتيكية.

---

*: قيس حاليا (المترجم).

تطور الوضعية السياسية سنة 1958

كان أهم حدث في سنة 1958 ذا طبيعة سياسية: ففي 9 ماي صدر بيان عن جبهة التحرير الوطني بتونس يعلن عن إعدام 3 جنود فرنسيين بتهمة اقتراف جرائم. وفي الحقيقة لم يقترف هؤلاء الرجال الثلاثة أية جريمة. بل كانوا ضمن قافلة صغيرة تمت مباغتتُها قرب الحدود التونسية في مكان يقع شمال القطاع القسنطيني من طرف إحدى عصابات جبهة التحرير الوطني فقتلت عددا كبيرا من رفاقهم وأسرت هؤلاء الثلاثة فاقتادتهم إلى تونس.

في يوم 13 ماي؛ انتظمت مظاهرة عارمة بمدينة الجزائر تحية لأرواحهم. اجتاحت جمهرة المتظاهرين قصر الحكومة العامة دون أن تعترض قواتُ الجيش والشرطة سبيلها.

تأسست لجنة للخلاص العام. وانضم الجنرال ماسو (Massu) إلى صفوفها رفقة كثير من الضباط وبعض المسلمين أمثال المقدم مهدي والنقابي مدني اللذين اغتالتهما جبهة التحرير الوطني فيما بعد.

دعا الجيشُ الجزائريينَ المسلمين إلى الخروج في مظاهرات ضد جبهة التحرير الوطني فاستجابوا لندائه: وعبَّر عدد كبير من سكان القصبة عن تآخيهم مع الأوروبيين وأقدمت بعض النساء المسلمات على حرق حجبهن وانتشرت رقعة هذه المظاهرات المضادة لجبهة التحرير الوطني إلى كافة أنحاء القطر الجزائري وشاركت فيها جموعٌ غفيرة من المسلمين.

أعلنت جبهة التحرير الوطني أن هؤلاء أُرغموا على الخروج للتظاهر. ربما أمكن إرغام الناس على التظاهر ولكن يستحيل إجبارهم على إظهار حماسة لا تجيش في صدورهم.

في الواقع إن الأفلام والصور الفوتوغرافية لتلك الفترة تُبرز بما لا يدع أي مجال للنقاش حماسة جماهير المسلمين المناوئين لجبهة التحرير الوطني.

تطور الوضعية السياسية سنة 1958

كان أهم حدث في سنة 1958 ذا طبيعة سياسية: ففي 9 ماي صدر بيان عن جبهة التحرير الوطني بتونس يعلن عن إعدام 3 جنود فرنسيين بتهمة اقتراف جرائم. وفي الحقيقة لم يقترف هؤلاء الرجال الثلاثة أية جريمة. بل كانوا ضمن قافلة صغيرة تمت مباغتتُها قرب الحدود التونسية في مكان يقع شمال القطاع القسنطيني من طرف إحدى عصابات جبهة التحرير الوطني فقتلت عددا كبيرا من رفاقهم وأسرت هؤلاء الثلاثة فاقتادتهم إلى تونس.

في يوم 13 ماي؛ انتظمت مظاهرة عارمة بمدينة الجزائر تحية لأرواحهم. اجتاحت جمهرة المتظاهرين قصر الحكومة العامة دون أن تعترض قواتُ الجيش والشرطة سبيلها.

تأسست لجنة للخلاص العام. وانضم الجنرال ماسو (Massu) إلى صفوفها رفقة كثير من الضباط وبعض المسلمين أمثال المقدم مهدي والنقابي مدني اللذين اغتالتهما جبهة التحرير الوطني فيما بعد.

دعا الجيشُ الجزائريينَ المسلمين إلى الخروج في مظاهرات ضد جبهة التحرير الوطني فاستجابوا لندائه؛ وعبَّر عدد كبير من سكان القصبة عن تآخيهم مع الأوروبيين وأقدمت بعض النساء المسلمات على حرق حجبهن وانتشرت رقعة هذه المظاهرات المضادة لجبهة التحرير الوطني إلى كافة أنحاء القطر الجزائري وشاركت فيها جموعٌ غفيرة من المسلمين.

أعلنت جبهة التحرير الوطني أن هؤلاء أُرغموا على الخروج للتظاهر. ربما أمكن إرغام الناس على التظاهر ولكن يستحيل إجبارهم على إظهار حماسة لا تجيش في صدورهم.

في الواقع إن الأفلام والصور الفوتوغرافية لتلك الفترة تُبرز بما لا يدع أي مجال للنقاش حماسة جماهير المسلمين المناوئين لجبهة التحرير الوطني.

لا مراء في أنه كان يوجد بين صفوف المسْلمين تيارٌ متعاطف مع جبهة التحرير الوطني غير أن تيارا آخر، أقدم من الأول وربما أكثر قوة منه، كان يطمح للحصول على صفة المواطنة الفرنسية وما ينجر عنها من امتيازات.

فبعد تسليم الجزائر لجبهة التحرير الوطني؛ فإن كثيرا من المسلمين فضّلوا العمل بفرنسا، حيث حصل الكثير منهم على الجنسية الفرنسية، بدل البقاء في جزائر جبهة التحرير الوطني.

وكان الكثير من المسلمين يرغبون في توقف المعارك وعودة المصالحة. من ذلك أن الكولونيل سي شريف، أحد قادة جبهة التحرير المنضمين إلى صف فرنسا، قد عبّر عن هذا المطلب أمام جمهور المسلمين والأوروبيين خلال التجمُّع الذي انتظم بمدينة الجزائر.

بادرت لجان الخلاص الوطني بالجزائر والصحراء إلى تشكيل فدرالية موحدة وبرئاسة مشتركة كان من أعضائها أحد المسلمين هو الدكتور سي قارة.

صادق البرلمان على تشكيل حكومة برئاسة فليملن (Pflimlin) غير أن الجمهورية الرابعة كانت قد فقدت مصداقيتها بسبب ما شهدت من أزمات وزارية متكررة.

كان الجنرال ماسو وضباطٌ آخرون ممن شاركوا خلال الحرب العالمية الثانية ضمن القوات الفرنسية الحرة يعتقدون أن الجنرال ديغول هو الشخصية الوحيدة القادرة على إنقاذ فرنسا بإيجاد حل للمعضلة الجزائرية. كان قسم كبير من الجيش ومن الشعب الفرنسيين متحفظين تجاه الجنرال ديغول. ولقد سبق لحزبه، التجمع من أجل فرنسا، (RPF) أن حصل على نسبة 6،21 ٪ من الأصوات في الانتخابات سنة 1951 ثم أفل نجمه بعد ذلك؛ إذ لم يحصل الجمهوريون المنتمون إلى هذا الحزب سوى على 4٪ من الأصوات سنة 1956.[23]

---

23. انظر كتاب التاريخ في الأقسام النهائية بقلم Bernstein-Milza.

كان الجنرال سالان (Salan) قائد القوات الفرنسية في الجزائر مقربا من المركزيين ولكنه لم يكن يرغب في التصادم مع الجزائريين المتعاطفين مع فرنسا والمنتمين إلى الجاليات الثلاثة فانضم إلى فكرة الاستنجاد بالجنرال ديغول.

يبدو أن جناحا في الجيش كان على استعداد تام للقيام بانقلاب عسكري لإيصال الجنرال ديغول إلى سدة الحكم. أما بقية الجيش والشرطة فلم تكن على استعداد للدفاع عن حكومة لا تحظى برضا كثير من الفرنسيين الذين كانوا يعارضونها أو غير مكترثين بأمرها.

حظي الجنرال ديغول بتكليف من طرف أغلبية النواب بتشكيل الحكومة؛ فقام بزيارة إلى الجزائر حيث صرَّح بأنه يوجد 10 ملايين فرنسي ذوي حقوق كاملة في فئة انتخابية وحيدة ودعا المسلمين للقدوم إلى فرنسا كما دعا جبهة التحرير الوطني إلى المصالحة.

في شهر سبتمبر؛ شكلت جبهة التحرير الوطني حكومة مؤقتة برئاسة فرحات عباس مع اثنين من مساعديه هما كريم بلقاسم وبن بلة (كان هذا الأخير لا يزال في السجن بفرنسا) ومن بين الوزراء نجد بن طوبال بوصوف شريف محمود بن خدة ويزيد.

كان محمدي السعيد على رأس قوات جبهة التحرير في الأراضي التونسية وعميروش على رأس الولاية الثالثة (القبائل) والكولونيل لعموري على رأس الولاية الأولى (الأوراس والنمامشة) وكان هذا الأخير من مؤيدي الديكتاتور المصري ناصر وبن بلة؛ فتم استدعاؤه إلى تونس واستبداله من طرف حاج لخضر أحد المسئولين على منطقة سوق أهراس.

صادقت أغلبية ساحقة في فرنسا والجزائر على الدستور الجديد الذي وسَّع سلطات رئيس الجمهورية وقلَّص سلطة البرلمان.

في أكتوبر 1958؛ وجَّه الجنرال ديغول إلى جبهة التحرير نداء يدعوها إلى التزام "سلم الأبطال".

في سنة 1958؛ كان عدد المسلمين في صفوف الجيش الفرنسي قرابة 200.000 محارب: من بينهم 40.000 من المجندين لخدمة العلم و160.000 متطوع وكان من ضمن هؤلاء 20.000 عسكري محترف و80.000 حركي ومخازني، يقوم بعضُهم بتعزيز الوحدات الفرنسية ويعمل بعضُهم الآخر تحت إمرة ضباط المصالح الإدارية المتخصصة (SAS)، و10.000 رجل ضمن قوات الحرس الريفي المتنقل (GPMR) و50.000 قروي مسلح ضمن فِرق الدفاع الذاتي التي تتولى حماية قراها من هجمات عناصر جبهة التحرير الوطني.

يضاف إلى هؤلاء جميعا عشرات الآلاف من المسلمين ضمن وحدات الاحتياط التي كانت تعزز القوات الفرنسية وخصوصا ما تعلق بحراسة المراكز الحساسة.

بلغ مجموع القوات الفرنسية العاملة بالجزائر قرابة 600.000 جندي يمثل الجزائريون المسلمون نسبة الثلث منهم.

إذا أضفنا إلى عدد هؤلاء المسلمين الجزائريين، الذين حاربوا إلى جانب فرنسا، عائلاتهم يكون المجموع الكلي قرابة ثلاثة ملايين مسلم من بين تسعة ملايين. وينبغي أن ندرج في الحسبان أيضا مئات الآلاف الذين تظاهروا ضد جبهة التحرير الوطني أو شاركوا في الانتخابات رغم أوامر الجبهة بالامتناع.

يعتبر الباش آغا بوعلام من أبرز المسلمين المتعاطفين مع فرنسا. وهو سليل إحدى الأُسر العربية التي قدمت إلى الجزائر مع الغزوة الهلالية في القرون الوسطى. ولقد شاركت عائلتُه في المقاومة مع عبد القادر ثم انضمت إلى الفرنسيين: ولقد شارك عدد كبير من أفراد عائلته في شتى الحروب إلى جانب فرنسا منذ سنة 1859.

هو من مواليد سنة 1906 في سوق أهراس حيث كان أبوه يعمل في قوات الدرك. تطوع سنة 1924 في صفوف القناصة الجزائريين وحارب من أجل فرنسا ثم خرج من الخدمة في سنة 1946. حاصل على رتبة نقيب في قوات الاحتياط وتم تعيينه

في منصب قايد بني بودوان، وهي قبيلة بربرية مستعربة تقطن في نواحي أورليان فيل (الشلف) ثم تقلد رتبة أغا فارس آمر ضمن جوقة الشرف.

بالرغم من أنه لم يكن بحوزته سوى 24 مسلحا ببنادق الصيد لحراسة دواره، الذي تبلغ مساحته 33.000 هكتار، فإنه تمكن من إفشال هجمات جبهة التحرير الوطني وحارب، في سنة 1956، ضد المعاقل التي أسسها الشيوعيون أمثال لابان (Laban) ومايو (Maillot) اللذين ماتا مقتولين.

اغتالت جبهة التحرير أحد إخوته وأحد أولاده وثلاثة من أصهاره وقرابة ثلاثين عنصرا من أفراد عائلته و300 من قبيلة بني بودوان، خلال الحرب، بالإضافة إلى عدد غير محدد منهم إثر انتهاء الحرب.[24]

شارك 1.500 حركي من بني بودوان في الحرب إلى جانب فرنسا. كان الباش أغا مثالا في الإنسانية والكرم والورع والتسامح والشجاعة. في سنة 1990: حاول أحد شيوخ البلديات الفرنسية، وهو شاب اشتراكي، تغيير تسمية أحد الشوارع التي كانت تحمل اسمه فتظاهر آلاف من قدماء الحركى وتضامن معهم عدد كبير من العسكر الذين شاركوا في الحرب إلى جانبهم وكان المتظاهرون يهتفون قائلين: "إننا فرنسيون بفضل دمائنا التي أُريقت في سبيلها".

تشير الإحصائيات الصادرة سنة 1958 إلى أن عدد القتلى في صفوف الجيش الفرنسي، منذ سنة 1954، بلغ 7.000 قتيل أثناء المعارك في الجزائر كان من ضمنهم نسبة معتبرة من المسلمين الجزائريين. وينبغي أن ندرج في الحسبان آلاف الأموات بسبب المرض وحوادث السير في الطرقات غير المعبدة وما يربو عن 30.000 جريح. لئن لا يصح اعتبار حرب الجزائر مجرد عملية بوليسية فلا ينبغي أيضا اعتبارُها حربا حقيقية بمعنى الكلمة.

---

24. انظر كتاب الباش أغا بوعلام بعنوان: Mon pays la France. منشورات France Empire. 1962.

كانت معظم المهام التي أنجزتها القوات الفرنسية في المجال الإنساني أكثر من الميدان العسكري المحض: معالجة المرضى، تعليم الأطفال، التسيير الإداري، ترميم الطرقات غير المعبدة، تشييد البناءات الخ... وكل ذلك في صالح السكان المسلمين.

تشير الإحصائيات الفرنسية، الصادرة سنة 1958، إلى أن عدد القتلى في صفوف جبهة التحرير الوطني بلغ، منذ سنة 1954، 80.000 قتيل. وأنا أعتقد شخصيا بأن هذا العدد مبالغٌ فيه كثيرا؛ فمن المعلوم أن البيانات العسكرية، في أي مكان، تميل إلى تضخيم عدد الخسائر في صفوف العدو.

أسفرت انتخابات نوفمبر 1958، في البلد الأم، عن النتائج التالية: 20٪ لصالح الحزب الديغولي، و22٪ لليمين الليبرالي و10٪ للمسيحيين الديمقراطيين و2٪ لأقصى اليمين و19٪ للحزب الشيوعي و15٪ للحزب الاشتراكي والباقي للراديكاليين وغيرهم.

جرت الانتخابات في الجزائر ضمن قائمة انتخابية موحدة فتم انتخاب 67 نائبا من بينهم 46 من المسلمين الذين لم يعيروا أدنى اهتمام لتهديدات جبهة التحرير الوطني.

رفض الجنرال ديغول تدخل الأمم المتحدة لمحاولة إيجاد حل مقبول للقضية الجزائرية.

في حالة انتصار جبهة التحرير الوطني في الانتخابات؛ كان في يد فرنسا أحد حلين: إما ترحيل الجزائريين، على اختلاف أصولهم العرقية، الراغبين في البقاء فرنسيين وإما تجميعُهم في جزء من الجزائر ليتمكنوا من تشكيل الأغلبية هناك.

في ديسمبر 1958 تم انتخاب الجنرال ديغول رئيسا للجمهورية. أصدر أمرا بتحويل الجنرالات المتحفظين على سياسته من الجزائر إلى فرنسا أمثال سالان وفنوكسيم. تم تعيين الجنرال شال على رأس القوات المسلحة الفرنسية بالجزائر وهو من قدماء الطيارين والمقاومين الفرنسيين خلال الحرب الثانية.

المعارك في جبال النمامشة والأوراس الشرقية مع نهاية سنة 1958

في الوقت الذي جرت فيه هذه الأحداث السياسية كانت الأوضاع تزداد انفراجا في جبال النمامشة حيث تراجع عدد الهجمات من قِبل قوات جبهة التحرير، المرابطة في الأراضي التونسية، كما انخفض عدد الاشتباكات على الحدود التونسية الجزائرية وفي ناحية تامزا حيث ظهرت على جبهة التحرير آثار الضعف والاضطراب.

حين استعاد السكان البربر الشعور بالأمان رجعوا إلى عادتهم السابقة المتمثلة في ارتياد سوق إيدغار كيني (Edgar Quinet) الذي استعاد حيويته التي كان عليها قبل انلاع التمرد.

لم يعد في مستطاع المتمردين اقتطاع زادِهم من المئونة الخاصة بالسكان فلقد أصبح هؤلاء تحت حماية قوات الحركى المحلية. مما اضطر المتمردين إلى التمركز في المناطق المنيعة التي يصعب الوصول إليها في جبل شليا وغابات بني ملول وجبل أحمر خدو الخ..

ابتداء من شهر جويلية حلَّت قوات المدفعية محل نصف الزمرة الثالثة عشر من قوات اللفيف الأجنبي. ثم شرعت في سلسلة من العمليات في نواحي فنطيس شرقا وباتنة غربا ثم شرعت شيئا فشيئا في التخلي عن مراكزها لقوات الحركى. وفي 11 أوت قضت على عصابات المتمردين المعتصمة بجبل محمل (2.327م)، شمالي آريس، وفي 7 سبتمبر في جبل رفاع (2.170م) غربي باتنة.

قضت هذه الزمرة قرابة سنتين في جبال النمامشة وسنة كاملة في شمال شرق الأوراس المحاذية لجبال النمامشة. تكبدت خلال مُقامها بالأوراس، من سبتمبر 1957 إلى سبتمبر 1968، 52 قتيلا من بينهم الملازم أول سيبتافو (Septavaux) و99 جريحا.

في شهر أكتوبر 1958؛ أرسلت هذه إلى منطقة القبائل ثم رجعت إلى جبال الأوراس.

اكتشفت الطائرات العسكرية عصابة قوامها قرابة 200 متمرد في غابة بني ملول غربي واد العرب.

في أواخر أكتوبر 1958: دفعت القيادة العسكرية رتلا من الدبابات والسيارات من تابرڤة إلى خيران.

كشف المتمردون تلك القوات في الحين فانسحبوا من معقلهم. ثم سقطت أمطار غزيرة فاستحالت الطرق غير المعبدة مستنقعات أعاقت تحرك الدبابات وأجبرت الجنود المشاة على دفع الشاحنات لإخراجها من مأزقها.[25]

في يوم 6 ديسمبر تكبدت تلك الكتيبة، في كاف توفيقت قرب باتنة، 10 قتلى من بينهم النقيب دي ثولوزاني (de Tholozany) و17 جريحا أثناء واحدة من أعنف المعارك التي خاضتها هذه الكتيبة في الجزائر.

عاد نصف زمرة اللفيف الأجنبي،مرة أخرى، إلى منطقة القبائل حيث قُتل الكولونيل سينجاس (Sengés) وكان من العسكر الذين تفتخر بهم قوات المرتزقة.

تم سحب الكتيبة الثانية من قوات الخيالة المرتزقة من نڤرين وأُرسلت إلى الجنوب. وتم تعويضها من طرف سرية من قوات السبايس المدرعة على هذا الجزء من الحاجز الحدودي الذي كان يحمي السفوح الجنوبية لجبال النمامشة.

وفي هذه المنطقة أيضا كانت معركة النمامشة نموذجا ملموسا للأحداث التي عرفتها حرب الجزائر؛ ومن ذلك مثلا أن إبادة كبريات عصابات المتمردين من طرف القوات النظامية هو الذي سمح للفرق المحلية بالحلول محلها ومكّن فرق الحركى المسلمين من ملاحقة ما بقي من فلول المتمردين.

---

[25] انظر كتاب P. Montagnon السابق الذكر.

كما أن ضجر السكان المسلمين وحنقهم من شطط جبهة التحرير الوطني صار ظاهرا للعيان منذ سنة 1956 في منطقة النمامشة حيث مكّنت المعلومات المستقاة من العشائر القاطنة بالمنطقة من مهاجمة المتمردين مرارا وتكرارا منذ مطلع تلك السنة ثم ارتفع عدد الهجمات خلال سنة 1957 مما أسفر، حتى قبل التآخي في ماي 1958، عن حركة واسعة النطاق للسكان نحو المراكز الفرنسية لالتماس حمايتها من تصرفات جبهة التحرير الوطني.

كانت حركة التآخي، التي بدأت في شهر ماي 1958، نتيجة حتمية لهذا التطور الحاصل في كل أنحاء الجزائر.

كان استفتاء سبتمبر 1958 يتوخى أن تنال الجزائر استقلالها في حالة ما إذا أسفرت النتائج عن إجابة الأغلبية ب لا. غير أن جبهة التحرير الوطني اعترضت على نتائج الصندوق بالرغم مما أصابها من إحباط نفسي وما تفجّر من جدل في صفوفها.

بادر الكولونيلات: حاج لخضر (الولاية الأولى) وعميروش (الولاية الثالثة) وسي محمَد (الولاية الرابعة) وسي الحواس (السادسة) إلى تنسيق مواقفهم للوقوف في وجه حكومة جبهة التحرير الوطني التي تشكلت في تونس تحت قيادة كل من فرحات عباس وكريم بلقاسم.

حاول الكولونيل لعموري، قائد الولاية الأولى سابقا هو ومن مؤيدي ناصر وبن بلة، استغلال ذلك الاستياء الذي شمل قوات جبهة التحرير الوطني المرابطة في الأراضي التونسية والتي سبق أن تمرد بعضُها ضد مهاجمة الحواجز الحدودية بسبب خسائرها الفادحة هناك.

اعتقلت حكومة جبهة التحرير الوطني، بمؤازرة تونسية، الكولونيل لعموري الذي أُعدم رميا بالرصاص بعد ثلاثة شهور من تلك المحاولة.

4 . بعض وقائع سنة 1959

تطور الوضع العسكري والسياسي العام

ترك الجنرال سالان، عند مغادرته الجزائر، وضعا سياسيا ملائما. وكان قد أشرف، خلال سنة 1957، على إقامة الحواجز الحدودية التي كسرت شوكة القوات النظامية التابعة لجبهة التحرير الوطني المرابطة في كل من تونس والمغرب. كما أنه أسس احتياطيا من قوات الصدام قوامها حوالي 20.000 من المظليين ومن المرتزقة والقناصة الجزائريين.

ولقد بادر خلفُه، الجنرال شال، إلى استعمال تلك القوات الاحتياطية لسحق ما بقي من قوات تابعة لجبهة التحرير داخل الجزائر والتي كانت تختنق بسبب افتقارها إلى الإمدادات من الأسلحة والذخيرة.

في الفترة من فيفري إلى أفريل دفع بقواته الاحتياطية لمهاجمة المناطق الجبلية في شمال القطاع الوهراني حيث فقدت جبهة التحرير الوطني نصف قواتها هناك. ثم شرعت فرق الكومندوس المؤلفة من المجندين الفرنسيين الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية ومن المتطوعين المسلمين تجوب أطراف تلك الأصقاع لمنع جبهة التحرير من إعادة تسريب قواتها إلى تلك المنطقة.

في مطلع شهر مارس قتلت القوات الفرنسية كلا من الكولونيل عميروش (الولاية الثالثة) والكولونيل سي حواس (الولاية السادسة) حين كانا في طريقهما إلى الأراضي التونسية عبر الجنوب الجزائري.

وخلال الفترة من أفريل إلى جوان هاجمت قوات الجنرال شال المناطق الجبلية في شمال القطاع الأوسط. قُتل الكولونيل سي محمَد (الولاية الرابعة) وأبيد ما يقرب من 40٪ من قواته. ثم خلفه المقدم سي صالح على رأس الولاية.

في شهر جويلية 1959؛ هاجمت قوات الاحتياط جبال الحضنة الواقعة غرب جبال الأوراس وأبادت حوالي 50٪ من قوات جبهة التحرير الوطني.

ثم جاء دور منطقة القبائل حيث استغرقت الهجمات عليها عدة شهور. فخسر المتمردون هناك ما يقرب من 60٪ من قواتهم. ولقد طلب سكان بعض القرى القبائلية من السلطات الفرنسية تزويدها بالأسلحة لتتمكن من الدفاع عن نفسها ضد ما تبقى من المتمردين الناجين من عمليات الإبادة.

هذه العمليات الهجومية كبدت جبهة التحرير ما يقرب من 26.000 قتيل و11.000 جريح وفقدان 21.000 قطعة سلاح من بينها 2.200 مدفع هاون ورشاشات وبنادق رشاشة.

بالموازاة مع هذه الإجراءات العسكرية بُذلت جهودا معتبرة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية وتم تطوير استغلال البترول في الصحراء.

خلال سنة 1959؛ وجّه الجنرال ديغول نداءات إلى جبهة التحرير الوطني ولكن الجبهة قدرَّت أنها ستحقق المزيد من الأهداف بالتمادي في موقفها المتصلب وليس بتقديم التنازلات.

دعت الجبهةُ إلى مقاطعة الانتخابات البلدية المقررة لشهر أفريل 1959 وهدَّدت بقتل المرشحين إليها. مهما يكن فلقد قرر 12.000 من المسلمين الجزائريين تحدي التهديدات فتم انتخابهم مستشارين بلديين أو رؤساء بلديات.

في سبتمبر 1959؛ قدَّم الجنرال ديغول عرضا مفاده أنه بعد استتباب السلم سوف يتم تنظيم استفتاء ذاتي يُتيح للجزائريين إمكانية الاختيار بين: "التفرنُس" أو القطيعة أو الارتباط مع فرنسا. وكان من الجلي أنه يميل إلى هذا الخيار الأخير ويتمنى أن يجر جبهة التحرير إلى الخيار نفسه وغرس في نفوس الجزائريين الراغبين في البقاء فرنسيين، مهما كنت أصولهم العرقية، إحساسا بأنه لن يتخلى عنهم لفائدة جبهة التحرير الوطني.

صرحت جبهة التحرير الوطني بأن هذا المقترح من طرف ديغول إن هو إلا تنازلٌ سوف تليه تنازلات أخرى. ثم دعت أنصارها إلى استعادة الثقة والأمل وشدَّدت ضغوطها على الذين فضلوا الوقوف كمتفرجين وجددت التهديدات ضد مناوئيها.

كان من الممكن تنفيذ الاستفتاء الذاتي فورا وتحت رقابة دولية لقطع الطريق أمام أي اعتراض ولكن تأجيله هو الذي زاد الوضع تعقيدا. ذلك أن المسلمين المترددين امتنعوا عن المجازفة بمصائرهم في سبيل فرنسا ما لم يطلعوا على نتائج التصويت؛ أما أنصار جبهة التحرير فاستعادوا الأمل واستمروا في المقاومة.

إن الحل الذي كان الجنرال ديغول يتمنى تحقيقه من وراء بناء جزائر مستقلة، ديمقراطية، متعددة الاتجاهات ومحتفظة بوشائج متينة مع فرنسا كان يبدو فكرة منطقية ومرغوب فيها.

بيد أن الجنرال، على ما يبدو، كان يملك تصورا خاطئا عن الطبيعة الاستبدادية لجبهة التحرير الوطني؛ مما جعل موقفه يُفضي إلى حلٍّ لم يكن ينكر مخاطره.

المعارك في جبال النمامشة

تواصلت المعارك في جبال النمامشة، سنة 1959، ضمن هذا السياق السياسي والنفسي والعسكري.

أقحم الجنرال شال قواته الاحتياطية في شمال الجزائر وقرر أنه سيتفرغ لمنطقتي النمامشة والأوراس فيما بعد. فواصلت القوات المرابطة هناك في أداء مهمتها ألا وهي إحكام القبضة على الحدود لمنع قوات جبهة التحرير المرابطة في الأراضي التونسية من إمداد قواتها في النمامشة بالأسلحة والمؤن.

كان الحاج لخضر، قائد منطقة الأوراس والنمامشة (الولاية الأولى) شاويًا ذي بسطة في الجسم وكان مسلحا ببندقية (Garant) حسب ما كتبه المقدم عز الدين،[26] الذي تعارف معه في مطلع سنة 1959 أثناء مروره بجبال النمامشة رفقة مجموعة من المتمردين كانوا في طريقهم لعبور الحاجز الحدودي نحو الأراضي التونسية وكانت هياكل جبهة التحرير الوطني هناك عُرضة لخصومات داخلية.

---

26 أنظر كتب المقدم عز الدين بعنوان: On nous appelait fellaga. منشورات 1976 .Stock.

في يوم 25 مارس 1961؛ هاجمت كتيبة المظليين الرابعة مجموعة متمردة في جبل أحمر خدو، جنوبي الأوراس، فتكبدت الكتيبة الأولى 4 قتلى و9 جرحى. وخلال شهر جوان؛ أُرسلت تلك الكتيبة إلى شمال القطاع القسنطيني. وتم تكليف الكتيبة الأولى من الخيالة المظليين بمراقبة جزء من الحاجز الحدودي الواقع شرقي النمامشة؛ في حين تم تكليف الفرقة الثامنة عشرة من القناصة بمراقبة دواخل الكتلة الجبلية والمنحدرات الغربية في جبال الأوراس.

في نهاية شهر جوان قُتل الملازم جورنو (Journaux)، من كتيبة القناصة الثامنة عشر. وما انفكت أهمية الحركى تتزايد تحت إمرة ضباط المصالح الإدارية المتخصصة (SAS).

في مطلع شهر أوت 1959؛ قُتل ضابط المصالح الإدارية المتخصصة (SAS) في بابار خلال اشتباك مع المتمردين المحليين. ثم هاجمت كوكبةٌ من كتيبة القناصة الثامنة عشر بمعية الحركى المتمردين المعتصمين بجبل شليا وذلك بغرض طرد أو إبادة عصابات المتمردين أو منعها من مباغتة جبال النمامشة. ولقد اندلعت الحرائق وانتشرت في أرجاء الغابات بسبب الجفاف الشديد وتوفي الملازم أول روفينياك (Roffignac) ومعه 17 من الحركى بسبب الحروق.

في يوم 5 سبتمبر قتلت كتيبة القناصة المدعو عمار رافال، أحد القادة البارزين في المنطقة، مع قرابة عشرة من أنصاره في جبل شطاية (1.436م) شرقي خنشلة.

وفي 7 أكتوبر قُتل مساعده وخليفتُه المدعو عشي عمار. وفي 8 من الشهر ذاته قُتل الملازم أول بودمان (Bodman) من كتيبة القناصة الثامنة عشر.

تكبدت هذه الكتيبة، خلال سنة 1959، 15 قتيلا أثناء المعارك من بينهم ضابطان وحركي واحد فضلا عن ضحايا الحرائق في جبل شليا. أي ما مجموعه 62 قتيلا من بينهم 3 ضباط و18 من الحركى. علماً بأن الكتيبة لم تتكبد، في الفترة من ديسمبر 1956 إلى ديسمبر 1958، سوى 13 قتيلا...

مهما يكن من أمر فإن المتمردين لم يعودوا قادرين على التغلغل في هذه المنطقة الجبلية من جديد. كما أن المتمردين المرابطين في الأراضي التونسية لم يعودوا يمثلون خطرا جديا على الشريط الحدودي فاكتفوا بزرع الألغام.

في فاتح ديسمبر تحطمت سيارتان مصفحتان، من الطراز الخفيف، عند مرورها فوق الألغام المزروعة في واد سيدي عبيد قرب نقرين أسفر عن مقتل أحد المرتزقة وسقوط 11 جريحا.

بالرغم من أن خطة شال لم يُشرع في تنفيذها في منطقة الأوراس إلا أن عصابات الحاج لخضر صارت تعاني مصاعب جمة هناك. ولقد تم تجميع معظم تلك الكتائب في جبال بني ملول وشليا وأحمر خدو وكانت في وضعية دفاعية صعبة.

في شهر أكتوبر 1959: انتقل الحاج لخضر. قائد الولاية الأولى (الأوراس والنمامشة) إلى تونس لحضور اجتماع بين أعضاء حكومة جبهة التحرير الوطني والقادة العسكريين العاملين في الداخل.

كانت جبهة التحرير، مرة أخرى، عرضة للانقسام وتأزمت أوضاعها حيث كان كل من فرحات عباس وبن خدة ودحلب وأوصديق وغيرهم من السياسيين عرضة لانتقادات شديدة من طرف العسكريين.

كان الوزيران بن طوبال وبوصوف يناهضان كريم بلقاسم وكانت أغلبية العسكريين العرب. من أمثال بومدين، تشاطرهما نفس الموقف بدعم من الولاية الخامسة (القطاع الوهراني) والثانية (قطاع الشمال القسنطيني). وكان في صف كريم بلقاسم العنصران البربريان محمدي السعيد وحاج لخضر أي الولاية الأولى (الأوراس النمامشة) والولاية الرابعة (منطقة القبائل). واستمرت المحادثات بين الفريقين إلى غاية مطلع سنة 1960. كان شريف محمود يوجه انتقادات شديدة لكل من كريم بلقاسم وبن طوبال وبوصوف ومحمدي السعيد. غير أن شريف محمود كان موضوع انتقادات كثيرة ولم يلعب بعد ذلك سوى دورا ثانوي الأهمية.

لم يعد كل من كريم ومحمدي السعيد ذوي نفوذ قوي كما كانا في السابق. ثم تولى بومدين قيادة القوات المرابطة في الأراضي التونسية وقام بإعدام عدد من الضباط المتمردين على السلطة وطور تلك القوات إلى أن صارت بمثابة فيلقين مدججين بالسلاح قوامهما 30.000 مقاتل. أصبح بومدين الرجل القوي في جبهة التحرير الوطني لأن القوات الداخلية كانت تتبخر تحت وقع ضربات الجيش الفرنسي.

أصر بومدين على تجنيب القوات النظامية المرابطة في الأراضي التونسية الموت جزافا على الحاجز الحدودي الذي أقامه الفرنسيون؛ ثم بقي يترقب ما ستسفر عنه الأحداث المتلاحقة. ففي حالة انسحاب القوات الفرنسية من الجزائر يجد نفسه على رأس القوات المسلحة الجزائرية والتي سوف يتم دعمها من طرف قوات جبهة التحرير النظامية الملتجئة إلى الأراضي المغربية حيث لا تصل إليها ضربات القوات الفرنسية وكانت هذه القوات الاحتياطية بمثابة الفيلق الرابع وحينئذ فإن حكومة جبهة التحرير الوطني لن يكون لها وزنٌ يُذكر أمام قوة بومدين وذلك ما أثبتته الأيام فيما بعد.

5 - وقائع سنة 1960 وبداية 1961

الوضعية العامة

خلال سنة 1960 وبداية 1961 لم تقع أية هجمات فرنسية معتبرة في مناطق الجزائر الشمالية باستثناء منطقة القبائل خلال فصل الشتاء. حيث استمرت قوات الكومندوس التابعة للقناصة والمدعومة من طرف الحركى في الضغط على ما تبقى من قوات جبهة التحرير الوطني التي أفلتت من عمليات الإبادة.

ولقد اتجهت القوات الاحتياطية الفرنسية صوب منطقة الأوراس والنمامشة حيث تفاقمت العمليات العسكرية من جديد. بيد أن مصير بلاد النمامشة لم يتحدد فوق الميدان وإنما فُصل فيه بباريس حيث تُتخذ القرارات السياسية.

يبدو أن الجنرال ماسو، قائد أركان الجيش في مدينة الجزائر، حسب ما أورده أحد الصحفيين الألمان، قد شجب سياسة الجنرال ديغول بخصوص الجزائر. ولذلك السبب تم استدعاء ماسو إلى باريس ثم تحويلُه إلى ألمانيا.

خرجت جموع كبيرة من السكان الأوروبيين بمدينة الجزائر في مظاهرات مؤيدة للجنرال ماسو وانضم إليهم عدد كبير من الجنود الإقليميين. فحاولت ثلاثة كتائب من قوات المظليين وبعض السرايا من قوات الدرك المتنقلة تفريق المتظاهرين. وأطلق بعض الجنود الإقليميين النار ضد قوات الدرك فسقط قرابة 140 من رجال الدرك ما بين قتيل وجريح وحوالي 30 من المتظاهرين.

اعتصمت عدة مئات من الأوروبيين المسلحين في حرم جامعة الجزائر تحت إمرة النائب لاغايارد (Lagaillarde)، أحد ضباط الاحتياط المظليين، وكان من بين المعتصمين عدد من العمال الفرنسيين والأسبان والإسرائيليين والحركى المسلمين.

تمكنت كتيبة المظليين الأولى بقيادة الكولونيل ديفور (Dufour) من حمل المتمردين على الاستسلام بدون إراقة الدماء؛ وتم حل الوحدات العسكرية الإقليمية وتعويض الجنرال شال بالجنرال كريبان (Cérpin).

بدأ الكثير من المقاتلين في صفوف جبهة التحرير الوطني في المناطق الداخلية يفقدون الأمل وراحوا يلومون قادتهم الذين غادروا إلى الخارج ويعاتبونهم على انغماسهم في حياة الرفاهية والظروف الآمنة.

هذه هي الأسباب التي دفعت سي صالح، قائد الولاية الرابعة، ومساعديه سي لخضر وسي محمد إلى الدخول في اتصال مع السلطات الفرنسية بغرض التفاوض حول إيقاف النزاع المسلح. وكانوا يعتقدون أن بإمكانهم استمالة الولاية الخامسة (القطاع الوهراني) والولاية السادسة (منطقة الصحراء) إلى صفهم وإقناع الكولونيل محند أولحاج، قائد الولاية الثالثة، (منطقة القبائل) وربما تنضم إليه الولايتان الأولى والثانية (منطقتا الأوراس النمامشة والشمال القسنطيني).

يبدو أن الجنرال ديغول كان يظن أن هذه المبادرة بالإضافة إلى الانتصارات العسكرية الفرنسية من شأنها التقليل من حدة الموقف المتصلب الذي انتهجته حكومة جبهة التحرير الوطني. وبالفعل أرسلت هذه الأخيرة، في جوان 1960، وفدا إلى مدينة مولان (Melun) للتباحث مع وفد فرنسي ولكن المحادثات انتهت بالفشل نظرا لرفض فرنسا الموافقة على جميع شروط الخصم فتمسكت جبهة التحرير الوطني بموقفها المبدئي.

استعادت جبهة التحرير الوطني سيطرتها على الولاية الرابعة وتم اغتيال سي صالح في حين أُرسل سي لخضر إلى تونس ولكن القوات الفرنسية اعترضت سبيله فقتلته؛ أما سي محمد فانضم لصف جبهة التحرير الوطني إلى أن قُتل على أيدي القوات الفرنسية فيما بعد.

عاد المسلمون الذين يتحينون الفرص المواتية إلى الارتماء، من جديد، بين أحضان جبهة التحرير الوطني التي راحت تعيد تشكيل خلاياها في الحواضر الكبرى بعد إطلاق سراح الكثير من مناضليها. وراح المسلمون المتعاطفون مع فرنسا يتأرجحون بين مشاعر القلق وخيبة الأمل واليأس.

في شهر ديسمبر 1960؛ خرجت الجماهير الأوروبية، في كبريات المدن الجزائرية، في مظاهرات صاخبة ضد الجنرال ديغول واشتبكت مع قوات حفظ الأمن مما أسفر عن سقوط عدة مئات من الجرحى.

آخرجت جبهة التحرير قسما من السكان المسلمين في مظاهرات مضادة أسفرت عن مذبحة في صفوف المدنيين الأوروبيين والإسرائيليين مما أدى إلى الاستنجاد بقوات المظليين في مدينة الجزائر للمرة الثانية.

اندست بعض العناصر التابعة لجبهة التحرير الوطني في صفوف المتظاهرين وأطلقت النار على قوات المظليين الذين بادرت إلى الرد فورا مما أدى إلى سقوط عشرات القتلى والجرحى في صفوف المتظاهرين ومناضلي جبهة التحرير الوطني.

في شهر جانفي 1961؛ تم استدعاء الجزائريين والفرنسيين إلى التصويت مع أو ضد "جزائر جزائرية" مستقلة في إطار العلاقات مع فرنسا.

دعت جبهة التحرير مناضليها إلى الامتناع عن التصويت لكي تضم إلى أصواتهم أصوات الذين سوف يمتنعون عن التصويت خوفا من انتقامها؛ لأن في مقدورها التعرف على هؤلاء إما بمراقبة مكاتب التصويت أو بالرجوع إلى القوائم الاسمية للمنتخبين فيما بعد.

حثَّ الجزائريون المتعاطفون مع فرنسا أنصارهم على التصويت ب"لا" للاستقلال من أجل البقاء فرنسيين. غير أن التصويت ب"نعم" للاستقلال أحرز على أغلبية الأصوات في فرنسا. أما في الجزائر فبلغت نسبة الممتنعين عن التصويت 40٪ والمصوتين ب"لا" حوالي 20٪ والمصوتين ب"نعم" 40٪.

لم تعد الجالية الأوروبية تمثل سوى نسبة 10٪ من مجموع سكان الجزائر وهذا يعني، بالضرورة، أن كثيرا من المسلمين صوتوا ب"لا" أي أنهم اختاروا البقاء فرنسيين.

وضمن نسبة 40٪ الممتنعة عن التصويت وُجدت، على أقل تقدير، نسبة 20٪ من الممتنعين، العاديين، مثلما هو الشأن في كل مناسبة انتخابية بالإضافة إلى نسبة غير محددة بدقة من المسلمين الذين كان امتناعُهم عن التصويت بدافع الخوف من انتقام جبهة التحرير أكثر مما هو نتيجة للقناعة الشخصية.

أما الاستفتاء الذي وقع في فاتح جويلية 1962 فكان في واقع الأمر تحت سيطرة جبهة التحرير الوطني مما لا يسمح بتقدير مستوى تمثيل نتائجه لحقيقة الوضع. فعندما قررت جبهة التحرير الوطني تنظيم انتخابات تعددية، بعد مرور ثلاثين سنة، كان نسبة الامتناع مرتفعة جدا نتيجة الضغط الشديد من طرف الإسلامويين وبسبب النتائج الانتخابية الهزيلة لصالح جبهة التحرير الوطني.

المعارك في جبال الأوراس والنمامشة خلال سنة 1960 ومطلع 1961

قبل التطرق إلى سرد وقائع آخر المعارك التي جرت في جبال النمامشة ينبغي تقديم حوصلة عن الوضعية هناك.

سبق أن رأينا بأن الوقائع التي جرت في هذه الكتلة الجبلية نموذجٌ ملموس عن خصائص حرب العصابات والحرب المضادة لها تلك الحرب التي تقوم على رهان كبير هو إحكام السيطرة على السكان قبل وبعد كل شيء. ولقد مرَّ بنا أن جزءا كبيرا من هؤلاء السكان كانوا، خلال سنتي 1954 و1955، في قبضة لغرور عباس قبل أن يتقلبوا ضده في سنة 1955. ففي تلك الأثناء كانت قوات جبهة التحرير قد أُبيدت عن آخرها تقريبا وتغلغلت القوات الفرنسية في صفوف السكان الذين انضوى أغلبُهم تحت الحماية الفرنسية في سنة 1958 ولكنهم صاروا يشعرون، ابتداء من سنة 1959، بنوع من القلق على مصيرهم حين تراءت في الأفق بوادر تنذر بقرب حصول اتفاق بين فرنسا وجبهة التحرير الوطني مما قد يوقعها تحت سلطة هذه الأخيرة.

انقلب السكان، وهذا أمرٌ منطقي جدا، إلى موقف الحياد والترقب قبل أن يُظهروا، مرة أخرى، موالاتهم لجبهة التحرير الوطني في حالة ما إذا سلَّمت فرنسا مقاليد السلطة للجبهة.

يستحيل الفوز في حرب مضادة للتمرد بإحراز الانتصارات العسكرية فقط: ذلك أن التحام السكان شرطٌ ضروري؛ ولما ضيعت فرنسا ذلك الالتحام الجماهيري بدأت تتجه، على الصعيد السياسي، نحو الفشل المعنوي والنفسي وبالتالي فإن ما حققته، على الصعيد العسكري، كان بمثابة نصف انتصار أو نصف فشل إذا نظرنا إلى الأمور نظرة تشاؤمية.

كثيرا ما كانت الأحداث الجارية في النمامشة سابقة لما سيحدث في بقية أنحاء الجزائر. فقبل أن يتم تنفيذ خطة شال في تلك المنطقة كانت القوات المحلية تجوب

في طول المنطقة الجبلية وعرضها بسهولة كبيرة متعقبة خطى عصابات المتمردين التي لم تكن، من الناحية العملية، تأتمر بأوامر ونواهي جبهة التحرير الوطني وذلك باعتبار أن تلك العصابات كانت تتحارب مع المعسكرين في أو واحد. ولم تكن تستطيع استقبال المدد والذخيرة من الأراضي التونسية منذ أن أصبح الحاجز الحدودي مستعصيا عن الاختراق تقريبا. ثم جاء تدخل قوات الاحتياط الفرنسية لاستكمال عملية استئصالها.

كانت الوضعية أقل ملائمة في جبال الأوراس. فبالرغم من الضعف الذي ألمّ بجبهة التحرير هناك إلا أن قواتها بقيت متحصنة في جبال أحمر خدو وبني ملول ومنطقة أريس ونواحي بسكرة وتامزا.

كانت القوات الفرنسية المحلية وفرق المشاة والمدفعية والحركى وكومندوس القناصة مدعومة من طرف كتيبتين من قوات الصدام هما: الكتيبة الأولى من قوات المظليين المدرعة والكتيبة السابعة من القناصة الجزائريين.

كانت الأوامر تقتضي تطبيق خطة شال في جبال الأوراس، بصورة تدريجية، وكذلك الشأن بالنسبة لجبال النمامشة. لأن هاتين الكتلتين الجبليتين لم تكونا منفصلتين عن بعضهما فكان من الضروري، عند الاقتضاء، تدعيم القوات الفرنسية في النمامشة لمساعدتها على منع متمردي الأوراس من الكرّ والفرّ بين المنطقتين.

كان المقاتلون المعتصمون بجبال النمامشة والأوراس على يقين بأن دورهم آت لا محالة ليكونوا عرضة لقوات الاحتياط الفرنسية التي سحقت رفاقهم في القطاع الوهراني والقطاع الأوسط وجبال القبائل ومنطقة الحضنة... ولذلك قرر المتمردون تقليص عدد قواتهم إلى النصف تاركين من نجا منهم عرضة لهجمات القوات الفرنسية؛ وكانوا يتوقعون أن يفقدوا نصف قواتهم دون أن يتلقوا المدد من رفاقهم في الأراضي التونسية بعد صاروا يحجمون عن القيام بأية محاولات جادة لاختراق الحاجز الحدودي.

في حالة جلاء القوات الفرنسية عن الجزائر فستكون قوات جبهة التحرير النظامية المرابطة في تونس والمغرب هي المستفيد الأكبر من هذا الانسحاب في حين يتعرض مقاتلو الداخل للإبادة في ظروف صعبة للغاية. ذلك أمرٌ غير مُحفِّز على الصمود بتاتا.

ولم تكن الآفاق واضحة في أذهان العسكر الفرنسيين أيضا. فلقد كان تفكير الجنرال ديغول مشغولا بالتزايد الديموغرافي السريع في صفوف الجزائريين علمًا بأن الموارد الفرنسية لن تسمح بمواجهته إلى أمد طويل؛ وبالتالي فإن مآل تلك الجموع، سواء طال الزمن أم قصُر، هو اجتياح فرنسا في عقر دارها.

كان الجنرال يتصور أن إبادة قوات جبهة التحرير الوطني في الداخل كفيل بحمل حكومتها على قبول تأسيس جزائر مستقلة، ديمقراطية، متعددة الأعراق والديانات ومحتفظة بعلاقات متينة مع فرنسا. غير أنه دخل إلى هذه المفاوضات وهو في مركز ضعف لأنه كان أكثر استعجالا من جبهة التحرير نفسها والتي كان بمقدورها الانتظار في تونس مدة أطول.

كان أغلب العسكر الفرنسيين مقتنعين بأن رضوخ فرنسا لشروط جبهة التحرير الوطني سوف يتسبب في هجرة الجماهير الجزائرية إلى فرنسا وما ينجر عن ذلك من إفلاس وهدر للموارد الجزائرية بالإضافة إلى المجازر التي ستعصف بالمسلمين المتعاطفين مع فرنسا. ولا جدال في أن كلا من جبهة التحرير الوطني والحكومة الفرنسية سوف تحاولان عرقلة محاولات النزوح الجماعي نحو فرنسا فضلا عما سوف يُكلف ذلك فرنسا من مساعدات اقتصادية ثقيلة لفائدة جبهة التحرير الوطني وارتفاع نسبة البطالة في الجزائر في ظل حكم جبهة التحرير الوطني واضطرار فرنسا إلى امتصاص ذلك العدد الهائل من البطالين الذين ليسوا، حتما، من أنصار فرنسا مثل بقية الفرنسيين المسلمين الذين لن يتم استقبالُهم في البلد الأم. وذلك ما حدث بالفعل.

إذا لم نضع هذه المعطيات كلها في الحسبان فلن نستطيع تقدير ما كان يجيش من مشاعر في صدور العسكر الفرنسيين؛ فلا بأس إذن من التعرض لها ولو

باقتضاب. إن رفض فرنسا الرضوخ لشروط جبهة التحرير الوطني ورفضها تخفيف الضغط على الحواجز الحدودية مع تونس والمغرب معناه تجنيب الجزائر من الوقوع في قبضة نظام ديكتاتوري ومعناه أيضا تشجيعُ قادة الجبهة الميالين إلى التصالح ودعوة عناصرها المعتدلين لتبني كشروع تأسيس دولة جزائرية ديمقراطية ولا شك أن الأغلبية الساحقة من المسلمين سوف يفضلونها على ديكتاتورية جبهة التحرير الوطني.

لا غرو أن وزن هؤلاء المنتخبِين المسلمين سوف يدفع بالجزائر، مستقبلا، نحو الاستقلال ولكن مع الاحتفاظ بالمؤسسات الديمقراطية والوشائج المتينة مع فرنسا مما سيُخفف من حجم النزوح الجماعي ويجنب الجزائريين الأوروبيين والمسلمين الفرنسيين كثيرًا من المآسي.

من النادر أن تحدث معارك من هذا القبيل وفي مثل تلك الظروف النفسية المتوترة لدى كلا الطرفين المتنازعين. ولقد حصلت لدى الكثير من العسكريين قناعة مفادها أنهم لم يكونوا يجازفون بحياتهم في المعارك بهدف حماية الجزائريين المتعاطفين مع فرنسا من شطط جبهة التحرير الوطني وجبروتها بقدر ما كانوا يقدمون تلك التضحيات من أجل دفع حكومة جبهة التحرير إلى قبول الاستيلاء على السلطة في الجزائر. ومهما يكن فلقد كانوا يقاتلون بقوة وعنف ما دامت هجماتهم تُسفر عن إبادة قوات جبهة التحرير الوطني وتلك غايتُهم المثلى. وفي المقابل كان المقاتلون في صفوف الجبهة يكافحون والأمل يحدوهم في أن يصيروا سياسيا آت لا محالة بعد هزيمتهم العسكرية.

في 10 و11 مارس 1960: استهدفت الهجمات الفرنسية الحواف الشمالية من جبال الأوراس حيث اشتبكت كتيبة المظليين الأولى. بقيادة الكولونيل دي لاشابيل (Chapelle) [illegible] مع تشكيلة من قوات جبهة التحرير الوطني المستميتة فقتلت منها 16 رجلا وسقط في صفوف الكتيبة [illegible] قتيلا و12 جريحا في نواحي فُم الطوب شمالي آريس.

حينئذ أُسندت مهمة العمليات العسكرية في هذه المنطقة إلى الفيلق الخامس والعشرين من قوات المظليين وكان ذلك في فصل الصيف. ولقد تمكنت القوات الفرنسية، خلال شهر جويلية، من طرد 400 متمرد من منطقة تامزا وكان هؤلاء يناهضون مل من فرنسا وجبهة التحرير الوطني معا. وفي شهر سبتمبر هاجمت تلك القوات 260 متمردا في عين طاقا شمالي أريس وقضت على 95 بعد أن أسرت قرابة 15 منهم واستولت على ما يقارب 60 قطعة سلاح من ضنها بندقية رشاشة.

وفي شهر أكتوبر تم توسيع مجال هذه الهجمات الفرنسية لتشمل كافة أرجاء الأوراس. أبد المتمردون مقاومة أقل ضراوة من بقية المناطق التي سبقت مهاجمتُها وهذا من مفارقات الأمور لأن جبال النمامشة والأوراس كانت، لمدة طويلة، من أقوى المعاقل الموالية لجبهة التحرير الوطني.

في الفترة من 5 إلى 14 أكتوبر: أبادت الكتيبة الخامسة من قوات المظليين، بقيادة الكولونيل بفيرمان (Pfirmann)، قرابة 30 متمردا بالقرب من واد مهزل في جبل فرهوس وانتزعت منهم حوالي 30 قطعة سلاح وتكبدت الكتيبة قتيلا واحدا و4 جرحى.

في 16 أكتوبر 1960: تكبدت الكتيبتان الثالثة والرابعة 8 قتلى و14 جريحا، في كباش القريبة من بسكرة، ولكنها قتلت 41 متمردا واستحوذت على بندقية رشاشة و15 بندقية.

وفي 17 أكتوبر، بجبل تاورة، قتلت الكتيبة الخامسة. بقيادة الكولونيل لانغلوا (Langlois)، 27 متمردا واستولت على 7 قطع من الأسلحة. تكبدت هذه الكتيبة 3 جرحى. وفي جبل عساكر قتلت الكتيبة السادسة 40 متمردا واستولت على 17 قطعة سلاح من ضمنها بندقيتان رشاشتان وسقط في صفوفها 12 قتيلا و11 جريحا.

في 21 أكتوبر شنت الكتيبة الخامسة هجوما على جبل أحمر خدو، بين امشونش وتكوت، وقضت الكتيبة الثانية، بقيادة الكولونيل درموزي (Darmouzi)، على 61 متمرد واستولت على34 قطعة سلاح.

تمثل تكتيك مهاجمة جبال الأوراس في منع المتمردين الأوراسيين من الانكفاء نحو جبال النمامشة وبالفعل لم تتمكن هذه العصابات من التنقل من وإلى الأوراس والنمامشة بفضل تدخل قوات الاحتياط الفرنسية.

في 31 أكتوبر 1960؛ قضت قوات الكولونيل كلين (Klein) على 12 متمرد في جبل تاضليست، في جنوب شرق خنشلة، ثم لاحقت فلولهم إلى غاية قنطيس.

خلال سنة 1960؛ تمكنت السريتان الأولى والخامسة، لوحدها، من القضاء على72 متمرد واستولت على 58 قطعة سلاح. كانت هذه السرايا شديدة الفعالية وكانت مدعومة من طرف الحركى الذين تم تجنيدهم في عين المكان بين صفوف مناهضي جبهة التحير الوطني. لم تتكبد الكتيبة، في تلك السنة، سوى 5 قتلى من بينهم اثنان من الحركى مقارنة بخسائرها التي بلغت 62 قتيلا في سنة 1959.

مع نهاية السنة لم يق تقريبا أي أثر للمتمردين في جبال النمامشة بعد أن كانت، في السابق، مسرحا لعدد كبير من المعارك.

لا جدال في أن هذه النتيجة كان من الممكن إحرازُها قبل 18 شهرا من هذا التاريخ لو أن مواقف الحكومة الفرنسية لم تترك أية بارقة أمل لجبهة التحرير وللسكان. وفي المقابل تواصلت المعارك في جبال الأوراس؛ حيث شنت الكتيبة الرابعة عشر، بقيادة الكولونيل لوكومت (Lecomte)، هجمات جديدة على جبل أحمر خدو في نوفمبر 1960. في حين ذهبت كتيبة المظليين الأولى، بقيادة الكولونيل ديفور (Dufour) لمساندة كتيب الملازم أول غودو (Godot) التي سقط في صفوفها عدة قتلى.

كانت هذه الكتيبة بمثابة رأس الحربة في الجيش الفرنسي ولكن جنودها كانوا يشعرون بأن لا فائدة ترجى من قتالهم إذا ما استقر عزم الحكومة الفرنسية على قبول شروط حكومة جبهة التحرير الوطني. هذه النقطة هي السببُ الرئيسي الذي دفعها إلى العصيان خلال السنة الموالية وتم نقل قائدها الكولونيل إلى مكان آخر.

شاركت الكتيبة السابعة من القناصة الجزائريين في هذه المعارك وقتلت 350 متمردا واستسلم 350 متمردا آخرين بدون مقاومة تُذكر. غير أن خسائر جبهة التحرير الوطني كانت أقل مما لحقها في الولايات الأخرى التي تعرضت من قبل لهجمات مماثلة.

في مطلع سنة 1961؛ تواصلت المعارك ففي 1 فيفري اشتبكت قوات المرتزقة، بقيادة الكولونيل فايان (Vaillant)، مع عصابة من المتمردين الأشاوس في غابة بني ملول، جنوب شرق الأوراس، على حافة جبال النمامشة. وفي يوم 9 فيفري؛ تكبدت الكتيبة 16 قتيلا و29 جريحا في معركة من أعنف المعارك التي خاضتها في الجزائر؛ ولكنها دحرت هذه العصابة بعد أن قتلت على 34 من رجالها واستولت على 14 رشاشة و3 بنادق رشاشة وعدد آخر من الأسلحة يومي 13 و14 فيفري.

في 4 مارس تكبدت كتيبة المظليين الخيالة قتيلا و7 جرحى قرب لمبيز. كما شاركت أيضا في معارك بني ملول. وفي 16 مارس هاجمت الكتيبة الثانية جبل أحمر خدو؛ وأبادت الكتيبة الثالثة عصابة متمردين في غسيرة بالقرب من واد الأبيض. وتمكنت القوات الفرنسية التي تضافرت جهودها في هذه المنطقة من القضاء على 175 متمردا واستولت على 4 بنادق رشاشة و75 قطعة سلاح مختلفة. وقضت كتيبة القناصة الجزائريين على 300 متمرد خلال تلك المعارك وانتزعت منهم 128 قطعة سلاح. وفي مطلع شهر أفريل؛ تكبدت نصف زمرة المظليين 6 قتلى من بينهم الملازم الأول روكايرول (Rouquayrol)[26] جريحا بالقرب من واد فوضافيلال. وبعد ذلك بمدة قصيرة قُتل الملازم دوفري (Duvray) في صفوف الكتيبة الثامنة عشر من قوات المظليين القناصة.

تولى الكولونيل طاهر زبيري قيادة ما بقي من ولاية الأوراس النمامشة. وكان من المتعاطفين مع بومدين غير أنه قاد محاولة انقلاب ضده بعد ذلك بسنوات. كانت تحت إمرته بقايا الفرق التي أفلتت من يد الفرنسيين في الأوراس وبصفة خاصة في جبال بني ملول.

---

26. انظر كتاب المقدم عز الدين بعنوان: On nous appelait fellaga. منشورات Stock. 1976.

6. من عصيان الجنرال شال إلى بيان إيفيان. 1961- 1962

تمرُّد الجنرال شال

تمرَّد كلٌّ من الجنرال شال (Challe) وسالان (Salan) وجوهو (Jouhaud)، وكان هذا الأخير رئيسا لقوات الطيران والجنرال زيلر (Zeller)، العضو السابق في قيادة أركان الجيش والجنرال غاردي (Gardy) المفتش السابق في قوات المرتزقة. تمرد هؤلاء، في شهر أفريل 1961، ضد سلطة الجنرال ديغول تدعمهم في ذلك قوات الفيلق الأجنبي بقيادة المقدم دينوا دي سان مارك (Denoix de Saint-Marc). وهو من قدماء المقاومين والمنفيين. وتدعمه أيضا من كومندوس المظليين الاحتياطيين بقيادة المقدم روبان (Robin). استولت هذه القوات على مدينة الجزائر من غير أدنى مقاومة من طرف الحامية المرابطة في المدينة وكانوا مدعومين أيضا من طرف فرق كومندوس القوات الجوية وبعض السرايا وقسم من قوات المظليين (الفيلق [illegible] والفيلق [illegible]) فضلا عن كتائب المدرعة.

كان لهذه الأحداث صدى طيب في نفوس القوات الفرنسية المرابطة في جبال الأوراس والنمامشة فانضم قسم منها إلى حركة الجنرال شال المقيم مدينة الجزائر كما استولت الكتيبتان 14 و18 من قوات المظليين القناصة على مدينة وهران دون أية مقاومة من طرف الحامية المرابطة هناك.

مهما يكن فإن معظم الجنرالات رفضوا الانضمام إلى حركة العصيان هذه؛ بل حاول بعضهم الوقوف في وجهها كما ظهر تيارٌ مناوئ للجنرال شال في صفوف المجندين للخدمة العسكرية.

تبيَّن أن جبهة التحرير كانت عاجزة عن حمل المسلمين الجزائريين على الخروج في مظاهرات مضادة للجنرال شال أو القيام بعمليات عسكرية في ظل تلك الفوضى العارمة.

فشل محاولة الجنرال شال وعواقبه

أمر الجنرال شال جميع القوات المساندة له بالرجوع إلى ثكناتها ثم سلَّم نفسه إلى السلطات بمعية الجنرال زيلر. صدرت ضدهم أحكامٌ بالسجن وضد لواء القوات الجوية والجنرالات قادة القوات الجوية بالجزائر والفيلق المرابط في قسنطينة وضد كولونيلات كتيبة الدبابات التابعة لقوات اللفيف الأجنبي والكتيبتين الرابعة عشر والثامنة عشر من المظليين القناصة وقادة الكتيبة الأولى وكومندوس قوات المظليين الاحتياطية. وصدرت أحكام غيابية بالإعدام ضد كل من الجنرالات سالان وجوهو وغاردي والكولونيلات أرغود (Argoud) وبروازا (Broizat) وغارد (Gardes) وغودار (Godart) ولاشوروا (Lacheroy). كما صدرت أحكام بالسجن مع وقف التنفيذ ضد كل من الجنرال قائد المنطقة الصحراوية والكولونيل المساعد في إحدى كتائب المظليين والكولونيل قائد أركان فيلق المظليين (من قدماء المحاربين في ديان بيان فو) والمقدم قائد كومندوس القوات الجوية وعدد آخر كانوا على رأس الكتيبة الأولى من المشاة البحرية وشتى فرق المظليين والحركى...[27] وتقرر نقلُ المئات من الضباط وقدَّم مئات من الضباط استقالتهم.

تقرر حلُّ الكتيبة الأولى من قوات اللفيف الأجنبي والكتيبتين الرابعة عشر والثامنة عشر من قوات المظليين وفرق الكومندوس التابعة للقوات الجوية وقوات الاحتياط. وتقرر أيضا إعادة الفيلق السابع من قوات المدرعات والفيلق 11 من قوات الساحل إلى فرنسا. وتقرر تخفيض عدد المجندين الجدد في صفوف الحركة مما قلّص عدد أفرادها وأدى إلى نقل عدد من ضباطها من مناصبهم. وتم فصل عدد كبير من الحركى وتم نزع السلاح من معظم الدفاع الذاتي المتكونة من سكان القرى المسلمين. ثم أعلنت فرنسا عن هدنة من جانب واحد وأطلقت سراح عدد من الأسرى التابعين لجبهة التحرير الوطني.

---

27. انظر كتب J. Planchet و J. Fauvet بعنوان: La fronde des généraux منشورات Arthaud. 1961.

سرعان ما التحق هؤلاء المسرحون بصفوف قوات الجبهة في الداخل لمواصلة الحرب واستئصال المسلمين المتعاطفين مع فرنسا. في حين استمر النزاع حول السلطة في صفوف قادة الجبهة بالخارج. كان الكولونيل بومدين، قائد القوات العسكرية المرابطة في تونس، من معارضي كريم بلقاسم. وفي شهر أوت 1961 تقرر تعيين بن خدة خلفا لفرحات عباس على رأس حكومة جبهة التحرير الوطني.

أما الجنرالات الثلاثة والكولونيلات الخمسة الذين صدرت ضدهم أحكام غيابية بالإعدام فبادروا إلى تشكيل منظمة الجيش السري (OAS).

كان المسار العسكري للجنرال سالان في صفوف القوات الفرنسية السوداء والصفراء وكان من معاوني الوزير اليهودي ماندل (Mandel) الذي اغتيل في عهد الاحتلال على أيدي إحدى الميليشيات. ولقد ناضل سالان في صفوف المقاومة أثناء الحرب العالمية. نجا من محاولة اغتيال على يد المتطرفين الأوروبيين بالجزائر ممن يعتبون عليه موالاته لحكومة الاشتراكي غي مولي وللحكومات الراديكالية من بعده.

وكان الجنرال جوهو خلال الحرب العالمية مناضلا في صفوف المقاومة. وكان الكولونيل غاردي عضوا نشيطا في صفوف المقاومة ضد ألمانيا؛ والكولونيل غودار عضوا في قوات القناصة خلال المقاومة؛ والكولونيل لاشوروا ضمن قوات الجنرال ديغول؛ وكان الكولونيل غارد ضابطا في صفوف القناصة الجزائريين. التحق بصفوف منظمة الجيش السري كل من الكولونيل فودري (Vaudrey) والكولونيل شاطو جوبير (Chateau-Jobert) وهما من قدماء القوات التابعة للجنرال ديغول أثناء الحرب العالمية. كما التحق بهم أيضا بعض ضباط المرتزقة وعدد من الفرنسيين المقيمين بالجزائر ومن المسلمين والإسرائيليين والجمهوريين الأسبان اللاجئين في الجزائر بعد انتصار الجنرال فرانكو وعدد من الغجر وبعض قدماء المقاومين.

أما كل من الجنرال فور (Faure) وفانوكسيم (Vanuxem) فقد أُلقي عليهما القبض في فرنسا مع عدد كبير من الضباط الآخرين الذين صدرت ضدهم عدة أحكام.

إن الهدف العسكري الرئيسي لمنظمة الجيش السري هو تشكيل مجموعات مسلحة لفرض سيطرة جزئية على عدد كبير من المدن وبعض المعاقل الفرنكو إسلامية في الأرياف ليتمكنوا من الصمود في وجه جبهة التحرير الوطني.

ولكن اندساس بعض العناصر المريبة وظهور تيار متطرف بين صفوفهم أدى إلى وقوع محاولات اغتيال أملا في أن تأخذهم الحكومة الفرنسية بعين الحسبان أثناء تفاوضها مع جبهة التحرير الوطني التي لم تتورع عن القيام بعمليات مماثلة لتفرض نفسها كطرف ينبغي التحاور معه.

وكان الجنرال ديغول، من جهته، يتجه تدريجيا نحو حل لم يكن أضرارُه خافية عليه.

أما الجزائريون الذين انضموا إلى صفوف جبهة التحرير الوطني أملا في تأسيس دولة جزائرية مستقلة، ديمقراطية، متسامحة على أساس التعددية واحترام حقوق المرأة... فهؤلاء أُصيبوا بخيبة أمل حين رأوا الجناح المتعصب في جبهة التحرير الوطني يقيم نظام حكم قائم على الديكتاتورية والفساد ومعاداة التعددية والتنكر حقوق المرأة.

الوضعية في جبال الأوراس والنمامشة

بعد فشل الجنرال شال عادت الكتيبة الأولى من الخيالة المظليين وفرقة الحركى إلى ثكناتها. وصدر ضد الكولونيل، قائد الكتيبة، حكم بالسجن لمدة سبع سنوات. وحُكم على قائد فرقة الحركى بسنة سجنا مع وقف التنفيذ.[28]

استغلت جبهة التحرير الهدنة المعلنة من جانب واحد من طرف الحكومة الفرنسية، في ماي 1961، فأعادت تشكيل قواتها بعد تعزيزها من طرف الأسرى الذين أُطلق سراحهم. كما أرسلت بعض ممثليها إلى الأرياف لإحكام قبضتها على

28. انظر: La fronde des généraux المذكور أعلاه.

لسكان من جديد واغتيال المسلمين المتعاطفين مع فرنسا وجمع الضرائب وقتل المتكبرين.

وثمة بعضٌ من الحركى الذين التحقوا، بدافع من اليأس، بصفوف جبهة التحرير حاملين معهم أسلحتهم آملين من وراء ذلك إنقاذ أرواحهم وعائلاتهم. مهما يكن فلقد تعرّض الكثير منهم للتقتيل في حين بقي الآخرون على وفائهم لفرنسا نظرا لثقتهم الكبيرة في وعود الجنرال ديغول بتجميع وحماية كل الجزائريين، من شتى الأعراق، الراغبين في البقاء فرنسيين.

لم يبق، في الواقع، أيُّ أثر للمتمردين في جبال النمامشة.[29] فلقد تجمَّع الناجون منهم مع متمردي الأوراس في جبال بني ملول.

في شهر أوت 1961 قررت الحكومة الفرنسية استئناف العمليات العسكرية؛ وفي الوقت نفسه راحت تواصل إجلاء قواتها حيث سحبت كتيبة الخيالة المظليين من جبال النمامشة وأرسلتها إلى القطاع الوهراني؛ كما سحبت أيضا الكتيبة الثامنة عشر من القناصة بعد أن أمضت قرابة خمس سنوات في النمامشة.

بلغت خسائر تلك الكتيبة 89 قتيلا من بينهم 6 ضباط و32 من الحركى و94 جريحا؛ وقتلت من جهتها 317 متمردا وأسرت 110 كما استولت على 400 قطعة سلاح منها 25 ما بين مدافع الهاون والبنادق الرشاشة.

ومنذ ذلك الحين أُلقيت مسئولية حماية جبال النمامشة على عاتق ضباط المصالح الإدارية المتخصصة (SAS) وفرق الحركى العاملة تحت إمرتهم. أما الحركى التابعين للكتائب التي تم إجلاؤها فقد تم تسريح بعضهم بعد أن جُرِّدوا من أسلحتهم وأُلحق بعضهم الآخر بفرق الحركى العاملة تحت إمرة ضباط المصالح الإدارية المتخصصة (SAS). وبغرض حماية هؤلاء رجعت نصف زمرة المرتزقة،

---

29. انظر ما كتبه الجنرال Ducourneau، قائد قطاع الأوراس والنمامشة بخصوص ناحية بابار في: L'Historique du 18e Chasseurs.

بقيادة كل من الكولونيل دوبوي (Dupuy) وكيريزيو (Quérézieux) إلى المنطقة لمهاجمة عصابات المتمردين المعتصمة ببني ملول. كان ذلك في شهر سبتمبر 1961 ولكن القوات الفرنسية لم تتمكن من إبادتهم جميعا. ثم أُجليت الفرقة نهائيا من الأوراس والنمامشة وأُرسلت إلى بجاية على ساحل منطقة القبائل. تكبدت هذه الفرقة، طيلة المدة التي استغرقتها حرب الجزائر، 159 قتيلا في المعارك من بينهم 10 ضباط وبإضافة عدد قتلاها جراء حوادث الطرقات والأمراض يكون مجموع خسائرها البشرية 214 رجلا.

في شهر جانفي 1962؛ تم تسريح عدد كبير من الحركى إلى الحياة المدنية لقاء جراية مالية. عاد هؤلاء المسرحون إلى دواويرهم حيث وجدوا ممثلي جبهة التحرير قد استعادوا نفوذهم. أُجبر الحركى المسرحون على دفع ما قبضوه من جراية في انتظار تسليم جميع ممتلكاتهم قبل أن تتم إبادتُهم مع أفراد عائلاتهم، في غالب الأحيان، وفي ظروف في غاية الوحشية.

يبدو، حسب أقوال الكولونيل مواني (Moinet)،[30] أن الجنرال غاندوي (Gandoet) كان، منذ جوان 1961، قد لفت انتباه الجنرال ديغول إلى ضرورة الاهتمام بمصير فرنسيي الجزائر وعناصر الحركى والقناصة. وسبق للجنرال غاندوي أن حارب ببسالة كبيرة في صفوف الكتيبة الرابعة من قوات القناصة التونسيين أثناء معركة إيطاليا.

في فيفري 1962؛ تم حلُّ مصالح المصالح الإدارية المتخصصة (SAS) وتعويضها بمصالح إدارية عادية. وتم تجريد معظم الحركى من أسلحتهم وإرسالهم، عزلا، إلى دواويرهم حيث كانت العناصر المسلحة التابعة لجبهة التحرير الوطني تحل محل القوات الفرنسية.

إثر هذا الانسحاب أصبحت الأقسام الداخلية من جبال النمامشة مفتوحة في وجه المتمردين الذين عادوا إليها من منطقة الأوراس.

30. انظر كتاب الكولونيل Moinet بعنوان: Ahmed connais pas الصادر عن منشورات Athanor. 1989.

فرنسا. تشكيل هيئة تنفيذية مؤقتة تُكلف بالإشراف على استفتاء تقرير المصير. تأسيس دولة جزائرية تحترم المبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان. الامتناع عن القصاص، بدون تمييز ولا محاباة، بسبب الأعمال المرتكبة فيما مضى. لا يُرغم أيُ جزائري على مغادرة التراب الجزائري. احترام حقوق الملكية للمواطنين الفرنسيين. في حالة ما إذا أسفر التصويت عن نتيجة إيجابية ينبغي انتخاب برلمان جزائري. الاعتراف بسيادة الجزائر على الصحراء. عدم إجلاء القوات الفرنسية المرابطة في المناطق الحدودية قبل الإعلان عن نتائج استفتاء تقرير المصير."

يترتب عن هذا أنه في حالة التصويت لصالح قيام دولة جزائرية ديمقراطية في إطار احترام حقوق الإنسان؛ فإن القوات الفرنسية سوف تنسحب من الحدود وتفسح المجال لدخول قوات جبهة التحرير الوطني من تونس والمغرب إلى الجزائر حيث تشرف على تنصيب النظام الديكتاتوري باسم جبهة التحرير التي لا تُعير أدنى اهتمام للديمقراطية وحقوق الإنسان.

كان من مصلحة الجبهة أن تدفع السكان إلى التصويت ب"نعم"؛ ولقد مكَّنها إطلاق سراح المساجين من إعادة تشكيل شبكاتها في المدن والأرياف وممارسة الضغوط على المصوتين ومراقبة صناديق الاقتراع في غياب الملاحظين الفرنسيين والأجانب. أما التصويت ب"لا" فكان عملية انتحارية في مثل تلك الظروف وبالتالي لم يكن ثمة أدنى شك بخصوص النتائج التي ستسفر عنها الصناديق.

أُسندت رئاسة الهيئة التنفيذية إلى أحد الموثقين المقربين إلى جبهة التحرير الوطني ووُضعت تحت تصرفه قواتٌ لحفظ النظام والإشراف على الاستفتاء. كانت تلك القوات تتألف أساسا مما يقارب أربعين ألف من الجنود المسلمين العاملين في الجيش الفرنسي وبعض المدعوين لأداء الخدمة العسكرية. لم يكن في صالح هؤلاء الوقوف في وجه جبهة التحرير الوطني التي استرجعت سيطرتها على أحياء المدن وعلى القرى: مما جعل قوات حفظ النظام تنقلب إلى صف جبهة التحرير الوطني فأصبحت هي المشرف الفعلي على تنظيم الاستفتاء.

بدأ نجم كريم بلقاسم في الأفول قبل أن يتعرض لانقلاب ضده ثم للنفي ثم لاغتيال فيما بعد. كان كل من بومدين وبن بلة أقوى رجلين في صفوف جبهة التحرير الوطني آنذاك فلم يكونا يعترفان بأي التزام تجاه النصوص التي وقّعها كريم بلقاسم قبل ذلك.

تم استدعاء الهيئة الانتخابية في البلد الأم إلى التصويت في شهر أفريل قبل الاطلاع على موقف الهيئة الانتخابية في الجزائر رغم كونها المعنية بالأمر بالدرجة الأولى.

إن موافقة الهيئة الانتخابية، في البلد الأم، على نطاق واسع لم تدع مجالا لأي شك حول النتيجة النهائية ذلك أن الجماهير الفرنسية كانت قد ضجرت وتعبت من هذه الحرب. كيف لا وبيان إيفيان يقضي بتأسيس دولة جزائرية ديمقراطية تحترم حقوق الإنسان؟

ما عاد للتصويت السلبي، من طرف الهيئة الانتخابية الجزائرية، أيُّ معنى بعد التصويت الإيجابي في البلد الأم. ولو حدث ذلك لطُرحت معضلةٌ قانونية ومعنوية مثيرة للغاية: بعد تصويت فرنسا ب"نعم" فهل يحق لها التخلي عن الجزائر إذا ما صوتت ب"لا"؟ وهل يتوجب عليها مواصلة الحرب رغم نتيجة التصويت بالإيجاب في البلد الأم؟

7 . من بيان إيفيان إلى انتقال السلطة لجبهة التحرير الوطني

مواقف مناوئة لاتفاقيات إيفيان

بمجرد الإعلان عن بيان إيفيان أُقيمت المتاريس في أزقة الحي الشعبي، باب الواد، حيث يقطن الأوروبيون وكان قسمٌ منهم من الأسبان. وحين حاولت فرقة كومندوس تابعة لمنظمة الجيش السري تجريد دورية عسكرية فرنسية من أسلحتها ردّت هذه الأخيرة بإطلاق النار مما أدى إلى سقوط عدة قتلى. أعادت القوات

الفرنسية احتلال ذلك الحي الشعبي تدعمها بعض الدبابات والطائرات. سقط قرابة مائة من القتلى في صفوف الطرفين.

خرج العديد من الأوربيين المدنيين، نساء ورجالا، في مظاهرات مساندة لسكان حي باب الواد. ومن الجدير بالذكر أن عددا من القناصة الجزائريين الذين كانوا يعلمون بدون شك أنهم سيقعون تحت سلطة جبهة التحرير الوطني أطلقوا النار على المتظاهرين في ظروف غامضة ومثيرة للجدل. سقط عشرات القتلى وحوالي 200 جريح.

حاولت منظمة الجيش السري (OAS) تشكيل معاقل للمقاومة بمعية بعض المسلمين المناهضين لجبهة التحرير الوطني. ومن الضباط الفرنسيين الذين بذلوا جهودا في هذا الاتجاه نذكر كلا من النقيب سويتر (Souetre)، من سلاح الجو، والملازم أول دي مونبايرو (de Montpeyroux)، من قدماء المقاومين الفرنسيين، وغيرهما من العسكر. لكن الجيش الفرنسي تصدى لهم.

ولقد ترأس الكولونيل غارد (Gardes) أهم محاولة من هذا القبيل في منطقة جبال الونشريس تدعمه عشرات المتطوعين في الجيش السري من بينهم عدد من الضباط المرتزقة وأحد الطلبة الضباط المسلمين. قضت قوات جبهة التحرير على المقدم بازان (Bazin) في حين ألقت القوات الفرنسية القبض على معظم أنصاره. نجا الكولونيل غارد من الوقوع في قبضة الجيش الفرنسي بمساعدة البعض من بني بودوان الذين ينتمي إليهم الباش أغا بوعلام.

أُلقي القبض على الجنرال جوهو وأصدرت المحكمة العسكرية الفرنسية ضده حكما بالإعدام. وأُلقي القبض أيضا على الملازم أول دي غيلدر (de Gueldre) رئيس كومندوس من الجيش السري بمدينة الجزائر. كما اعتقلت قوات الدرك الفرنسي الجنرال سالان بمدينة الجزائر وأودع السجن بفرنسا. كما تم تفكيك القسم الأكبر من الهيكلة العسكرية التابعة لمنظمة الجيش السري؛ في حين باشرت بعض مجموعاتها عمليات الاغتيال.

ولقد نُسب إلى الجيش السري قرابة 2.400 قتيل و5.500 جريح؛ وهذه تقديرات مبالغ فيها لأن جميع الاغتيالات التي وقعت في صفوف المسلمين نُسبت إلى الجيش السري؛[32] والحال أن الكثير منهم كانوا متعاطفين مع فرنسا أو من حزب الحركة الوطنية الجزائرية الذين قضت عليهم جبهة التحرير الوطني بالإضافة إلى عدد من عناصر جبهة التحرير الوطني الذين اغتيلوا على يد حزب الحركة الوطنية الجزائرية.

بناء على مختلف التقديرات تكون جبهة التحرير الوطني قد قتلت، خلال حرب الجزائر، ما يقرب من 50.000 من المسلمين و150.000 بعدها بالإضافة إلى ما يقارب 10.000 من الأوروبيين والإسرائيليين.

في شهر أفريل 1961؛ لم يكن تعداد قوات جبهة التحرير داخل الجزائر يتجاوز 5.000 مقاتل يتمركز 1.500 منهم في الولاية الرابعة (القطاع الجزائري الأوسط). وكانوا يختبئون في أماكن بعيدة عن الأنظار للإفلات من ملاحقات قوات الكومندوس المشكلة من المسلمين الفرنسيين والفرنسيين من أصل أوروبي وفرق الحركى. ثم ارتفع عدد قوات جبهة التحرير الوطني إلى 10.000 مقاتل في شهر مارس 1962 وذلك للأسباب التالية: إطلاق سراح العديد من أسراها؛ الهدنة المعلنة من طرف الحكومة الفرنسية؛ نزع السلاح من الكثير من الحركى والقرويين العاملين في قوات الدفاع الذاتي؛ تفكيك خمس كتائب في الجيش الفرنسي واستدعاء فيلقين إلى فرنسا. ثم ارتفع عدد تلك القوات إلى 40.000 مقاتل بعد إطلاق سراح بقية المساجين وبسبب الضغوط على المجندين المسلمين في صفوف الجيش الفرنسي الذين وُضعوا تحت سلطة الهيئة التنفيذية المؤقتة.

مصير الحركى

بادرت القوات الفرنسية إلى نزع سلاح مئات المقاومين المسلمين المناهضين لجبهة التحرير بقيادة الكولونيل سي شريف في ناحية المدية ومئات المقاومين

٣٢. انظر كتاب Y. Courrèire المذكور آنفا.

المسلمين التابعين لحزب الحركة الوطنية الجزائري بقيادة سالمي عبد الله في ناحية بوسعادة.[33] لم يتمكن معظمهم من الوصول إلى السواحل الجزائرية ثم إلى فرنسا بسبب الحواجز المسلحة التي نصبتها جبهة التحرير الوطني عبر شتى الطرق. ولقد أُبيدوا بعد ذلك عن آخرهم في ظروف بشعة.

تشكلت في نواحي سعيدة فرقة كومندوس، تحمل اسم جورج، تتألف من 250 مسلم وتم تفكيكها ثم لقي معظم أفرادها المصير نفسه.

من المفروض أن قدماء الحركى يحق لهم التعاقد مع الجيش الفرنسي ولكن اصطحاب عائلاتهم معهم لم يكن أمرا واردا في كل الحالات مما يجعلها عرضة للانتقام والثأر. ولذلك اختار معظم الحركى البقاء إلى جانب عائلاتهم لكي لا يتسببوا في تفاقم مصيرها. وكان الأمل يحدوهم في فرنسا، التي احتفظت بما يقرب من 200.000 جندي في الجزائر، وأنها ستسهر على احترام نصوص بيان إيفيان لضمان حمايتهم أو ترحيلهم.

انقطعت الأخبار عما كان يحدث في المناطق التي انسحب منها الجيش الفرنسي وحلت محله قوات جبهة التحرير الوطني ولكن بعض المعلومات الواردة من الأرياف تحدثت عن تسليط أقسى أنواع التنكيل ضد المسلمين المتعاطفين مع فرنسا وعائلاتهم.

حاولت بعض الوحدات الفرنسية وبعض ضباط المصالح الإدارية المتخصصة اصطحاب الحركى العاملين تحت إمرتهم إلى فرنسا. فمثلا نقلت نصف زمرة القناصة البحرية عناصر الحركى الذين كانوا في صفوفها مع عائلاتهم أ يما يقارب 600 شخص.

أصدرت الحكومة الفرنسية سلسلة من التعليمات[34] لمنع المبادرات المنعزلة المتعلقة بترحيل المسلمين الفرنسيين إلى فرنسا وهددت بتسليط العقوبات على

---

33. انظر: P. Montagnon نفس المصدر المذكور

34. انظر ما كتبه كل من الباش أغا بوعلام وP. Montagnon والكولونيل Moinet في المراجع المذكورة آنفا؛ وكذا كتاب الكولونيل عبد العزيز ملياني بعنوان: Le drame des harkis منشورات. Perrin, 1993.

أصحابها وأمرت بإرجاع الجنود المسلمين العاملين في صفوف القوات الإضافية إلى الجزائر؛ وأمرت بكتمان أمر هذه التدابير وتجنيب الحكومة اللجوء مستقبلا إلى اتخاذ مثل هذه القرارات.

ومهما يكن فلقد حاول بعض الضباط وبعض أوربيي الجزائر ترحيل عدد من الفرنسيين المسلمين إلى فرنسا؛ كما بادر بعض الصيادين، من بني صاف، بترحيل عدد من الفرنسيين المسلمين.

ذكر الباش أغا بوعلام أن ما يقرب من 60 من الحركى الذين نزلوا بميناء مرسيليا أُرجعوا إلى الجزائر؛ كما أُرجع 55 من الحركى القادمين من مدينة بالسترو (الأخضرية) مع عائلاتهم. أما 23 قبائليا، محكوم عليهم من قبل جبهة التحرير الوطني، ممن وصلوا إلى مدينة رودون (Redon) فلم يتعرضوا للطرد بفضل عدد كبير من التدخلات. ثم أضاف بأن بيانا وزاريا مشتركا قرر ترحيل الحركى المهددين مع عائلاتهم إلى فرنسا أي ما مجموعه 4.930 شخص والحال أن 400.000 من المسلمين الجزائريين حاربوا إلى جانب فرنسا وأن مئات الآلاف منهم شاركوا في مظاهرات مضادة لجبهة التحرير الوطني أو شاركوا في التصويت رغم تعليمات جبهة التحرير القاضية بالامتناع عن التصويت.

حاول الباش أغا، لكن بدون جدوى، التدخل لصالح حوالي أربعين جندي مسلم تابعين للقوات الإضافية من بني بشير الذين التجئوا إلى فيليب فيل (سكيكدة) ولم يحصلوا على الإذن بمغادرة الجزائر إلى فرنسا. وذكر ب. مونتانيون أنهم تمكنوا من الإقلاع على متن إحدى البواخر ولكنهم أُنزلوا منها بالقوة من طرف الجنود الفرنسيين ثم أُبيدوا من طرف جبهة التحرير الوطني.

أحكام قضائية متنوعة

أصدرت المحكمة العسكرية العليا ضد الجنرال سالان حُكما بالسجن المؤبد. وانتظر الجنرال جوهو مدة طويلة تنفيذ حكم الإعدام غير أنه تم تخفيف الحكم بعد

تدخلات عديدة وكان من بين المتدخلين أحد المسئولين السامين في الحزب الاشتراكي.

وصدر في حق الرقيب دوفيكار (Dovecar)، من الكتيبة اللفيف الأجنبي الأولى، وأحد الفرنسيين الجزائريين وكان كلاهما عضوا في كومندوس تابع للجيش السري، بقيادة الملازم الأول ديغيلدر (Degueldre)، صدر في حق هؤلاء جميعا حكم بالإعدام من طرف محكمة فرنسية فأُعدموا رميا بالرصاص.

تم تعيين الجنرال لارمينال (Larminal) لرئاسة المحكمة المكلفة بمحاكمة الملازم أول ديغيلدر؛ فانتحر هذا الجنرال بعد صدور حُكم الإعدام وتنفيذه رميا بالرصاص. التحق الجنرال بصفوف المقاومين وعمره 17 عاما ثم تطوع في صفوف قوات المرتزقة حيث تم التنويه بمناقبه تسع مرات.

الأوضاع في منطقة الأوراس النمامشة

تم الاحتفاظ بعدد من القوات الفرنسية في شرق وجنوب منطقة الأوراس النمامشة. فكانت الكتيبة الرابعة من المظليين الأجانب مكلفة بمراقبة الحاجز الحدودي؛ وكانت الكتيبة الثانية من الخيالة تجوب المناطق الواقعة بين نقرين وبسكرة.

تم التخلي عن الأقسام الداخلية في جبال النمامشة بعد تجريد فرق الحركى هناك من أسلحتها وراحت جبهة التحرير تعيد تشكيل قواتها مستغلة فرصة إطلاق سراح مساجينها.

غير أن جبهة التحرير الوطني كانت تمر بأزمة داخلية؛ ذلك أن بن بلة، بعد إطلاق سراحه من طرف فرنسا، صار يعارض حكومة بن خدة وكريم بلقاسم مدعوما من طرف بومدين والجيش النظامي المرابط في الأراضي التونسية والمغربية.

في حين وقفت كل من الولاية الثانية والثالثة إلى جانب حكومة جبهة التحرير الوطني. ثم حذا حذوهم الكولونيل طاهر زبيري، من الولاية الأولى، قبل أن ينضم،

في أواخر شهر ماي 1962، إلى صف بن بلة وبومدين؛ وكانت كل من الولاية الرابعة والخامسة والسادسة تساندهما أيضا.

أشرف الملازم أول دانلوك (d'Anloque)، أحد ضباط المصالح الإدارية المتخصصة العاملة بين عين البيضاء ومسكيانة، شمال النمامشة، أشرف على ترحيل عدد من الحركى إلى فرنسا (حسب ما أورده في كتاب له بعنوان SAS en Algérie صدر سنة 1977). وبناء على أقوال الباش أغا بوعلام حاولت فريقا من الحركى التي جردتها فرنسا من سلاحها حاولوا، وهم عُزَّل، مجابهة قوة تابعة لجبهة التحرير الوطني ثم اختفت. كما أن بعض الحركى فضلوا الانتحار على ما كان ينتظرهم من تنكيل غير أن موتهم لم تنقذ عائلاتهم من مجابهة المصير نفسه.

حاولت منظمة الجيش السري التغلغل في القطاع القسنطيني بقيادة الكولونيل شاطو جوبير، أحد قدماء المقاومين ضد الفاشستية والذي التحق بقوات الجنرال ديغول سنة 1940 وهو أيضا من قدماء المرتزقة والمظليين في قوات فرنسا الحرة. فحسب أقوال المحامي إيزورني (Isorni)[35] يكون هذا الأخير قد تلقى المساعدة والدعم في تبسة من طرف روجي هولاندر (Roger Holeindre)، أحد قدماء المقاومين وضابط صف في قوات المظليين، وكان هذا الأخير قد شكل معقلا للمقاومين المسلمين المناهضين لجبهة التحرير الوطني. وبعد اعتقاله من طرف القوات الفرنسية صدر ضده حُكم بالسجن لمدة طويلة.

قامت إحدى المعلمات اللواتي عملين في مدرسة عين ميمون، بناحية تامزا، بترحيل 90 من الحركى مع عائلاتهم إلى فرنسا أي ما مجموعه 350 شخص أقامتهم في إقليم كانتال (Cantal). كما التقت بحوالي 30 حركي آخرين ممن فروا من منطقة الأوراس فاصطحبتهم إلى مقاطعة موربيان (Morbihan). ومن جهتها قامت بعض الوحدات الفرنسية المرابطة في نواحي عين بيضاء بترحيل بعض الحركى مع عائلاتهم إلى فرنسا واصطحب ضابطان من قوات الدرك فرقة من الحركى العاملين في منطقة الأوراس.

35. انظر كتابه بعنوان: jusqu'au bout de nos peines الصادر عن منشورات La table Ronde. 1965.

تجاوز عدد المرحلين إلى فرنسا 4.930 شخص ليصل إلى عشرات الآلاف غير أن عددا كبيرا من المسلمين الذين كانوا يودون اللجوء إلى فرنسا لم يتمكنوا من بلوغ مرادهم.

نقلُ السلطات إلى جبهة التحرير الوطني

جرت عملية الاستفتاء بالجزائر يوم فاتح جويلية 1962. وكانت معظم قوات حفظ الأمن الموضوعة تحت تصرف الهيئة التنفيذية المؤقتة والمكلفة بتحضير الاستفتاء قد انضمت إلى صف جبهة التحرير الوطني التي أشرفت على الصناديق وفرز الأصوات في عين المكان.

تم الإعلان عن النتائج بسرعة مذهلة وكانت كالتالي: قرابة 6 ملايين صوت ب"نعم" (99،72%) وأكثر قليلا من 16.000 صوت ب"لا".

في بلد تعدادُه حوالي عشرة ملايين مسلم، من بينهم نسبة مرتفعة من الأطفال، فإن من الخوارق الوصول إلى ذلك العدد الضخم من المصوتين أي ما يقارب نسبة 100٪ أو أكثر قليلا. مع العلم بأنه في جميع الانتخابات العادية حيث يتصارع خصمان اثنان فال محالة أن يصل عددُ الممتنعين إلى 20 أو 25٪ من مجموع المصوتين؛ خصوصا وأن الجزائريين ذوي الأصل الأوروبي والإسرائيليين لم يغادروا البلد بعد. فكان من المفروض، مبدئيا، أن يشاركوا في الاستفتاء لأن بيان إيفيان قد أدرجهم في عداد المنتخِبين؛ فمن مصلحتهم هم والمسلمين الذين حاربوا أو تظاهروا ضد جبهة التحرير الوطني أن يصوتوا ب"لا" ما دام التصويت ب"نعم" يستدعي انسحاب القوات الفرنسية من الحدود للسماح لحوالي 40.000 من الجند النظاميين المدججين بالأسلحة بالدخول إلى الجزائر والاستيلاء، حتما، على السلطة بمساعدة التنظيم السياسي والمدني الذي أعادت جبهة التحرير تنصيبه عبر أنحاء الجزائر. لا أحد في مقدوره الصمود في وجههم بما أن قوات الحركى جُردت من سلاحها وتم تفكيك منظمة الجيش السري.

الواقع أن 16.000 صوت ب"لا"، في مثل هذه الظروف، لم تكن تضاهيها من حيث المصداقية إلا "الانتخابات" على الطريقة الستالينية.

رُفعت الحواجز الحدودية فدخلت القوات النظامية لجبهة التحرير الوطني إلى التراب الجزائري بدون أن تضطر للقتال.

تقدمت قوات جبهة التحرير القادمة من تونس نحو منطقة النمامشة. وتم حلُّ الكتيبة الثانية من قوات اللفيف الأجنبي في حين تم سحب الكتيبة الرابعة من هناك.

ربما مكث الكثير من الأوروبيين في الجزائر لو كانت الظروف المواتية؛ ولكن جاليتهم كانت عرضة لآلاف حالات الاختطاف: فربما تعرض الكثير من المختطَفين للتنكيل وتعرضت المختطَفات للاغتصاب بدون أية بادرة أمل في إطلاق سراح المختطفين مستقبلا. إنه لمن الصعب المجازفة بالبقاء في هذه الظروف فلم يكن بدٌّ لعشرات الآلاف الأوروبيين من المغادرة تاركين كل ما يملكون هناك. رغم مشيئتهم، وعكس ما ورد في بيان إيفيان من تأكيدات.

صاحب دخول قوات جبهة التحرير إلى وهران مذبحة في صفوف المدنيين الفرنسيين: لولا أن هبَّ ملازم أول من المسلمين الجزائريين العاملين في صفوف الجيش الفرنسي، يُدعى ك... ر... لنجدة المدنيين.[36]

بادر بن بلة وبومدين، بدعم من الجيش النظامي الذي حل بالجزائر وبمساعدة قوات الجبهة في الداخل والكولونيل طاهر زبيري إلى الإطاحة بحكومة جبهة التحرير. توجّه كل من بوضياف وكريم وخيضر إلى المنفى. ولقد تم اغتيال كريم وخيضر في الخارج. كما تم اغتيال بوضياف إثر عودته إلى الجزائر بعد غياب طويل.

طبق بن بلة وبومدين سياسة قائمة على التعريب في الجزائر واصطدما بمقاومة عنيفة من طرف البربر. ثم توجّه كل من آيت أحمد ومحند أولحاج إلى الخارج بعد ذلك: تم استقبال محند أولحاج وبعض أعضاء جبهة التحرير الوطني بفرنسا حيث لم يحظ بنفس استقبال عدد كبير من المسلمين الفرنسيين.

36- انظر كتاب الكولونيل Moinet بعنوان: Ahmed connais pas الصادر عن منشورات Athanor، 1989 ..

وقعت مذبحة فظيعة في حق المسلمين المتعاطفين مع فرنسا في الجزائر ولقد وصف بعض الناجين ما سُلِّط عليهم من تنكيل. ولقد تولى الكولونيل عبد العزيز ملياني؛[37] وكذا مجلة هيستوراما (Historama)[38] نشر بعض تلك الشهادات. ولقد كان بعضهم يهتفون، وهم يحتضرون، بعبارة "تحيى فرنسا!".

تشير شتى التقديرات إلى تقتيل عشرات الآلاف من الحركى والمخازنية والمنتخَبين في البلديات حراس الغابات والمناضلين في صفوف حزب الحركة الوطنية الجزائرية وقسما من عائلاتهم أي ما مجموعه 150.000 شخص.

ولقد اعتصم بعض الناجين منهم بالمراكز الفرنسية. ويبدو حسب دراسة أجراها كل من الكولونيل ملياني والكولونيل موني أن مذكرات فرنسية رسمية الصادرة خلال الفترة من شهر أوت إلى نوفمبر 1962 كانت تأمر بالكف عن استقبال هؤلاء الناجين إلا في حالات استثنائية وبصفة مؤقتة (مما يستدعي طرد بعض اللاجئين فيما بعد). ثم وقعت عدة حالات طرد في حق المسلمين بعد وصولهم إلى فرنسا.

بلغ عددُ الضحايا الفرنسيين المسلمين قرابةَ 150.000 أي ضِعف عدد الضحايا الإسرائيليين الفرنسيين الذين تم إبعادُهم من فرنسا أثناء الاحتلال النازي ولقد مات الكثير منهم في ظروف أكثر مأساوية من أفران الغاز النازية.

لا يُعرف ما جرى بالضبط في منطقة الأوراس النمامشة بعد رحيل القوت الفرنسية. في سنة 1982 عُثر، بالقرب من خنشلة، على قبر جماعي يضم حوالي 1.000 رفات نُسب إلى فعل نصف الزمرة الثالثة عشر من اللفيف الأجنبي التي كانت تتقرب صراحة إلى البربر. يتعلق الأمر، بدون شك، بعدد من الحركى من ناحية تامزا والنمامشة الذين قتلتهم جبهة التحرير الوطني. ولا شك أن الكثير غيرهم قُتلوا في أماكن معزولة بعيدة عن جبال الأوراس والنمامشة على اعتبار أن كثيرا من

37. انظر كتاب الكولونيل عبد العزيز ملياني بعنوان: Le drame des harkis المذكور آنفا.
38. عدد خاص رقم18.

الثانوية المناهضين لجبهة التحرير الذين حاربوا في صفوف القوات الفرنسية خلال هذه الحرب لم يتم ترحيلهم إلى فرنسا ولم يتمكنوا من الوصول إلى المناطق الساحلية بعد أن جردوا من أسلحتهم وبعد تصيب حواجز مسلحة من طرف جبهة التحرير.

لم تكن جبهة التحرير الوطني تُقدم مرشحين من غير مناضليها في الانتخابات. وحين أطاح بومدين ببن بلة، في سنة 196، اتُهمت جبهة التحرير بممارسة التعذيب والفساد السياسي.

تحدثت الأنباء، ابتداء من سنة 1979، عن وقوع مظاهرات مناهضة لجبهة التحرير الوطني في الأوراس. ثم اتسعت رقعة تلك الاضطرابات ابتداء من سنة 1988. تم التخلي عن نظام الحزب الواحد في الجزائر وأسفرت الانتخابات التي جرت بعد ذلك عن تقدم محسوس للإسلامويين. أوقف الجيش الجزائري ذلك المسار الانتخابي. ففجر الإسلامويون ضد الجيش نفس نمط الحرب التي شنتها جبهة التحرير الوطني ضد فرنسا مع صاحب ها من تفجيرات وسط الجماهير وذبح المدنيين. ومثلما فعلت فرنسا حين سلَّحت القرويين الراغبين في الدفاع عن قراهم ضد جبهة التحرير بادر الجيش الجزائري بدوره إلى تسليح القرى الراغبة في الدفاع عن نفسها ضد الإسلامويين.

لا غرابة فالجيش الجزائري لم يكن أرحم تجاه الإسلامويين غير أنه تلقى نصيبا أقل بكثير من الانتقادات الموجهة للجيش الفرنسي.

استحوذت عليةُ القوم في جبهة التحرير الوطني على سلطات واسعة وجمعت ثروات ضخمة في حين بقيت ظروف الطبقات الشعبية الجزائرية في حالة لا تُحسد عليه فيه تطرأ على ظروف المرأة أية تحسينات تُذكر.

عارضت بلاد القبائل البربرية مسار التعريب الذي فرضته جبهة التحرير الوطني. واتسعت الاضطرابات في تلك المنطقة في حين تشكلت عصابات مسلحة في

منطقة الأوراس والنمامشة. وكان يُنظر إلى تلك الأحداث على أنها من تدبير الإسلامويين ولكن ربما كانت، بصورة جزئية، من فعل أبناء وأحفاد الحركى الثائرين ضد السلطة الجزائرية المقربة من جبهة التحرير الوطني وبالتالي تكون تلك الانتفاضات نوعا من ردود الفعل ذات العلاقة بالهوية التي عانت من التمييز الاجتماعي.

ولقد تركت حرب الجزائر آثارا بارزة في فرنسا ذاتها؛ فمن ذلك مثلا أن المقدم باستيان تيري (Bastien-Thyri) دبر محاولة اغتيال ضد الجنرال ديغول لم يسفر عن سقوط ضحايا. فأُعدم رميا بالرصاص.

كما توجَّه إلى المنفى الاختياري كل من السيد بيدو (Bidault)، من المسيحيين الديمقراطيين ومن قدماء قادة المقاومة الفرنسية في الداخل حين كان الجنرال ديغول يقودها من الخارج، وكذلك السيد سوستيل (Soustelle)، من الديغوليين سابقا، ولكنه أصبح من معارضي سياسة الجنرال ديغول تجاه الجزائر. كما وضع بعض الاشتراكيين حدا لمسارهم السياسي أمثال لاكوست (Lacoste) ولوجون (Lejeune) وذلك لنفس السبب. أما الجنرال غاردي (Gardy) والكولونيل فودري (Vaudrey) فماتا في المنفى.

تم اختطاف الكولونيل أرغود (Argoud) في ألمانيا، بصورة غير شرعية، وحُكم عليه بالسجن المؤبد. وأُلقي القبض على النقيب كيروتشي (Curutchet) في مطار داكار محاولا العبور إلى أمريكا عن طرق الجو. أُعيد تسليمه إلى السلطات الفرنسية وحُكم عليه السجن المؤبد.

شُرِع شيئا فشيئا في إطلاق سراح المحكوم عليهم بالسجن وكان آخرهم الجنرال سالان، في سنة 1968، أي بعد سنوات من إطلاق سراح إرهابيي جبهة التحرير الوطني الذين فجروا قنابل أودت بحياة الكثير من المدنيين أو تسببت لهم في جروح وذلك من كلا الجنسين بما فيهم الأطفال.

8. بعض الإحصائيات

الإحصائيات الدقيقة تعطي نظرة أقرب ما تكون إلى الدقة والموضوعية. ذلك أن التاريخ علمٌ يتوخى الدقة قدر الإمكان، أو ينبغي له أن يكون كذلك، رغم اعتماده على معطيات لا يستوفي معظمُها شروط الدقة المنشودة. حين تصدى كثير من المشاهير لكتابة مذكراتهم تراهم يتجنبون، عادة، تقديم أنفسهم من زاوية غير ملائمة؛ كما أن الوثائق الرسمية التي يُعتمد عليها لتوثيق الدراسات والبحوث تحتوي أخطاء أو ثغرات مقصودة لعدد من الأسباب. فلا مناص إذن من إخضاعها إلى النقد الصارم والتمحيص الدقيق كغيرها من الوثائق الأخرى. مع العلم أن المذكرات والشهادات الشخصية قليلا ما تكون متطابقة.

يسعى بعض المشتغلين بالإيديولوجيات إلى البحث عن الأحداث التي تؤكد وتدعم معتقداتهم الشخصية ويطرحون جانبا كل حدث مناقض لتوجهاتهم الفكرية. كان كلود برنار (Claude Bernard) يقول في هذا الصدد: حين تتناقض الأحداث والوقائع مع النظريات فإن السلوك العلمي يقتضي تعديل النظريات وليس الأحداث والوقائع.

ليست جميع الإحصائيات دقيقة. إذا قيل إن بلدا ما يعدُّ 59.325.237 نسمة، في وقت معيَّن، فهذا معطى مفيد من حيث دلالتُه الآنية والتقريبية ولكنه غير صحيح بل ربما يكون مغلوطا تماما: لا يقوم مستخدمو التعداد السكاني بإحصاء جميع الرعايا، مهما حسُنت نواياهم، كما أن الرعايا الذين لا يرغبون في أن يتم إحصاؤهم، لسبب أو لآخر، ينجحون في امتناعهم ذاك.

لهذا السبب تلتقي الاستعلامات العسكرية مع البحث التاريخي في عدد من النقاط المشتركة. لا تهدف الاستعلامات العسكرية إلى إرضاء السلطات العليا بتأكيد احتمالاتها أو تثمين خياراتها وإنما غايتها هي إعطاء صورة دقيقة وصحيحة قدر المستطاع عما يحدث في ميدان الواقع. إذا حادت الاستعلامات عن هذا الهدف جرَّت المسئولين إلى كوارث حقيقية. ولهذا السبب لا بد من توخي التحليلات الموضوعية قدر الإمكان والتجرُّد بوعي تام من جميع الأفكار المسبقة.

تتسم الإحصائيات العسكرية، دوما، بنوع من الضبابية بخصوص الخسائر التي تتكبدها القوات الصديقة: ففي بعض الحالات مثلا تغض الطرف عن ذكر مصير المفقودين والجرحى؛ كما أن عودة المفقودين وموت الجرحى من شأنه أن يُدخل، لاحقا، بعض التعديلات على الإحصائيات العسكرية بطريقة غير مقصودة؛ ومن جهة أخرى فإن خسائر العدو قد لا تكون مقيَّدة بدقة: قد تكون أقل من الحقيقة في حالة ما إذا لم يتم العثور على جثث الأعداء فوق أرض المعركة.

كما قد يُلجأ في بعض الأحيان إلى المبالغة عمدا بخصوص الخسائر الحقيقية في معسكر العدو؛ وذلك أمر في غاية السهولة في عمق الأرياف الجزائرية حيث لا تُنقل جثث الأعداء لكي تتولى السلطة العليا تعدادهم ولا يتمكن المؤرخون، فيما بعد، التأكد من صحة الأرقام في نفس المكان الذي سقطوا فيه وخصوصا إذا ما افترستهم الذئاب.

كانت المعارك تدور عادة في مناطق معزولة حيث لا يوجد المدنيون إلا بأعداد قليلة. فإذا وُجدوا هناك فإنهم سرعان ما ينزحون من مشاتيهم حين يتخندق فيها المتمردون ويفرون من الأماكن التي يتمركز فيها المتمردون.

لهذا السبب بالذات لم يقتل الجيش الفرنسي عددا كبيرا من المدنيين خلال هذه الحرب. ربما حدث هذا في حالات نادرة.

في المجتمعات الإسلامية تنزوي النساء والأطفال في مكان بعيد عن أعين الأجانب بما في ذلك الأشخاص الذين لا تربطهم وشائج القربى بالعائلة وبالمتمردين ولو كانوا ينتمون إلى نفس العرق والدين. وبالتالي لم نكن نعثر على جثث النساء والأطفال وسط المتمردين القتلى. ربما عُثر على بعض الرجال المدنيين إذا مروا، لسوء حظهم، من هنا وقت تبادل النار بين الطرفين وقد يكونوا سقطوا برصاص الأعداء كما برصاص الأصدقاء. وبما أن المتمردين لم يكونوا يرتدون بزة عسكرية متميزة ولم يكونوا يملكون أسلحة كلهم فإن أولئك المدنيين القتلى يُحسبون ضمن الخسائر البشرية التي تكبدها المتمردون وغالبا ما يتم هذا عن حسن نية من

طرف الضابط المسئول. مهما يكن فإن عدد القتلى المدنيين لم يكن كبيرا إلى درجة تسئ إلى مصداقية الإحصائيات.

في حالة توفر إحصائيات من النوع المثير للشك والريبة فمن المستحسن مقارنتُها مع إحصائيات جديرة بالتصديق. ذلك أن عدد الأسلحة التي يتم انتزاعها من العدو وعدد الأسرى الأعداء لا يقبل المبالغة في التقدير. إن المدنيين الذين يتم أسرُهم في ميدان المعركة يمكن اعتبارُهم من مساعدي للمتمردين إلا إذا قدموا الدليل والحجة بأن لا صلة لهم بالمتمردين الحقيقيين: وغالبا ما كان هؤلاء معروفين لدى ضابط المصالح الإدارية المتخصصة في شؤون الأهالي الجزائريين أو لدى الحركى المحليين أو لدى سكان القرى والمشاتي التي قدموا منها أو لم يكونوا معروفين من طرف بقية الأسرى.

في عهد تطبيق خطة شال، 1959 ـ 1960، تم الإعلان مثلا عن سقوط 26.000 قتيل و11.000 أسير و21.000 قطعة سلاح ناري محجوزة. هذه الإحصائيات تبدو صحيحة إلى حد بعيد. لأنها تمثل نسبة أسير واحد لقتيلين اثنين أو أكثر كما تمثل نسبة 57٪ من الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها مقارنة بحجم الخسائر البشرية في صف العدو ما بين قتيل وأسير.

بطبيعة الحال لا ينبغي توقُّع هذه النسبة المئوية نفسها في جميع المعارك: ففي فترة 1959ـ1960 كان المتمردون أكثر عددا وأحسن تسليحا ولكنهم كانوا عرضة للقنوط مما أصاب عزيمتهم بالوهن؛ أما في الفترة من سنة 1955 إلى 1957 كانوا أقل عددا وأقل تسليحا ولكنهم أكثر عزما وإصرارا وهذا ما يعطي نسبة مئوية أدنى بخصوص خسائرهم من الأسرى والأسلحة.

تشير المدونة التاريخية الثمينة للكتيبة الثامنة عشر من قوات المظليين الخيالة إلى وقوع 89 قتيل في صفوف هذه الكتيبة من بينهم 32 حركى (36٪ من مجموع القتلى) مقابل 317 قتيل في صفوف المتمردين و110 أسير ولاستيلاء على 400 قطعة سلاح أي ما يمثل 93٪ من مجموع الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها بالنسبة

لمجموع خسائر العدو المعلنة وهذا دليل صريح على صدق الحصيلة التي قدمتها هذه الكتيبة بكل نزاهة.

وثمة كتيبة أخرى طال تواجدها في منطقة النمامشة ألا وهي نصف الزمرة الثالثة عشر من قوات اللفيف الأجنبي. فلقد كانت حصيلتها سنتي 1957.1956 كالآتي: 915 قتيل في صفوف المتمردين و268 أسير و693 قطعة سلاح تم الاستيلاء عليها. أي أكثر بقليل من قطعة سلاح مقابل كل متمردين اثنين مقتولين. ربما أمكن اتهامها ببعض المبالغة في عدد القتلى في صفوف المتمردين غير أن نسبة أسر واحد مقابل أكثر من ثلاثة قتلى في صفوف العدو يتطابق مع النتائج المحصل عليها في أماكن أخرى. ولا جدال في أن المتمردين في منطقة النمامشة كانوا يملكون، في سنة 1956، قطعة سلاح ناري واحدة لكل اثنين أو ثلاثة مقاتلين. حين كان هؤلاء يشنون القتال في المناطق الصخرية ثم ينسحبون أثناء الليل فإنهم كانوا يتركون قتلاهم في عين المكان ولكنهم يحرصون على أخذ أسلحة القتلى معهم. ذلك ما وقع بالفعل في أول معركة شنوها في ناحية العامرة، في شهر فيفري 1956، فلقد قتلت عصابة المتمردين 31 من الجنود المرتزقة وتمكنت من الانسحاب خلال الليل تاركة 45 قتيلا فوق ميدان المعركة وعددا قليلا جدا من البنادق. لا شك أن عدد قتلاها تجاوز 45 ضحية التي تم إحصاؤها في عين المكان، بحضور السلطات المدنية والعسكرية، لأنه لم يُعثر على جميع القتلى ولا شك أن الجرحى الذين أخذوهم معهم قد ماتوا من جراء جروحهم. كثيرا ما تكررت هذه الظاهرة في معارك أخرى.

مهما يكن فإن نسبة جريحين أو ثلاثة في صفوف المرتزقة مقابل كل قتيل في صف المتمردين ظلت ثابتة.

وثمة إحصائيات أخرى وقعت في إطار مغاير وتتعلق بمعارك فصل الربيع سنة 1958 في نواحي قالمة بين القوات الفرنسية والقوات النظامية التابعة لجبهة التحرير الوطني، القادمة من الأراضي التونسية، حيث تم إحصاء 111 قتيل و278 جريح في صفوف كتيبة المظليين الأولى مقابل 1.193 قتيل في صفوف المتمردين و82 آسير و958 قطعة سلاح.

في هذه الحالة نجد نسبة جريحين أو أكثر في صفوف المرتزقة مقابل كل قتيل في الطرف المقابل. لئن كانت نسبة الأسرى في صفوف العدو منخفضة فلأن الأمر يتعلق بجنود نظاميين مدربين كانوا يتقدون حماسة قبل أن يصيبهم القنوط والوهن بعد أن صارت الخسائر البشرية مرتفعة في صفوفهم. كانت تلك القوات النظامية مدججة بالسلاح بحيث بلغ مجموع الأسلحة التي أُخذت منهم مقابل ما لحق بهم من خسائر بشرية نسبة 75٪ ؛ ولقد تم تعداد 10 قتلى في صفوفهم مقابل كل جندي قتيل في صفوف المرتزقة.

إن مجموع الخسائر الفرنسية في حرب الجزائر، والمُعلن عنها بصفة رسمية في المجلات التاريخية، تتباين من وثيقة إلى أخرى. وهي في حدود 25.000 قتيل، من بينهم 4.500 من المسلمين الفرنسيين، (18% من مجموع القتلى). هذه الحرب أكبر بكثير من مجرد عملية بوليسية استغرقت ثمان سنوات؛ ولكنها من جهة أخرى أقل بكثير من الحرب التقليدية مثل حرب 1914-1918 التي أسفرت عن أكثر من 1.300.000 قتيل خلال أربع سنوات؛ أو الحرب العالمية الثانية التي أسفرت، بين شهري ماي وجوان 1940، عن 120.000 قتيل خلال ستة أسابيع. يمثل مجموع القتلى، في الجانب الفرنسي، خلال حرب الجزائر ثُلث عدد القتلى الفرنسيين في حوادث الطرقات في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين. وإذا طرحنا من المجموع العام عدد القتلى في حوادث السير في الطرقات الوعرة وعدد القتلى بسبب المرض فإننا نحصل على عدد 15.000 قتيل أثناء المعارك في صفوف الجيش الفرنسي بالجزائر و4 أو 5 جرحى مقابل كل قتيل في المعركة.

في تلك الأثناء التي بلغ فيها التدخل العسكري مداه بلغ عدد أفراد الجيش الفرنسي العامل في الجزائر، بما في ذلك القوات الإضافية، 600.000 جندي منهم 200.000 من الجزائريين المسلمين (33٪). كان هؤلاء في مقدمة الجيش أثناء عمليات البحث عن المتمردين باعتبار أنهم أدرى بالميدان غير أن الخسائر التي وقعت في صفوفهم كانت أقل من متوسط الخسائر في صفوف الجنود الفرنسيين الأصليين لأنهم أكثر فعالية من هؤلاء.

أما ما يتعلق بقوات جبهة التحري في الدّاخل فإنها، حسب تقديرات بعض المؤلفين، تتراوح بين 12 إلى 15 ألف رجل وكانت تتجدد باستمرار حسب وتيرة خسائرها.

هذه التقديرات صحيحة بالنسبة لبداية الحرب؛ ولكن الدولة الفرنسية أعلنت في سنة 1959-1960 القضاء على 37.000 متمرد ما بين قتيل وأسير؛ وأن هذا الرقم يمثل حوالي نصف عددهم السابق. أما الناجين من الموت وكانوا محل ملاحقة من طرف القوات المحلية وفرق الكومندوس المتنقلة فلقد انهارت معنوياتهم. تفرّق شمل بعضهم والتحق البعض بالقوات الفرنسية وسلّم البعض الآخر أنفسهم فلم يبق من تلك القوات إلا حوالي 5.000 متمرد في ربيع سنة 1961.

تم تقدير مجموع الخسائر البشرية في صفوف المتمردين بحوالي 140.000 قتيل خلال الثماني سنوات التي استغرقتها حرب الجزائر. يبدو أن هذا الرقم مبالغٌ فيه كثيرا. كان عدد المتمردين، بصفة عامة، ثمانية أو تسعة مرات أقل من العدد الإجمالي للعسكر الفرنسيين؛ غير أنهم كانوا يركزون قواتهم عمدا لكي يفوق عددُهم عدد الجنود في الدوريات أو الفصائل التي يهاجمونها؛ وكان عدد قتلاهم يفوق 10 مرات عدد القتلى في صفوف الجنود المحترفين. أما حين يوقعون القوات الفرنسية في كمائنهم أو يشتبكون مع فرق أقل خبرة وحنكة فإن تلك النسبة تنخفض عادة إلى ثلاثة أو أربعة قتلى في صفوف المتمردين مقابل قتيل واحد في صفوف الفرنسيين. يمكن القول، بكل تأكيد، أن جبهة التحرير خسرت أقل من 100.000 قتيل.

غالبا ما تُتَّهم فرنسا بأنها قتلت مليون جزائري خلال هذه الحرب وهذا أمر مستحيل قطعا. لو صحَّ هذا الرقم لكان معنى ذلك أن فرنسا قضت على 12٪ من تعداد المسلمين الجزائريين في سنة 1954 ولظهرت آثار ذلك على منحنيات النمو الديموغرافي بالجزائر. والحال أنها لا تختلف عن منحنيات النمو الديموغرافي بالمغرب حيث وقعت معارك قليلة العدد قبيل حصوله على الاستقلال. تمثل الخسائر البشرية الفرنسية، خلال الحرب الكبرى، 3،3% من السكان الفرنسيين في سنة 1914؛ ويتجلى ذلك بوضوح في منحنيات النمو الديموغرافي الفرنسي.

لم ينخفض عدد السكان الجزائريين خلال الحرب بل انتقل من 8.700.000 نسمة، في سنة 1954، إلى قرابة 10 ملايين نسمة، في سنة 1962، أي بنسبة زيادة وصلت إلى 15٪ تقريبا: فلا يُعقل أن يصل سكان الجزائر إلى هذا العدد لو أن فرنسا قتلت مليون جزائري.

لقد قتل الفرنسيون قرابة 100.000 مقاتل في صفوف جبهة التحرير الوطني خلال هذه السنين الثمانية. ويبدو أن جبهة التحرير قتلت قرابة 50.000 من المدنيين الجزائريين أثناء الحرب وحوالي 150.000 منهم بعد الحرب بالإضافة إلى ما يقرب من 5.000 جندي مسلم في صفوف الجيش الفرنسي، في المعارك، وبضعة آلاف من جنودها الذين أصابهم القنوط وانهارت معنوياتهم. لقد كلفت هذه الحرب قرابة 330.000 قتيل في صفوف المسلمين الجزائريين؛ قتلت جبهة التحرير الوطني الثلثين منهم. كما أسفرت هذه الحرب عن مقتل 20.000 عسكري و10.000 من المدنيين الفرنسيين من ذوي الأصول الأوروبية أو الإسرائيلية.

من الصعب تقديم تقديرات دقيقة عما أسفرت عنه معارك جبال النمامشة من قتلى؛ ولتحقيق ذلك ينبغي الرجوع إلى تقارير العمليات التي حررتها مختل الكتائب التي مرت من هناك ثم تحديد ما تكبدت من خسائر في صفوفها وما كبدته للمتمردين خلال عبورهم المنطقة. وهذا لعمري يفوق قدرات باحث بمفرده وفي وقت محدود. بل ينبغي تخصيص فريق كامل ورغم ذلك فستكون النتائج تقريبية ليس إلا: فهل يجب احتساب الخسائر التي وقعت في صفوف الطرفين المتحاربين خلال تسرُّب المتمردين من جبال الأوراس إلى النمامشة مع احتساب تدخل القوات الفرنسية في الأوراس لملاحقة العصابات المحلية؟ وهل ينبغي التمييز بين المتمردين النمامشيين والأوراسيين الذين قُتلوا في الأوراس؟ وما هو السبيل إلى ذلك؟ وهل ينبغي احتساب الخسائر التي أسفرت عنها معارك منطقة النمامشة المحاذية للحاجز الحدودي؛ كمعارك حدودية أم معارك في منطقة النمامشة؛ خصوصا وأنها وقعت بين القوات الفرنسية وقوات جبهة التحرير القادمة من الأراضي التونسية والتي لم تكن تتألف في معظمها من المتمردين النمامشيين؟

يبدو، مع كثير من التحفظ، أن جبهة التحرير خسرت تقريبا 2.500 قتيل و700 أسير خلال ثمان سنوات في قلب هذه المنطقة الجبلية: وربما بلغت الخسائر الفرنسية ما يناهز 400 قتيل. ومن جهة أخرى فإن عدد المتمردين الذين التحقوا بالصفوف الفرنسية غير معروف بدقة. ربما اقترب من 400 أو 500 شخص (بدون احتساب عدد المتمردين الذي التحقوا بالفرنسيين من بني ملول لأن تلك الناحية تابعة لجبال الأوراس).

كما أنه من الصعوبة بمكان تقدير عدد المدنيين الذين قتلتهم جبهة التحرير الوطني في منطقة النمامشة ويحتمل أنه بضعة مئات. أما عدد المسلمين الذين قتلتهم في نهاية الحرب فيتراوح بين 2.000 و3.000.

وتفوق خسائر جبهة التحرير في الجزء الجنوبي من الحاجز الحدودي المحاذي لشرقي جبال النمامشة قبالة الحدود التونسية ما تكبدته من خسائر بشرية في دواخل الكتلة الجبلية. لأن الأمر يتعلق، في المنطقة الحدودية، بقوات نظامية مدججة السلاح وعالية التدريب وكانت تشن هجماتها انطلاق من الأراضي التونسية. كان عدد الجنود العرب والقبائل أعلى بكثير من عدد النمامشيين الذين كانوا يقاتلون ضمن قوات الداخل على وجه الخصوص.

كانت هذه القوات النظامية تصطدم بالقوات الفرنسية المزودة بالدبابات والمدعومة بالمدفعية الثقيلة والطائرات وكانت تتوفر على عدد كبير من طائرات الهليكوبتر التي بإمكانها إنزال الجنود الفرنسيين فوق معاقل المتمردين مباشرة وبتغطية جوية مناسبة.

أما في دواخل المنطقة الجبلية فكان جنود العصابات يتخندقون في أماكن صخرية لا تصل إليها الدبابات ولا المدفعية وحيث الغارات الجوية قليلة الفعالية.

كانت طائرات الهليكوبتر تُستعمل، بصفة خاصة، في المنطقة الحدودية مما جعل عددها لا يفي بالغرض في دواخل الكتلة الجبلية. تمكنت إحدى طائرات الهليكوبتر من تحقيق نتائج إيجابية وحققت ثانيتهما نتائج أقل في حين تسببت الثالثة في خيبة أمل كبرى.

الخاتمة

معركة النمامشة عبارة عن وقائع ثرية بالدروس والعِبر باعتبار أن جميع تقنيات حرب العصابات والحرب المضادة قد طُبِّقت فيها بفعالية كبيرة من كلا الطرفين المتحاربين.

إن هذا النمط من الحرب واسع الانتشار عبر العالم؛ ولذا ينبغي على عساكر الدول الديمقراطية أن يستعدوا لها ويتدربوا على التصدي لها. فربما يضطرون إلى مواجهة هذا النوع من الحرب أثناء تدخلهم في بعض المناطق إما باسم الأمم المتحدة أو بمقتضى المعاهدات الدفاعية مع بعض الدول الأجنبية. كما يمكن أن تندلع هذه الحرب في بعض المناطق التي تظهر فيها حركات استقلالية لا تتمتع بتمثيل الأغلبية فتعمد إلى هذه التقنيات والأساليب الحربية. وقد يحدث هذا أيضا في حالة ما إذا أرادت إحدى الشبكات الإسلاموية فرض سيطرتها على جزء من السكان المسلمين المقيمين في أوروبا مما يؤدي إلى نقل نموذج حرب الجزائر إلى بلدنا: فمن المفيد إذن معرفةُ حقيقة ما جرى في الجزائر.

تمثل جبال النمامشة منطقة جغرافية محددة المعالم تبلغ مساحتها قرابة 10.000 كلم2 أي أنها أكثر اتساعا من عمالة فرنسية متوسطة المساحة. الواقع أن هذا الموقع القليل الأشجار ليس هو المكان الأمثل لحرب العصابات وذلك بسبب سهولة مراقبته من طرف القوات الجوية. مهما يكن فلقد اعتصمت عصابات عديدة

بهذه المنطقة الكبيرة الشّبه ببعض المناطق الموجودة في فرنسا وأوروبا. من هنا فإن احتمال نشوب حركات تمردية مشابهة أمرٌ واردٌ جدا لأنه يتطابق مع ما جرى في مناطق أخرى قبل حرب الجزائر وبعدها.

عملت عصابات التمرد، في كنف السرية التامة، لتطبيق تقنيات التحكم في السكان. لم يكن عدد أفراد تلك العصابات كبيرا قبل اندلاع النزاع المسلح بصورة رسمية. مما سهّل عملية التحكم في رقاب السكان ضُعف التسيير الإداري في هذه الكتلة الجبلية.

إن الاحتفاظ بعدد كاف من قوات الدرك يسمح بمراقبة أحسن لكل ما يُدبَّر في المنطقة وهو بالتالي أحسنُ طريقة للوقاية والاحتياط.

إذا حدث أن تمكنت العصابات المسلحة من تشكيل صفوفها في منطقة ما وتوصلت إلى إقامة هيكلة إدارية سرية في قلب التجمعات السكانية فينبغي أن يكون رد فعل العسكري سريعا وفعالا وذل ما لم يحدث في منطقة النمامشة بسبب نقص عدد القوات طيلة شهور. إن أي تأخر في التدخل تنجر عنه صعوبة أكبر في استعادة زمام الأمور بعد ذلك فضلا عما يكلف من ثمن باهظ على صعيد الخسائر البشرية.

أما مرور القوات الكثيرة العدد والمدججة بالسلاح فأمرٌ غير فعَّال ولا يُجدي أي نفع نظرا إلى أن المتمردين يتجنبون القتال في مواجهة مباشرة وذلك ما يُدخل الشكوك في نفوس السكان بخصوص فعالية القوات الحكومية. يجب أن تظل التشكيلات العسكرية الخفيفة والسريعة تجوب منطقة الاضطرابات طولا وعرضا وبدون انقطاع. كما ينبغي إقامة مراكز عسكرية في قلب التجمعات السكانية وتزويدها بحاميات كافية العدد بحيث يكون في مقدورها الصمود في وجه هجمات المتمردين. وينبغي تزويد هذه المراكز بما تحتاج من مئونة وعتاد بواسطة دوريات مصحوبة بقوات الخفر لتجنيبها الوقوع في الكمائن.

إن الحرب المضادة للتمرد تتطلب أعدادا كبيرة من الجند الحكوميين: فبقدر ما

يكون عددهم كبيرا تكون علاقاتهم بالسكان أكثر سهولة ويسرا وهذا في صالح الجميع. أما إذا كان عدد الجند قليلا وعلاقاتهم بالسكان نادرة فإنهم يشعرون دوما بالتحرك في ميادين مجهولة وبيئة معادية. وبالتالي فإنهم يعتقدون أن سكان المنطقة يقفون في صف المتمردين وهذا اعتقاد خاطئ إذا ما كان ذلك الخضوع الظاهري نتيجة الخوف من المتمردين.

إن تجنيد قوات مسلحة إضافية بين صفوف السكان يُضايق المتمردين ويزعجهم كثيرا. غير أن هذا التجنيد لن يكون ميسورا إلا إذا أظهرت الحكومة عزما أكيدا وابتعدت عن التصرفات المثيرة للشك والارتياب في موقفها. كما لا ينبغي التخلي عن السكان وتركهم يواجهون مصيرهم بمفردهم؛ وبصفة خاصة إذا كان هؤلاء من المناهضين أو شاركوا في محاربة المتمردين وإلا فسوف تنجر عن ذلك عواقب نفسية وإنسانية فظيعة تدفع السكان إلى التزام موقف الحذر والترقب عند حدوث أزمات مماثلة في المستقبل وفي مناطق أخرى.

ينبغي تدريب الجيش وتحضيره لمواجهة كل التهديدات المحتملة والمتوقعة.

وفي أيامنا هذه؛ قد تجد القوات الفرنسية العاملة خارج أوروبا نفسها مضطرة للدخول في معارك كلاسيكية أو لمواجهة نمط من حرب العصابات في شتى مناطق تدخلها عبر العالم.

إن النقص في قوات الاحتياط يشكل نقطة الضعف الأساسية في حالة تعرض التراب الوطني لتهديدات خارجية.

الفهـــرس

Dominique Farale, *La bataille des monts Nementcha.*
(Algérie 1954-1962)

دومينيك فارال، اسمٌ مستعار لمؤلف هذا الكتاب، وهو من خريجي سان سير وضابط سابق في قوات المرتزقة. شارك، أثناء الحرب التحريرية، في صفوف القوات الفرنسية بجبال النمامشة. وهو حاليا نائب رئيس إحدى جمعيات قدماء الحركى وعائلاتهم. له عدة كتب ومقالات صحفية عن البربر وقوات المرتزقة وحرب الجزائر وفرسان المغول. حائز على جائزة كلود فارير؛ ومن أحدث مؤلفاته: من جنكيز خان إلى قوبلاي خان (منشورات Economica، وهو أيضا عضو في اتحاد الكُتّاب المكافحين.

"كانت منطقة النمامشة موالية في مجملها للوطنيين الجزائريين. وكان هؤلاء يسيطرون على بضعة دواوير تقع في جنوب المنطقة الجبلية، بصفة خاصة، حيث تمكنت فرقهم المسلحة الصغيرة من القضاء على القياد وحراس الغابات وقدماء المحاربين المتعاطفين مع فرنسا وأحلوا محلهم مسؤولين سياسيين مكلفين بجباية الضرائب.

ما كان لحركة التمرد أن تستفحل في منطقة الأوراس والنمامشة لو توفرت فرنسا، فور اندلاع الأحداث، على بضعة آلاف من الجنود وسارعت إلى نشرهم في جميع أرجاء هاتين الكتلتين الجبليتين.

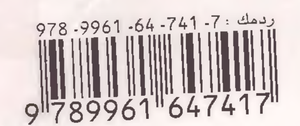
ساهمت الكتيبة الموضوعة تحت إمرة الرائد ميتزينغر في عرقلة تمركز المتمردين في شمال النمامشة. ولكن كتيبة المقدم ميكال لم تتمكن من فعل الشيء نفسه في جنوب المنطقة التي ركزّ عليها لغرور عباس جلَّ جهوده في بداية الأمر. فكان من الضروري توفير عدد أكبر من الكتائب هناك.

استفاد لغرور عباس من الجهود التي بذلها المتمردون في الجنوب التونسي وفي جبال الأوراس. لم يبق ما يكفي من القوات لنشرها في منطقة النمامشة، وذلك ما مكن عباس لغرور من بسط سلطته الإدارية على جزء كبير من جنوب المنطقة. ففي هذا النوع من الحروب تعتبر السيطرة على السكان أكبر الرهانات في الصراع".

(مقتطف من الكتاب).



ردمك : 7- 741- 64- 9961- 978



دار القصبة للنشر